

UNIVERSAL
LIBRARY

OU_190533

UNIVERSAL
LIBRARY

عَلَمُ الدِّينِ

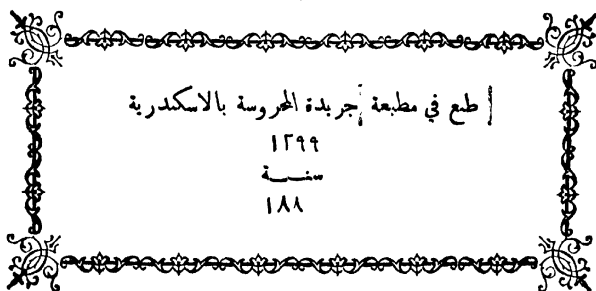
لحضرة العالم الفاضل صاحب السعادة

علي باشا مبارك

ناظر الاشراف العمومية المصرية سابقا



المجلد الثاني



أُطبع في مطبعة جريدة المحروسة بالاسكندرية

١٢٩٩

سنة

١٨٨١



بسم الله الرحمن الرحيم

المسامرة السابعة والعشرون

التيارات

ثم قام برهان الدين وتوجه الى والده فوجده استيقظ
من النوم فاخبره بما كان فقام وتوضأ وادى الفرض كعادته ثم
توجه الى الانكليزي فحياه وبالسلامة هناء وقال له كان توجهي
لجنابكم لادعوكم في هذه الليلة الى التفرج في التياراتو

فقال الشيخ كان بودي ان ارافقك ولا افارقك ولكني ارى
ان لا اخرج في هذه الليلة فاني اجد في جسمي بعض فتور

فقال الانكليزي لا باس عليك واظن ذلك من اثر مشقة
السفر فاذا نمت الليلة واسترحت اصبحت ان شاء الله في عافية

ونشاط والآن اذا لم ترد ان تكون معنا فارجوك ان تاذن لبرهان الدين ان يكون بصحبتى ليتفرج على التياتر وكيفيته
قال الشيخ ذلك اليك ولكن احب منك ان تصف لي
بعض امر هذا التياتر

فقال الانكليزي التياتر عندنا عبارة عن محل تجمع فيه جملة من الخلق مختلفة في الثروة والافتقار لاجل التفرج على انواع مختلفة من العاب متخبة من آثار بعض المشهورين من العلماء والشعراء والعقلاء والبلغاء فيتشكل بحسب الالعب التي يراد اجراؤها فتارة تكون عبارة عن تصوير بعض وقائع حربية ومبارزات شخصية وفتن ملية وتارة تكون عبارة عن عوارض حدثت في بعض الجهات او لبعض الناس من الامراء والملوك وغيرهم كالعشق والفراق والفقر ونحو ذلك مما يحدثه الزمان في تقلباته وقد تكون هذه الالعب مؤسسة على تمثيل بعض امور وردت في الكتب الدينية كوصف يوم القيامة وما يكون فيه من الاحوال ووصف الطوفان وما جرى فيه على الوجه المذكور في الكتب المقدسة وتارة تكون مخصصة بالصفات النفسية والشهوات الذاتية كالكرم والنجل والحلم والعدوان والكبر وما اشبه ذلك وقد يتعاقب في بعضها جملة من انواع الالعب كالجد والهزل والمفرح وغير المفرح وقد يكون مختصاً بنوع واحد ولكل علامة يعرف بها وفي بعض الالعب لا يستعمل الا اللسان المتعارف

والالفاظ المعتادة وفي بعضها يستعمل النثر مع الشعر وفي البعض لا يستعمل الا الشعر ونارة يكون التاء الكلام فيها على وجه التغني مع موافقة اصوات الآلات الموسيقية ونارة يكون على وجه التاء المحطبة او على هيئة المحاطبة والمحاورة واذا كان للعبة احوال جعلوا لها فصلاً بقدر الاحوال التي تعترضها وتراهم يصورون الملعب في كل حالة وواقعة بهيئة تناسبها وتليق بها على وجه المحاكاة لمحل وقوعها فان كانت الواقعة في ارض ذات انهار واشجار وبيوت وقناطر مثلاً صوروا المحل بهذه الهيئة بعينها وهكذا اذا كانت في صحراء بها جبال وصخور ووحوش وطيور او في بحره امواج كثيرة وسفن صغيرة وكبيرة او في وادٍ كثير المسالك وهلم جرّاً الى غير ذلك وفي كل نوع يظهر اللاعبون بالهيئة التي كان عليها الناس حين كانت الحادثة من ذكور واناث وصغار وكبار بملابسهم وهيئاتهم واحوالهم وكيفياتهم واشكالهم فان كانت الواقعة حربية مثلاً هيئوا احوال الحرب والضرب والقتال والنزال وصوروا الكر والفر والاقدام والاحجام والزحف والادبار والغلبة والفرار واشهروا السلاح وهزوا الرماح وصفوا الصفوف وضرَبوا بالسيوف ورموا بالمدافع والبنادق كما مثال الصواعق ورفعوا البيارق والسناجق وعبروا الخنادق حتى يتخيل الحاضرون من حسن السبك ان ذلك حقيقة بلا شك اذ يرون الخيل وهيئاتها والرجال وكيفياتها وينظرون فيرون سماء تارة

تظهر وتارةً تغطي باذيال الدخان او سنور السحاب وتارة
تظهر الكواكب بها للعيان وتارة تتوارى بالمحجبات وينظرون
الى ارض الملعب فيرونها في بعض المواضع غاصة بالشجر
والغابات وغير ذلك من الهيئات والخلق في خلالها بين قتيل
وجريح ومتأسك وطريح الى غير ذلك ما تتضمنه حال الوقائع
وتستدعيه محاكاة صورة الواقع

فقال الشيخ الى اي وقت يمتد اللعب في التياتر . قال
يمتد في العادة الى نصف الليل ومن العادة ان يكون اللعب
على عدة فصول تفصل عن بعضها ببرهة خفيفة تتخلل بين كل
فصلين منها لاجل استراحة اللاعبين وتجدد نشاط المتفرجين
وعلاوة ذلك الانفصال سقوط ستارة تحول بين اللاعبين
والمفرجين وهناك محلات للاستراحة وشرب القهوة والدخان
وغير ما ذكر وفي اثناء ذلك يستعد اللاعبون للفصل اللاحق
فان كان هناك لعبة جديدة هيئوها وهيئوا ادواتها واستعدوا
واعدوا المحل لها وفي تلك المدة ايضا يذهب كل من المتفرجين
الى ما احب فمنهم من يذهب الى محل الشراب ومنهم من يقوم
للمحادثة مع بعض الاحباب ومنهم من يخرج ثم يعود اذا كان معه
ورقة الباب وعلامة الاجتماع ضرب جرس يسمعه المتفرجون
فيعودون لمحلهم ويجمعون فترفع الستارة فيرون المحل على
الهيئة التي يراد تصويرها

وكان التياتر عند المتقدمين عبارة عن ارض متسعة يحيط بها درابزين وعمد وهي مستوفة بأقشة للوقاية من العوارض الجوية وكان يسع نحو عشرين الف نفس يجلسون على درج يعلو بعضها بعضاً منفصلة عن بعضها لسهولة المارين من بينها وبها سلام للصعود والهبوط وشكله عبارة عن جزئين جزء مستطيل يجلس عليه ارباب الموسيقى وجزء مستدير وهو المخصص باللعب وكان يشتمل على بعض محلات لتغيير اللاعبين ملابسهم وتحضير ما يلزم للعب

وفي هذه الاعصار المتأخرة زاد الاعناء بمحلات التياتر ودخل فيها كثير من التحسين والزخرفة والتزيين حتى صارت معدودة من العمارات الشهيرة في الرونق والزينة والزخرفة واللطافة والظرافة داخلاً وخارجاً ولذلك عدة مبان شهيرة صرف على بنائها وزخرفتها اموال كثيرة فمنها ما صرف في انشائه قريب من مائتي الف كيس كالأوبره بباريس ومنها ما صرف عليه اقل من ذلك وكانت عادة اللعب عند المتقدمين مدة النهار فقط وقد غيرت تلك العادة الان وجعلت في الليل وهو اوفق لانه وقت الفراغ من الاشغال العمومية والاسباب المعاشية فيجب الانسان ان يتروح بالتلذذات الدنيوية والملاهي ليستريح من الآلام التي اعترته. نهاراً من الاشغال الضرورية ولم يكن اوفق لذلك من الليل ولم يشتهر امر التياتر ببلادنا الا من ابداء القرن السادس

عشر من الميلاد وبسبب ما وجد فيه من اللذة للامراء وعموم
الناس مالت اليه الملل الاوروبية كل الميل واحداثوا فيه انواعاً
مختلفة حتى تقدم تقدماً عظيماً وصار من ضمن اسباب الرزق لكثير
من العلماء والشعراء والمشتغلين بتركيب الحكايات والنوادر
والامثال ومن مواضع التربية العمومية وتهذيب الاخلاق والطباع
وعلى حسب درجة التياتر وعظمه يزداد عدد الموظفين به فيكونون
قريباً من مائتين وخمسين نفساً من النساء والرجال وذلك كما في
الايوبه واقل من ذلك في غيره واذا توقفت ادارة المشهور منها على
المساعدة ساعدت الحكومة اربابه على حسب ما يلزم من الهيئة
والاجهة باموال عظيمة ربما تبلغ نحو الالف كيس سنوياً فترتب على
ادارته والاعناء به اشتغال افكارهم حتى كاد ما اخترع والى في
هذا المعنى من الكتب والحكايات يزيد على ما هو مكتوب في باقي
العلوم والفنون وكما يوجد من التياتر عدد كثير في المدن الكبيرة
كذلك يوجد في المدن الصغيرة وفي قرى الارياف خصوصاً
البلاد المعتاد بها نصب اسواق او ما يوجب اجتماع الكثير من
الناس كالاعياد والمواالد وقد تكون في القرى داخل خيم او في
محلات مستورة بالاخشاب ولا يمنع احد من دخول التياترات
فيدخل الغني والفقير والعظيم والحقير وانما يدفع كل انسان مبلغاً
مقدراً على حسب الدرجة التي يرغب فيها فان رغب في الدور
الاول دفع اكثر من الثاني او في الثاني اكثر من الثالث او في

لمحجرات المخصوصة دفع أكثر من على الدكات وثناوت الاجرة
على حسب تفاوت الدرجات من نصف فرنك الى عشرين فرنكاً
فقال الشيخ لولا ما ذكرت من كمال انتظام التياتر وحسن
احواله وانه من مواضع التربية العمومية وتهذيب الاخلاق لخطر
في البال ان ما يحصل به من التقليد والتثيل والالعاب المتنوعة
من قبيل ما يكون في بلادنا من العاب الطائفة المعروفة باولاد
رايه وما يكون فيه من الاغاني والالحان ايضاً من قبيل ما يكون
عندنا من غناء المغنين والمغنيات فاما اولاد رايه فانهم يدخلون
في تقليد بعض احوال حاضرة او امور ماضية ياخذون في تمثيلها
وتصويرها وابرازها في معرض المحسوس المشاهد سواء كانت اموراً
اختراعية وهمية لا مستند لها سوى الخيلة ام كانت اموراً حقيقية
حصلت في الواقع ونفس الامر وقد يكون لهذه التقليدات في
بعض الاحيان نفع في الجملة بان يدخل فيها تقييد واقعة سيئة
حصلت في الزمن الحاضر او الغابر من بعض الناس فيبرزونها في
معرض التشنيع والنفطع مفرغة في قوالب الهزل والسخرية فيضحك
منها من يراها وقد يراها من كانت حصلت منه او من هو على
حال مثلها فيستنكف ان يعرف بتلك الحالة المنكرة التي صارت
مثلاً وضحكة لاعالي الناس واسافلهم وتكره نفسه بالضرورة ان
يكون معروض تقليد هؤلاء القوم وموضوع اضايحهم فيكف عن
تلك الحالة القبيحة ويرجع عن معاودتها وياخذ نفسه بالاقلاع

عنها فهذه خاتمة ما يلمس لهم من المزية والفائدة ألا أنه قليل نادر
 كالمعدوم وغالب احوالهم على ما سمعته عنهم ورايته في بعض
 الاحيان منهم مبني على الفحش والسخف والعيب مما تأباه النفوس
 وتجه الطباع من الافعال الفظيعة والاقوال الشنيعة التي ينفر
 منها كل من له جانب من العقل والدين ومسكة من الحياء
 والحشمة وقد يطلع على هذه الاقوال والافعال بعض الاغرار
 من الرجال والصبيان والاطفال والنساء فيؤثر ذلك في فساد
 اخلاقهم وتغيير طباعهم بما يرونه ويسمعونه مما عساهم قد كانوا بعزل
 عنه من فحش القول وشنيع الفعل وقد قال الله سبحانه وتعالى
 (لا يحب الله الجهر بالسوء من القول) فلو خلا اللعب عن هذه
 القبائح لكان مما لا ضير فيه اما على تلك الصورة فهو مذموم منكر
 مضر ولهذا ترى اهل الورع والتقوى عندنا يتخامون مواضع هؤلاء
 الجماعة ويكرهون غشيانها وقد رايتهم انا عند بعض الجيران
 فنفر منهم طبعي ومحهم بصري وسمعي

واما الغناء عندنا سواء كان من الرجال او من النساء فلا
 يقصد به حكاية حال ماضية ولا حاضرة وإنما هي في الغالب
 كلمات غرامية من الشعر او غيره من الغنون يرددها المغني ويترنم
 بها مع رعاية تحسين الصوت وإجادة الاداء والاتيان بما يستعذب
 من الالحان علي قدر الامكان فيقصد فيها الى رخاوة الصوت
 ورخاوة وجوده الاداء وحسن الانغام وقد تقطع النظر بالكلية

عن متعاني الكلام حتى اننا نراهم يدخلون في الغناء بعض كلمات لا يعقل معناها المغني ولا السامع بل ربما كانت لا معنى لها في نفسها وترى المغني يعيد الكلمة الواحدة مثل ياليل يا عين مرات كثيرة يكررها من تلقاء نفسه او باستعادة من السامع لاجل لفظها ولا لمعناها ولكن استجادة للحن واستحسانا للنغمة وما تنأسف عليه انا نرى فيما نقل البنا من اغاني القدماء في كتب الادب كلمات تحت على الكرم والفتوة والنخوة ولا نرى الاغاني عندنا في هذه الاعصار الا مقصورة على العشق واللذة والشهوة فلا نرى لها اثرًا يحمد في التربة وتهذيب الاخلاق بل ربما كانت في بعض الاحوال مما يضر بذلك كما قلناه في لعب اولاد رايه والذي اظنه بحسب ما سمعته منك ان ما وصفته من التياتر ليس بهذه المثابة

فقال الانكليزي لا مناسبة بين الامرين فان الجماعة المعروفين عندكم باولاد رايه انما هم اشخاص مجردون من حسن النخصان والعلم والكمال مجتمعون من طعام الخلق وعوام الناس لا يحسنون معقولاً ولا منقولاً بخلاف طائفة التياتر عندنا فاكثرت من تعلم وتادب وترفي وتهذب وحصل على فنون كثيرة ومن آداب التياتر ان لا يقال في مجامعهم الا ما يؤخذ من تأليفات متفق على موافقتها لتهذيب الاخلاق والطباع والعادات والتميز بين المحسن منها والقيح والفاسد والصحيح للمحافظة على ممدوحها والتباعد عن مذمومها وكل ذلك بالقاظ عذبة وغبارات رقبة

مستحبة ولا يفعل ولا يقال ما يخل بالادب والكمال وإن المجأت
الضرورة في بعض العبارات الى وصف حادثة من الحوادث
السرية تحايل المؤلف او اللاعب في القاءها والتعبير عنها بكناية
لطيفة لا يشعر بها إلا الحاذق المتيقظ العارف بما للحادثة من
الاحوال

واما الاغاني عندنا فهي في الاغلب عبارة عن واقعة مخصوصة
وحادثة معلومة يراد تذكراها ويستجاد تكرارها وقد يكون المراد بها
تهيج سورة الحماس وتحزب الناس الى غير ذلك من الاحوال
وقد تكون عبارة عن غراميات واغزال وربما لا يقصد من السماع
في بعض الاحيان غير جودة الاداء وحسن الالقاء وموافقة قواعد
الموسيقى وممازجة ما يكون موجوداً من آلات الطرب من غير
نظر الى الالفاظ والمعاني فقد يكون الغناء بغير لغة السامع وهو
يطرب منه لمكان الصنعة وحسن الالقاء كما يطرب من تغريد
الطيور وآلات الطرب وعلى كل حال فالاغاني في التياتر انما
تكون مجسماً تتظم في سلكه من محاكاة واقعة او تصوير حادثة او
غير ذلك وعلى الجملة فليس التياتر عندنا من قبيل ما ذكرت من
العاب اولاد رابية ونخبوها بل هو كما ذكرناه عبارة عن امثال
علمية على حسب الحوادث التاريخية والتقلبات الدهرية وهو بهذه
الكيفية ما يساعد على تقدم الامة وتمدنها ويوسع دائرة فخرها واثروتها
وفوائده كبيرة ومزاياه كثيرة منها اجتلاب الانس وتنشيط النفس

وتروج الخاطر بتسريح الناظر في المرئي المختلفة والمناظر المحسنة اللطيفة والأشكال المتنوعة والأوضاع المتغايرة فان الانسان يميل بطبعه الى المستغرب والمستحدث من الاشياء والمستطرف المستطرف منها ومعلوم ان الانسان اذا طال اشتغاله بالتفكر في الامور العقلية وانهماكه في الاعمال الشاقة البدنية فترت قوته وضعفت همته وكلت فكرته فيحتاج ان يتخلى عن ذلك في بعض اوقاته ريثما يستريح ويجم نشاطه وتراجع اليه قوته فاذا طال في النهار كده وجده وجهده وانهماكه في الاعمال البدنية والاشغال الذهنية لم يات عليه الليل الا وقد كلَّ بدنه وملت نفسه وفتر ذهنه فاذا مضى الى التياتر واشتغل بصره وفكره بما يراه وما يسمعه به تحول ذهنه عما كان فيه واستراح مما يعاينه وتسلى بما يتقلب عليه من الاشكال المتنوعة والأوضاع المختلفة وطابت نفسه بما يراه من الصور المحسنة والمناظر الجميلة فاذا عاد في غده الى اعماله الذهنية والبدنية عاد بنشاط جديد ونفس مقبلة وهمة متوفرة

ثم هو في اثناء تسريح طرفه فيما يروقه من تلك المناظر ونفسه في مستلذاتها من تلك الهيئات والكيفيات يستفيد كثيراً من الفوائد العلمية والاخلاق المرضية فبكون ما في التياتر من الاحوال لذة في الحال وثمره في الاستقبال وهذا هو السر الذي حمل عقلاء الملوك والحكام ونبلائهم على اتخاذ التياتر فانهم رأوا ان النفوس بالطبع مائلة الى اللذات منجذبة لجانب الشهوات ورأوا ان صدها

عن ذلك بالكلية ومنعها بالمرّة يتعسرا ويتعذر فاختاروا ان يستخوذوا
على تلك الشهوات والمستلذات ويتخذوها كآلات تستعمل فيما يراى
من الامور النافعة المحموده في الشرع والعقل ويفرغوها في قالب
تصير به من اسباب الفوز والسعادة فلم يجدوا احسن من التياتر
للوصول الى هذا المقصد فانه مع موافقته للاغراض والليذات
والشهوآت هيء النفس للتخلي بحسن الشئائل وصفات الكمال
والاستكثار منها والتمكن فيها والتباعد عن ذميم الاخلاق وردى
الطباع فهو بهذه الحيلة كالخادم للشرعية التي تامر بالخير وتنهى
عن الشر

ومن المعلوم ان اقوى شي تمسك به الامة وتقوم عليه هو امر
دينها اذ بدونه لا تنجح القوانين البشرية ولا تظهر اثارها ونتائجها
فاذا كان التياتر خادماً للشرعية كما ذكرناه مرغباً فيما تدعو اليه
وتامر به منفراً عما تنهى عنه كان بذلك من اعظم الملائهي بل من
اهم الامور واولاها بالاعناء والرعاية

وانت تعلم ان كثيراً من الناس انما يمثلون امر الشرعية
ويتبعون احكامها خوفاً من الآخرة وما يكون فيها من الاهوال
والامور الخيفة والسؤال والحساب والناار والعذاب فهذه الاهوال
والخواف متصورة في اذهانهم منطبعة في مخيلاتهم وان لم يروه
بالفعل ومن اعظم ما يقوي ذلك في اذهانهم ويمكن تأثيره من
قلوبهم هذا التياتر لانه يصور جميع تلك الصور للعين ويجلوه

للعيان ويخرجها من قوة التخيل الى حيز المحسوس المشاهد فيمثل
للرائي النار مثلاً في صورة هائلة وهيئة مزعجة ولهب ساطع مرتفع
وشرر كبير منتشر الى غير ذلك من احوالها وسلاسلها واغلالها
وافاعيها وحشرايمها وعظام آفاتها وهو يراها ويرى المجرمين فيها
تلفهم نارها وتنشم افاعيها ويقاسون انواع العذاب الاليم والعقاب
الشديد مما ترق لرويته الاكباد القاسية وتضطرب لهول منظره
القلوب الساكنة فما ظنك بمن قرأ اوصاف تلك الاهوال في
كتب الديانة وتخيلها في ذهنه ثم رآها في التياتر على تلك الحالة
المنكرة والمنظر الفظيع وهو يعلم ان التي تكون في الاخرة اكبر
واخطر وادهي وامر لما يعرفه من انه لا يمكن مضاهاة افعال الحق
جل جلاله بافعال الخلق وتمثيلها للعين الا بوجه التقريب وعلى
قدر الامكان فاذا انتقل ذهنه من تلك الصورة المشاهدة له الى
تلك الهيئة المطبوعة في مخيلته وتصورها في نفسه بما لها من الهول
العظيم. والخطب الجسم أفلا يرق قلبه ويقشعر جلده ويتمكن
خوف العذاب منه بما يحمله على ان يتباعد عن موجباته واسبابه
من الظلم والعدوان والفجور والشرور وكذلك اذا رأى تمثال
الجنة بما يكون فيها من الانهار والاشجار والازهار والاثار والقصور
والديار وسائر المستلذات والمشتهيات أفلا تتحرك رغبته وتميل
نفسه اليها بما يحمله على ما يقربه لهذا النعيم من فعل الخير وانواع
البر

فهذا من جملة خدمة التياتر للديانة وتأبيده لها وإعانتة على مقاصدها

فقال الشيخ من اين لم صورة الجنة والنار والثواب والعقاب ولم يروا شيئاً من ذلك وكيف يصورون ما لم يروه وكيف يصدقهم الناس

قال الانكليزي انما يصورون ذلك على وجه التخيل والنفوس وعلى حسب ما ورد في الكتب المقدسة وسائر كتب الديانة من الاوصاف تقريباً للاذهان واخراجاً للشيء المعلوم من صورته الذهنية الى الصورة الوجودية

فقال الشيخ نحن لا حاجة لنا بهذه الصور فان ما عندنا من اليقين باحوال الآخرة يغنينا عن هذه الصور والتماثيل خصوصاً ونحن نعلم ان جهد الادمي ووسعه لا يمكن ان يصل الى محاكاة ما يكون في اليوم الآخر من الاحوال والاهوال بل لا يمكن ان يصل الى ما يصل اليه الوصف الوارد فيه فهل يبلغ التصوير والتمثيل مبلغ قوله تعالى في صفة النار انها ترمي بشرر كالتصر كانه جمالات صفر ويل يومئذ للمكذبين . فقال الانكليزي ليس كل الناس في ذلك سواء

وعلى الجملة والتفصيل فلتياتر في تأديب النفوس وبهذيب الاخلاق وتربية الامة مدخل عظيم . وانت تعلم ان سلطان الدرهم والدينار له قوة عظيمة عند

الناس وفعل في عقولهم يعارض به قوة القوانين الموضوعة والاحكام
المشروعة ولذلك ترى كثيراً من اصحاب الثروة والمال من اهل
البغي والزيف يستميلون قلوب القضاة والحكام الى ما يخالف
مقتضيات الشرع والقانون فيردعهم التياتر بروادعه وقرعهم بقوارعه
فانه يضع يده على المتمردين واهل الفسق والفجور من الخلق
ويكلمهم في قيوده ويعرضهم على الاعين في ميدان حكمة الضنك
ويضعهم على رؤوس الاشهاد ويجعلهم عبرة للعتبين وتبصرة
للمتبصرين ثم لا يقتصر حكمه على الوقت المحاضر بل يسري ايضاً
الى الزمن الغابر فيجول في تواريخ الامم الماضية ويستخرج منهم من
ذكروا بفعل قبيح او حسن فيستخوذ عليهم ويكلمهم لرجل من رجاله
يكسوه ملابسهم ويبرزهم في صورهم ويهيمهم بهيئاتهم التي كانوا
عليها واسمائهم التي كانوا يذكرون بها حتى كأنهم نشروا من
قبورهم قبل اوان نشورهم فيعرضهم كذلك على اعين الناس مع
ما كانوا عليه في زمنهم من فعل خير ممدوح او عمل شر مذموم
ومكرمة تبقى اثارها وافتخارها او معرة يخلد عارها وشنارها فيكون
ذلك من اعظم البواعث على تربية النفس وتأديبها وحسن
تهذيبها

لا سيما ان التياتر لا يقتصر على امر من الامور ونوع من
الافعال وطائفة مخصوصة من الناس بل يستخوذ على جميع
الامور وكل اجناس الناس فلا يخرج من قبضته المجابرة المتمردين

الذين كانوا آفة أيامهم وداية أزمانهم ببيعهم وعدوانهم وظلمهم
وطغيانهم بل ينظمهم في سلكه ويجربهم في قبضة ملكه ويجبرهم في
ميدانه تحت نظر الناظرين من اهل العصر الحاضرين ليروا
بابصارهم كيف تزول عظمة العطاء الطامعين وكيف يفعل الله
جل جلاله بالجباية الباغين الذين ضلوا واضلوا غيرهم عن
مسالك الرشد والهدى ووقعوا ووقعوا من تبعهم في مهالك الردى
فياخذ من ذلك كل واحد من الحاضرين حظه من الموعظة
والعبرة علي قدر استعدادة وقابليته فتضعف وتسكن عند كثير من
الناس شهوة الشر وتقوى وتتحرك رغبة الخير والبر

فمن ذا الذي لا يرجف قلبه وتضطرب مفاصله حين يرى
فعل قاتل النفس عند القتل واي نفس لا تتأثر وقلب لا يتحرك
وجلد لا يشعر عند معاينته قاتل الولد والوالد للحصول على
بعض الاغراض والمفاسد واي همة لا تتحرك عند رؤية فاضل
كريم من الناس يفدي غيره بروحه وماله واي غل لا يستفزه
حب الفضل واهله وكل متمسك بجبله عند مشاهدة تجرد الافاضل
من الرجال من حياتهم ومالم وعيالم لتخليص وطنهم واهله من
سطوة الاعداء المفسدين وقهر الجباية المتبردين

كل هذه الاحوال لا يخفى تأثيرها في القلب وفعلها في النفس
وليس لها غير التياتر ما يكشف حقيقتها ويعطيها قوتها فانه هو
الذي يضعها موضعها وينزلها منزلها ويوفيقها حقها ويكسرها ما

يليق بها من ثواب المحسن والكرامة والنعمة او القبح والمهانة والنتمة
حتى يرى الرائي حالة العظماء المتكبرين والاشقياء المنجبرين والكبراء
المشههورين كيف تقلبت بهم حادثات الليالي وتصرفت بهم صروف
الايام وكيف طحتهم رحى الدهر ودارت عليهم دوائر القهر وما
الذي اورثهم مساويء افعالهم ومفاسد احوالهم وكيف استنزلتهم
عن درجاتهم الشاغخة وحطتهم عن رفعتهم الباذخة وجردتهم من
قدرتهم القاهرة فاصبحوا بعد قوتهم مستضعفين وبعد قهرهم مهورين
ويرى اصحاب الهمم العالية والافكار الشريفة والافعال المحسنة
والاحوال المستقيمة كيف توصلوا الى طرق المجد وارتقوا درج
العز وركبوا صهوة الشرف وتسلموا ذروة الفخر

لاجرم ان كل ذلك يوسع دائرة العقل ويقوي ملكة الفهم
ويوجه النفس الى طرق الخير ثم لا يخفى ان كثيراً من امور
الناس واحوالهم لا تدخل تحت حكم القوانين البشرية وبذلك
يخلص من عقوبتها كثير من سيئات الناس ويخلو عن المكافأة
كثير من حسناتهم ومن شأن النيات ان يستحوذ على كل ذلك
فيدخله في بابه وينظمه في سلك العابه ويكشف عن قبح الشر
وشؤمه لتتكف عنه نفوس اربابه ويظهر فضل الخير وينوه به
لتقوى فيه رغبة طلابه فهو بهذه الحالة اعظم باعث يبعث على
الخير والصلاح والرشد والفلاح ويحث على التخلي من ذميم الافعال
والتعطي بصفات الكمال

ثم لا شك في ان مصائب الامم ليست كلها حاصلة من المساوي والكبائر فقط بل كثير منها ينشأ عن خلل العقل وتقص الادراك وسوء التدبير وتعلق النفس بما لا ينفع او بما يضر ومن تأمل في حال كل امة وما حل بها من الحوادث سابقتها ولاحقها ونظر في اسبابها وحقائقها علم ان معظم الاسباب التي اودت بها وادت الى خرابها سوء التدبير ومتابعة هوى النفس والغرور المحاصل عن الجهل

ولذلك قل ان نجد في كل عشر حوادث يضحك منها حادثة يهمننا اصلها او تهولنا صورتها ومن يقارن بين عدد اصحاب الكبائر والجرائم من امة من الامم وبين عدد من لحقهم الخرف او الذهول او المجنون منها كان كمن يقارن بين حبة رمل صغيرة وصخرة كبيرة ومن الغريب انك ترى الناس كلما زادوا في التقدم والفنون زاد فيهم عدا اهل الطيش والسفه والمجنون فلا ينجع في مداواة دائهم واستئصال شافة اهوائهم وردعهم عن شرورهم وتجريدتهم من ثياب غرورهم الا بالباسم ثياب الهزل وتأديتهم بسوط السخرية وعرضهم في معرض الاهانة ليفيقوا من غفلتهم ويهبوا من رقدهم ويتخلص الخلق من مضرتهم اذ لا عقوبة على الانسان اشد من عرضه في ميدان الهزل والسخرية وجعله للناس اضحكة ومثالا وعبرة ولما كان حكم القوانين الدينية والديوية لا يدخل هذا المدخل كان التيار بسبب تأديته لهذا

الغرض معيناً لها على تكميل الجمعية البشرية بهذه الصورة ايضاً
كما هو مساعد لها بغير ذلك

وللتاثير غير ما ذكر مزية كبرى قد اخص بها دون غيره
وهو انه مدرسة علمية لجميع الاحوال السرية ومصباح يستضاء
به في الاحوال الباطنة ومفتاح يفتح به جميع الخفايا الكامنة حتى
تظهر خطرات السرائر واوهام الظنون واحاديث النفوس فتبدو
من خلال ستورها ويطلع الناس على خفيها ومستورها مفرغة
في قوالها موضوعة في مواضعها منزلة منازلها

فان لم يحصل منه تهذيب جميع الحاضرين فلا اقل من
كونه في كل مرة يؤثر في بعض افراد منهم فمع التدرج والاستمرار
في الازمان المتوالية تهذب اخلاق الجميع او الاغلب وتحسن
احوالهم فان قيل انا نرى كثيراً ممن يحضر التاثير لا يتجه افكارهم
الى تحسين امورهم وتهذيب نفوسهم بل تشتغل حواسهم بما يرونه
من المناظر الظاهرة من غير ان تتأثر نفوسهم باثر يوجب لهم ان
يرجعوا عن فساد نياتهم ومساوي افعالهم بل ربما كان ذلك
موجباً لازديادهم في الشر واقتباسهم بعض وسائل للتمكن من
الفساد واضرار العباد

قلنا ان كان ذلك فانما يكون للبعض لا للجميع ومن لم
يتأثر من صورة فلا بد ان يتأثر من غيرها ومن لم يرجع من مرة
فربما يرجع من مرتين ومن لم يهتد في الحال لا بد ان يهتدي في

الاستقبال

وعلى كل حال فله تأثير عظيم في عقول الشبان من الرجال والنساء فيكشف لهم عن حقائق الامور فيتجززون من الوقوع في شباك الغي ومهاوي الغرور واقل فضائله الكشف عن العيوب والمساوي وتمييزها من الفضائل والمحاسن وهو بتحقيره للاولى وتزييفها وتعظيمه للثانية وتشريفها بجعلنا لا محالة على توجيه انظارنا وازدياد ميلنا للحسن المدوح واعراضنا وازدياد نفرتنا عن السيئ المذموم فتتسع دائرة معلوماتنا وتستقيم طرق فهمنا وترسخ الامور في نفوسنا بصورها الحقيقية وهيئاتها الصحيحة فتميز عن اصدادها ولا تلتبس بغيرها فتى وقعت تحت حواسنا عرفناها وعرفنا اصحابها فناخذ ما يوافق لحالنا بالنظر لتحصيل المنافع ودفع المضار وتباعد عن الاشقياء والمنسدين او نذارهم باللسان على قدر الامكان ونتقرب من الافاضل والصالحين بحسن المعاملة والود والمجاملة ونعرف ايضاً المنافقين والكذابين والنجامين والخائنين والمخادعين وطرق حيلهم وكيفيات خداعهم ومكرهم ومداهنتم فلا يغرننا حالهم وفعلهم ولا يروج علينا غشهم وحيلهم بل نضحك من افعالهم ولا تقع في شرك احتيالهم فان التياتر يرسم لنا في وجوههم وعلى سيماهم صورة ضمائرهم وهيئة سرائرهم فنضحك من خداعهم ونهزأ بمكرهم ونبطل بقوة خيال سحرهم ونسلط عليهم وعلى شياطينهم نور العلم والمعرفة ونار الانتقاد فتسود وجوههم

ونحرق حتى يصجوا بسوء فعلهم بين الناس اضحوكه ومهزاة
وسخرية وربما انتهى بهم ما يلتقونه من الخزي والفضيحة والذل
والمهانة الى ان يرتدعوا ويتوبوا لله ويرجعوا فخلص الامة من
شرهم وسوء كيدهم ومكرهم

وكما ان التياتر يشتغل باحوال الخلق وصفاتهم وسرائرهم
ونياتهم يشتغل ايضا بتمثيل سعد الطالع ونحسه وحسن النجى
وسوءه ونعيم العيش وبؤسه فيرشدنا للصبر والتجلى على ما يكون
من سوء النجى وقلة الحظ وللشكر على مقابله من حسن النجى
وسعادة الطالع وامت تعلم ان كل ما يقع فيه الانسان اما ان
يكون مسبباً عن تدبيره وعمل عمله او لا يكون مسبباً عن شيء
من ذلك . فالاول ينسب اليه ويذم او يحمى عليه والثاني هو
الذي ينسب في متعارف العامة للنجى والطالع والذهر وهذا
ليس له فيه شيء . فلا يتجه عليه فيه ذم ولا مدح ولا شكر ولا لوم
فيلزمنا الاستعداد لتلقى ضربات النجى ونكبات الذهر لنجد في
انفسنا ما يساعدنا على التجلى لها والصبر عليها من دون ضجر
ولا جزع والتياتر يصور لنا انواع الاهوال الدهرية والاعطار
الملازمة للجمعية البشرية فنعتاد عليها ونستعد لهجومها وتدرع لها
بدروع التجلى حتى نكون في حصن من الصبر والثبات يقينا من
سطواتها ولا نكون عرضة للفرع والروع والجزع بل تقوينا
التجربة والدربة وتحملنا على ان لا نكل ولا نمل ولا نضجر بل

نصبر حتى يخلصنا الله منها ويعوضنا الخير والراحة عنها ومضى
نظرنا الى الفقراء والمساكين وتعلمهم في الفقر والقلّة والجوع والذلة
نجذب قلوبنا اليهم وتملئ بالرفقة والشفقة عليهم وتأخذنا الرحمة
والرقة لآقل مشقة وشدة تحصل لواحد من خلق الله تعالى
فيتمكن من طباعنا الرفق بالناس ومواساة الفقراء ومساعدة الضعفاء
واعانة المضطر وإغاثة الملهوف وبذل البر والمعروف والرغبة في
العدل والانصاف وليس باقل ما ذكرناه تأثير التياتر في توسيع دائرة
المعلومات البشرية والاعمال الفكرية فان اصحاب العقول الفاتحة
والاذهان الرائعة يتسابقون في مضماره ويتبارزون في ميدانه
يتفخرون بنتائج افكارهم ويتظاهرون بمحاسن اثارهم من محاسن
الثرو ولطائف الشعر فتدب فيهم نار الغيرة والحمية فتذكوا الفرائح
وتنقود الاذهان وتسيل المخاطر وتنسع دائرة الاطلاع غاية
الاتساع فتحيط بجميع الاعمال البشرية والاحوال السرية والجهرية
فلا تذر عظيمة ولا حقيرة ولا تغادر صغيرة ولا كبيرة حتى تنزلها
منزلها وتحملها محلها وتفرغها في قلوبها وتكسوها من الثياب ما لاق
بها وكل ذلك من بواعث الاجتهاد في طلب العلم وكشف
المخائى واظهار الخفايا وازالة اللبس وابرار الشيء من عالم الخيال
الى عالم المحس حتى يدركه قليل الادراك وكثيره وناقص التأمل
وكامله فتنتج اذهان الناس وتنفع بصائرهم وتستتير ضمائرهم ويرون
في حيز المعيان والمشاهدة اموراً كانت في عالم الهمم والخيال

او كانت منكراً او مجهولة بالكلية وبعد ان كان سلطان الوهم متحكماً عليهم يتخلص من ريقته رقابهم وينكشف ستر الجهل عن بصائرهم فيرتفع حجاب الغفلة عن ابصارهم فينظرون في حوادث الايام الخالية والامم الماضية فتبدو لهم اسباب السعادة والشقاوة والتقدم والتأخر والعز والذل والحرب والعمارة ويقفون على اصل ذلك وكيفيته وحقيقته فباخذون ما ينفع ويتركون ما يضر ويسعون سعي من فازوا في ايامهم بالخير والسعادة ويقفون اثرهم فيحظون بالخيرات والمبرات ويفوزون بالنعم والمسررات

فكان التيار قناة ممتدة بين افراد الامة يسيل بها ماء العلم والمعرفة من الاعلى الى الادنى ومن العلماء والخواص الى الجهال والعوام فتزداد العلائق الانسانية وتقوى الروابط الودادية وتعم المنفعة وتعم الفائدة فاذا كان التيار بهذه المثابة فهو احسن المتدعات البشرية واجملها واعظمها فائدة واكملها

وقد اطلنا الكلام في هذا المعرض حتى كدنا نخرج فيه عن الغرض وفي المثل الحديث شجون والكلام يجرب بعضه بعضاً وكنت ظننت اننا تتوجه جميعاً الى التيار فاستحضرت لكما هديتين يتنفع بهما فيه احداها لسيدنا الاستاذ والثانية لبرهان الدين ثم انه اخرج من صندوقه علميتين اعطى احداها للشيخ علم الدين والثانية لبرهان الدين وقال انه يحتاج الى مساعدة النظر في تحقيق الاشياء البعيدة خصوصاً في التيارات لانها تكون غير تامة الانكشاف

اذ زاد بعدها عن حد النظر فعند ذلك تستعمل هذه الآلات
المعروفة بالنظارات تقرب البعيد وتساعد النظر وقد اتيت لكما
بهاتين النظارتين على حسب قوة بصر كل انسان فشكراه على
ذلك وفرح برهان الدين بالنظارة فرحاً شديداً وصار ينظر بها -
من شبابيك المحل تارة الى المدينة فيرى البيوت والمحارات والمارين
في الطرقات كأنهم تحت قدميه وتارة الى المينا والمراكب فيرى
الملاحين والوان ملابسهم وما ينقلونه من البضاعة كأنهم بين
يديه فيتعجب ويستغرب لانه كان لا يرى ذلك بغير تلك الآلة
ولو امعن النظر وكان اذا نظرها الى البحر يلوح له فيه صنادل
وزوارق للصيادين يرى فيها ما اصطادوه من السمك فاذا نظر
بدونها لا يرى من ذلك شيئاً فكانت عنده اجل شيء اهدي له
واحب شي اليه وصار يلقبها ويتامل في تركيبها وبجاول الوقوف
على كيفيتها فعلم الانكليزي منه ذلك فقال اراك متحيراً في شأنها
قال نعم اريد ان اعلم حقيقتها فقال بكتفى في هذه الليلة بمعرفة
فائدة استعمالها في التياتر فتنظر بها الى صورة الالعب فتحتها
وتنظر الى ملابس اللاعبين وان شئت نظرت بها الى المتفرجين
وفي غد ان شاء الله اصف لك كيفيتها وباقي فوائدها فقال
برهان الدين ومتى يكون الذهاب قال بعد ساعتين من غروب
الشمس حيث تكون الساعة ثمانية بالاعتبار الافرنكي . فقال
برهان الدين ان لكل قوم عادة في مجالسهم ورسماً في ملابسهم

فلا تواخذني ان سالتك عما يلزم لذلك وما يقتضيه الحال والمحل فقال
لا يخفى عليك ان الثيات محل جامع فيطلب فيه النظافة والتجمل
كما في سائر المجامع وعادة رجال الافرنج في الملبس الاتفاق على
هيئة واحدة واما نسائهم فلابسهن قد تختلف في اللون وان
كانت في الكيفية متحدة وسترى ذلك ثم انفصلا وصار برهان
الدين يتردد فيما يلبس ولحظ والده منه ذلك فقال له فيما تفكر
قال قد ذكر الانكليزي ان من عادة الافرنج التجمل في الملابس
فانا افتكر فيما البسه فقال له اختر ما في صندوقك احسن ملبس
لتظهر في هيئتك بزي اهل بلدك وملتك . فذلك بك البق
وفيه لك زيادة رونق وهو يميزك من بينهم ويدل عليك ويجذب
اعينهم وقلوبهم اليك وانما يلزمك ان تجعل الادب لحنك طرزا
والوقار لهيئتك حصنا وحرزا فتكسى حلة فوق حلة وتحترمك
الاصاغر والاجلة واحذر من الاعجاب بنفسك والتغالي في لبسك
فاحسن . الملابس واعظمها النظيف الطاهر الزكي الرائحة
وعندك اربع بدل جديدة كلها لائقة فاختر منها ما تحب فقام
ودخل حجرتة واخرج صرة فتحها فاذا فيها جبة نينه وقفطان
شاهي مقلم وزبون ابيض وقميص ولباس وعمامة بيضاء معلمة
بطراز اصفر وطربوش مغربي وحزام حرير طرابلس محبوبك فلبسها
واصلح عمامته وارخى لها عذبة حجازية ونظر في المرأة ثم توجه الى
والده فلما نظره في هذه الهيئة الحسنة سر به وشكر الله سبحانه وقال

له يا بني قد حسنت هيئتك وثيابك فحسن ايضاً شمالك
 ورايتك واذا سرت مع صاحبنا هذا فمازجه وسايه واستجلب حبه
 واجتنب غلبه فاننا في دار غربة ليس لنا من اهلها غيره فضلاً عن
 كونه قد ابدى لنا من الجمالة وحسن المعاملة ما يستوجب ان
 نجاريه فيه وانت تعلم انك تمضي معه الى محل لم يسبق لك
 بمثله عادة ولا باحواله معرفة فانظر لما يعمل وافعل كما يفعل
 تسلم من الوقوع فيما يوجب الانتقاد عليك وتوجه اللوم اليك
 واستعمل الوقار والسكينة واذا نظرت الى شيء فانظر اليه بنوّة
 وكال واذا سألت عن امر شيء فاسأل عنه بلطف وادب وخالق
 الناس بخلق حسن وابذل وسعك في ارضاء من صحبتك لكن بما
 لا يخطئ ريك وتجاوز عن الهفوة واقل العثرة واقبل المعذرة
 بحبك اصحابك ويكثر احبابك

فقد سئل بعضهم اي اخوانك احب اليك قال الذي يسد
 خلتي ويغفر زلتي ويقل عثرتي واعلم ان من لا يواخي الا من لا يعيب
 فيه قل صديقه ومن لم يرض من صديقه الا باثارة على نفسه
 دام سخطه ومن عاتب على كل ذنب ضاع عنه وكثر تبعه
 اذا كنت في كل الامور معاتباً

صديقك لم تلق الذي لا تعاتبه
 وان انت لم تشرب مراراً على الاذى
 ظهت اوى الناس تصفو مشاريه

وإذا رأيت من صاحبك امرأً تكرهه أو خلة لا تحبها فلا تقطع
 حبله ولا تصرم وده ولكن داو كلمته واستر عورته وأبقه وإبراء من
 عمله قال تعالى (فان عصوك فقل اني بريء مما تعملون) فلم يؤمر
 بقطعهم وإنما امر بالبراءة من علمهم وهكذا صار يعظه بامثال هذه الكلم
 النافعة وينشر عليه لأبي الحكم حتى حضر الخادم يدعوها الى
 الطعام فاعتذر الشيخ بانحراف المزاج وطلب لنفسه بعض المرق
 والزيتون والمرببات وامر برهان الدين ان يذهب الى الانكليزي
 ليتوجه معه الى السفرة ثم الى التياتر ففعل فلما رآه الانكليزي
 اعجبه شكله وهيئته ورآه قد ازداد لطفًا وظرفًا وبهجةً وحسنًا
 وكان برهان الدين جميل الصورة حسن المنظر متناسب الاعضاء
 حلوا الثمائل معتدل القداميل الخد ادعج العين قهجي اللون
 مقرون الحاجبين قد اظهر تورده خديه بياض العمامة وبرز حسن
 شمائله اعتدال القامة ففرح به الانكليزي وقال هلم بنا يا بني
 وأحلني اليوم محل والدك وسلني عن كل ما كنت تسأله عنه
 ولا تكتم عني امرأً تريده وكن معي كما تكون معه فان لم تفعل
 كان نقصًا في حبك وخللًا في ادبك فقال سعيًا وطاعة وشكرًا
 لله فقد اوليتنا مننًا لا نخصها فشكرنا لك غير منقطع وحبنا لك
 في قلوبنا منطبع كيف لا وقد اصبحتم في وجه الزمان خدًا
 وامسيتم في خده وردًا فكنتم حسنة من حسنات دهرنا لا ننهي
 بمرور الايام من صدرنا وقد طلعت لنا بكم طوالع السرور وكانت

آفة واهتزت غصون الفرح وكانت ذابلة لا سيما بودكم الصافي
الابريز وجوهر لفظكم النفيس العزيز فلا نقترح على الدهر غير
صحتكم وقطع حاضر الوقت في صحتكم ولا نعد ايامنا معكم الا مفتاح
السرور ومطالع السعود والمحبور . فشكره الانكليزي على ثنائه
واثنى على حسن وفائه ثم قام واخرج علبة لطيفة وقال له اني
قد اعددت لك هذه الهدية من وقت خروجنا من القاهرة فتقبلها
مني تزدني سروراً فقبلها منه برهان الدين شاكرًا مسرورًا وفتح
العلبة فاذا فيها ساعة ظريفة لها ظروف وعلاقة من
الذهب فوضع برهان الدين الساعة في جيبه واظهر علاقته
الذهبية على العادة فكملت خيلته وتمت زيبته ثم اخذه الانكليزي
من يده ودخل به محل الطعام واجلسه بازائه وقد سبق لبرهان
الدين تناول الطعام على السفرة العامة مرارًا فكان عارفًا بجميع
الرسوم المعتادة فاكل بالشوكة والسكينة مع غاية اللطافة والكمال
بسهولة وكان الى جانبه فتاة افرنكية بارعة الجمال قد كساها الحسن
والدلال ما تفتن به الرجال تشفي السقيم بكلامها الرخيم فارة
الطرف لينة العطف كحيلة العين حمراء الوجنتين

بيضاء فيها اذا استقبلتها دَعَجٌ * كأنها فضة قد شابها ذهبُ
فقال اليها برهان الدين واخذت بلبه واستولت على مجامع
قلبه فكان نظره اليها يتردد ولون خديها من الحياء يكاد يتوقد
وكذلك هي كانت تسارق برهان الدين النظر فها وان لم يحكما

لكن في الإشارة ما يغني عن الكلم فكان بين قلوبها مسامرات خفية
 نت بها بين المحاضرين وجنات الحدود ونطقت بها من قرائن
 الحال الشهود وكان برهان الدين قد بلغ حد التكلم بالانكليزي
 في الجملة فكان يتكلم مع الخواجا تارة بالعربية وتارة باللسان
 الانكليزي ولما لم تعلم الفتاة هاتين اللغتين كانت تتكلم مع الخواجا
 باللغة الفرنسية فكان غالب كلامها السؤال عن برهان الدين
 وبلده واهله وعمره وما اشبه ذلك وكان برهان الدين يرى ذلك
 ويلحظه ويتمنى معرفة لغتها ليتكلم معها لانها ملأت فواده وملكت
 قياده وفهم الانكليزي ذلك لكنه اخفاء لئلا ينجعلها وانما كان تارة
 يترجم له ما تقول وتارة يترجم لها ما يقول وكان برهان الدين
 متوجهاً بكلية لحسن صفاتها وشأئها ويتمنى ان لا يفارقها لكون
 انقضى وقت الطعام فقام فكانت عند نهوضها تعتدل
 وتبيل كانها المعنية بما قيل

وتيس بين مزعفر ومعفر * ومعبر وممسك ومصدل
 هيفاء ان قال الشباب لها نهضي * قالت روادفها اقعدى وتبلي
 فما زال يتبعها بصره حتى غابت عن عينه وفي قلبه من فراقها
 حسرة لكنه تحايل على اخفاء هذا الامر واقتدى بقول من وجد
 سبيلا الى الصبر

ولقد قنعت من اللقاء بساعة

اذ لم يصحبني للدوام بطرق

قد ينعش العطشان بلة ريقه

ويغص بالماء الكثير ويشرقُ

ثم انه بعد تناول القهوة قام وركب مع الانكليزي في العربية وتوجها الى التياتر فوجدا على التذاكر ازدحاما كبيرا وخلفا كثيرا من نساء ورجال فقال له الانكليزي لو كنت اعلم حصول هذا الازدحام لارسلت من ياخذ لنا التذاكر من قبل فالأوفق لنا الان ان نقف خلف الناس في اخر الصف فوقفا وصارا يتقدمان شيئا فشيئا خلف السابقين الى ان وصلا الى الطاقة التي تفرق منها التذاكر فاخذا تذكرتين من بعد دفع ثمنهما ثم سارا الى باب التياتر فاظهراهما للحاجب ودخلا فوصلا الى فسحة مزيّة في جميع جهاتها وبها جماعة يودع الناس عندهم ما يستغنون عنه داخل المحل من عصي وملابس زائدة كالتي تعرف بالساكو وكذلك فعل الانكليزي وبرهان الدين واخذا ورقة عليها علامة سنداً على ما سلماهم اياه كما هي العادة ثم صعدا من سلم الى اول دور فوجدا هناك نساء تدل على المحال بحسب الدرجات فاجلستهما احدهن في بعض مدرجات الدرجة الاولى وقد شغل برهان الدين منظر المحل بهجته ورويقه وحسن زخرفته فصارىسرح نظره الى جميع جهاته ويتامل شكله وزينته فوجده في غاية من الضارفة والاثقان ووجد في سطح قبة صوراً مختلفة ورسوماً متنوعة وقد علق في وسط القبة نجفة (ثرياً) عظيمة ملأت المحل انواراً وصيرت ليله نهراً وانضم

لورها كثير من الاضواء موزعة في دوائر المحل وطرقه وسائر
مرافقه ووجد المحل المخصص للجلوس المنفرجين منقسمًا الى عدة
ادوار يعلو بعضها بعضًا وبكل دور سلم يتوصل به الى ما هو اعلى
منه وبين كل دور والذي فوقه دائرة وباب الى الدرجة الاخرى
وفي الارض دكك منفصلة عن بعضها السهولة المرور بينها وخلف
الدكك محال صغيرة مفتوحة بقدر عرضها والدور الاول عبارة
عن مدرج بثلاث درج يفصل كل واحد منها طريقة صغيرة
عرضها ثلثا ذراع للمرور يعلوه حاجز يشبه الدرايزين وفي هذا
الدور محال صغيرة كما في الدور الارضي المتقدم وجميع سطح
الدور الارضي مكسو من الداخل وبه كراس للجلوس ورأى امام
الدكك الموجودة بالارض كرسي مرتفعة للجلوس رجال الموسيقى
وامامهم شموعًا مصفوفة على خط مستقيم ورأى بعد هذه الدكك
محلا مستديرًا وهو محل اللعب وفي كل من طرفيه محال صغيرة
بعضها فوق بعض ورأى اشجارًا بكثرة يرى من خلالها ما يشبه
الجبال والوهاد وفوق الجميع السماء والسحاب وكأن المطر يطر
ورأى في زاوية من هذا المحل مكانًا شبيهًا ببيت صغير وفيه امرأة
وبنتان فسمعتهن يتكلمن مع بعضهن فظن ان المحل متصل بالفضاء
فتعجب من ذلك فقال له الانكليزي لا تظن ان هذا الذي تراه
فضاء وان هذا الذي يعلوه سماء ولا ان هذه الاشجار حقيقية وانما
كل ذلك رسم وتصوير اعطى حقه من الاتقان والاجادة حتى

صار يخال انه حقيقي كما تراه والذي يراد تمثيله الليلة في المذهب هو واقعة تعشق شاب من ذوي البيوتات الشهيرة لبنت فقيرة ليس لها حسب ولا نسب وقد اخذ جمالها بلبه فتعلق بها وتعلقت به وقد اراد ذلك الشاب التوجه للحرب فاتى اليها ليودعها وتحالفا على ان يبقى معها على الحب وتبقى هي معه عليه الى ان يعود فيزوج بها واخذها بذلك على بعضها العمود والمواثيق ثم افترقا ولما انقضى زمن الحرب وعاد الشاب سالماً طلب اهله ان يزوجه فاني فاغفل عليه والده وساله عن اسباب تمنعه والحق عليه فاخبره بحلي امره وما وقع بينه وبين معشوقته من الايمان والمواثيق فغضب عليه ابوه لمخروجه عن طاعته وميله لواحدة من رعا الخلق غير مستقيمة الاحوال ونصحته فلم يقبل فبلغ امه عدم امثاله ثم توعداه على حرمانه من ميراثها ان لم يمتثل فلم يرتدع فعلا عليه حيلة وهي ان يتما البنت بعشقتها لغيره فلم يصدق ذلك واراد ان يعلم ذلك بنفسه فاحضر اهله البنت خفية وخوفوها بالتعذيب وهددوها واعلموها مقصدهم فصارت تضطرب وتبكي وتتحب واخبرتهم انها اتت منه بمولود فكيف تكون لها المعيشة بين اقربائها فتعهد لها ابوه بان يزوجه لغيره ويهرها من عنده ويهب لولدها مبلغاً من ماله لتربيته به واكثرها عليها اللوم والقدح والذم ونسبوا اليها سبب خروج ولدهم عن طاعتهم وترك ما يجب عليه لنفسه ولاهله وامها في السبب في سيء حظها وعدم استيامة حاله وانه بذلك

يعيش في اسواء الاحوال وانه لو كان حبك له صحيحاً لم ترضي له
لأننا لا محالة مصممون على حرمانه من ميراثنا واخراجه من دفتر
عائلتنا فانتهى بها الحال من اللوم والتعنيف الى ان قبلت منهم ما
قبل لها فاحضوا عليها الموائيق على ذلك حتى انها لما تقابلت مع
معشوقها على حسب عاداتها خاطبته مع الناسف وتكلف الاعراض
عنه بسبب ما خوفوها به ولم تملك نفسها من كثرة البكاء فتركته
وحضراؤه فآخذة ولامه على ذلك وبعد محاورات بينهما انتهى
الامر بان وعد اباه بالتسلي عنها وانه متقاد لامره راض بما يرضى
به فخطب له بنت امير معروف كان الشاب يعرفها حق
المعرفة ومع كثرة ما لها كان لا يميل اليها اصلاً لتجردها عن الجمال
لكنه وعد بالامثال فلما كان يوم الزفاف دخلت البنت القبيرة
الدار مخفية في ملبس غيرها من دون ان يشعر بها احد وكان
هناك جمع عظيم من الناس فدخلت في غارهم واستترت في زاوية من
بستان الدار واقامت تنتظر الفرصة في اجراء ما هي عازمة عليه
واذا بالشاب قد مرو بيده عروسه وخلفه اناس كثيرون فنهضت
من مكانها وقبضت بيده وقالت له ان كان ما فعله اهلك في من
حق الاغنياء فحق على الفقراء ان تصنع بنفسها ما تخلص به من
سوء معاملتهم واخرجت مدية ضربت بها نفسها فوقعت في الارض
ميتة من وقتها فصاح الشاب وطلب الحكم وهاج الحاضرون
واجتمع كل من بالمنزل من الاهل وغيرهم ولكن مضى الامر و

ولا حيلة في رد القضاء المبرم ثم انهم وجدوا يحملها طفلاً صغيراً ملفوفاً في بعض خرق ومعه ورقة مضمونها انها على ما هي عليه من الحب والشوق اليه لا تغيرها حوادث الزمن ولا يشبهها ترادف المحن لكن اهلها لسدة باسهم وغناهم وانتسابهم لاصول عريقة خوفوها بانواع العذاب ونسبوا اليها ما يتسبب عرضها بين الاهل والاصحاب وانها قدمته على نفسها وتركت له الدنيا بنعيمها حتى لا تكون سبباً لتغيب معيسته وقلة صفاء فكرته

هذا ملخص اللعبة فالبيت الصغير هو بيت السابعة واهلها والمرأة والدتها وهذه البنت التي تراها اختها وسترى الشاب العاشق وتنظر جميع هذه التقلبات مفصلة وفي اتناء الكلام روعي الغلام العاشق أتياً من وسط الاشجار يتكلم مع البنت واهلها وبعد قليل انفصلت الام وبنتها الصغيرة وبقي هو مع معشوقته يتكلمان ويتناشدان الاشعار على عادة العشاق ثم اخرجت ستارة حجبته جهة الملعب عن اعين المتفرجين فخرج اكثر الناس من محلاتهم قال برهان الدين وخرج الانكليزي وانا معه فدخلنا ديواناً كبيراً فوجدنا الناس مجتمعين فيه من نساء ورجال منهم من يتعاطى الدخان ومنهم من يشرب القهوة وغير ذلك وكانت النساء مختلطة بالرجال البعض في مسامرة والبعض في تروض بالمتي فاحاط بنا اناس كثيرون فما من احداً الا سالني وعن بلدي وسبب محبي ونحو ذلك ومن الغريب ان كثيراً من

المحاضرين كان يسأل هذه الاسئلة بعد ان رأى غيره يسأل عنها وسمع جوابها فلا يكتفي بذلك حتى يكون بنفسه سائلاً وسمع الجواب ثانياً

واما النساء فكانت الواحدة تكرر السؤال المرة بعد المرة فعبئت غاية العجب من ميل اهل هذه الملة اليّ وسؤالهم عني ثم سمعت ضرب ناقوس فقام الجميع فعلت انه علامة على الرجوع فعدنا الى موضعنا وبعد برهة رفعت الستارة فرأيت الصورة تغيرت ولم أر اشجاراً ولا انهاراً ولا غيرها مما كان سابقاً بل رأيت منزلاً صغيراً من داخله حجرة فيها طرابيزة وكراسٍ ورأيت الشاب مع البنت يتكلمان ويكيان ويتناشدان الاشعار في الوجد والاشتياق ويتشاكيان آلام الفراق والزفراء متصاعدة والعبرات منحدرة والانفاس مترددة والعيون شاخصة وعلام الوجد والوله بادية فعلت انها حالة وداع ثم ارخيت الستارة فخرج الناس كالاول وهكذا الى ان انتهت اللعبة وكان ذلك في اربع ساعات ونصف قريباً من نصف الليل وفي اثناء الفصول كانت تتجه نخوي من جميع جهات التياتر ابصار المحاضرين من النساء والرجال والكثير كان يستعمل النظارة وتكرر ذلك منهم مراراً وكنت انا كذلك انظر اليهم بنظاري فارى انهم بالقرب مني وارى المرأة مكشوفة الكتفين والصدر والراس والذراعين وارى نصف نهديها من الاعلى فلم اتمالك ان نظرت اليهن ونزهت

طرفي في حسنين وتذكرت قول من قال
 يا دمية شرعها ضرب النواقيس
 ما بين قرب مزارى والنوى قيسي
 هذي ثناياك قد لاحت بوارقها
 ام اشرفت في الدجى انوار برجيس
 ام ثغر كأس الطلا يفتر عن حبيب
 امر ذا ضياء نبي الله جرجيس
 وعذرت من هام بحب الغواني واباح التمتع بروية الوجوه
 الحسان وتمثلت بقول من قال
 ايها العاشق المعذب صبرا
 فخطايا اخي الهوى مغفوره
 زفرة في الهوى احط لذنب
 من غزاة وحجة مبروره
 وما رايت واحدة منهن الا ويدها مروحة تروح بها على
 نفسها وتوجه نظارتها الى غيرها وتنامل في ملابسها وكانت
 الرجال ايضا تفعل ذلك وبينما نحن واذا بالفتاة التي كانت
 معنا على السفرة قد برزت
 ولها سرائر في الضمير طويتها * نسي الضمير بانها في هليه
 فتشاحلت عنها بما في التياتر من الغواني والمغنيات واختلاف
 الصور لكن لما وقع بصري عليها ووجدتها موجهة نظارتها نحوني

لم اتمالك ان وجهت نظارني نحوها فكنت كما قبل
 لم يكن المجنون في حالة * الاً وقد كنت كما كانا
 لكننه باح بسر الهوى * وانتي قد ذبت كتماننا
 فاشتغل فكري بها وقصرت نظري عليها وتوجهت بكليتي
 اليها وقام بي من الشوق ما لا اقدر على دفعه ولا حيلة لي في رفعه
 فهاجت ضمائري واضطربت سرائري واشتغلت بها عن رؤيئة حوادث
 التيار وغيرها حيث وجدتها تفوق الجميع حسناً ودلالاً وظرفاً
 ولطفاً وكمالاً وكان يظهر لي انها تهتف باسمي وتشير بطرفها الى
 رسمي وكثيراً ما رايتها تشير اليّ بالبنان اشارة متم بالحب ولهان
 فكان بصري مراقباً لجميع حركاتها وقلبي مشغولاً بمجمل صفاتها
 وغرقت في بحار الافكار لكني كنت عن المحاضرين تلك الاسرار
 وخشيت هتك الاستار وهمت من حبها وجداً ولا هيام عاشق ليلي
 وسعدى فما راغني الاً سرعة قيامها والفتاتها اليّ بحسن قوامها
 وكانها تقول

بنا فوق ما تشكون نصيراً لعلنا * نرى فرجا يشفي السقام قريباً
 فغشيني من الهم ما غشي فرعون من اليمّ فما نظرت اليّ
 نظرة الاً اورثت قلبي الف حسرة فذهبت وذهب قلبي معها
 وكدت ما لي اقوم كي اودعها وصرت اردد في نفسي عندما
 غاب شخصها الجميل عني

بارائحاً بعد ما سباني * حسبك رب السما تعالي

واجتهدت في صرف صورتها عن وهي فما استطعت وامرني
 آمر الورع والتقوى بسلوانها فما اطعت
 وقد كنت من قبل الهوى اتقي الهوى
 زماناً ولكن الهوى غلب التقوى

فبقي خيالها نصب ناظري وجمالها قيد خاطري حتى انصرفت
 مع الانكليزي بعد ما تم اللعب واتقضى وبقلي من فراقها جمر
 الغضا واما ما كان من حوادث اللعب وقتل البنت لنفسها
 فجدير بان يذهل نفس من رآها عن حسها وذلك لان اللعب
 كان مستوفياً شروط التقليد وكأن الواقعة حقيقة وان ما بها من
 البكاء والاقوال والحوادث والافعال صادر من نفس اصحاب
 الواقعة فكان قلبي يتنقل على حسب تنقلات الحوادث حتى بكيت
 وسقطت من عيني العبرات وما افتمت من ذلك الا بانقضاء اللعب
 وكانت النظارة التي اهداها الي الخواجا هي المعينة على انكشاف
 ذلك كله فمع ان محل اللعب كان بعيداً عنا فكنت ارى حركة
 شفاهم وكاني في وسط المكان فعميت لهذه الآلة وانتظرت الفرصة
 في سوال الانكليزي عنها وفي اثناء الطريق سألتني عن حال
 التياتر فذكرت له جميع ما خطري من الخواطر وما تأثرت به من
 الحوادث فضحك وقال أيها الطف وادق التياتر ام اولاد رايه
 فقلت له شتان ما بين ذا وذاك واين الثرى من الثريا والقدم من
 الحميا

قال المحامي لهذه الحكاية فلما وصلا الى محلهما دخل الانكليزي
 مخدعه وتوجه برهان الدين الى والده فوجده قد نام فنام هو ايضا
 وعند الصباح قام على حسب عادته وتوضأ وادى ما عليه من
 فريضة ثم ذهب الى والده فقبل يده وقعد بجانبه فسأله عما رأى في
 ليلته فذكر له الواقعة واطنب وبين له ما كرهه من ذلك وما
 احب ووصف ما عاينه من الزخرفة والزينة وآلات الطرب
 والتصوير والتمثيل واللهو واللعب وقال لقد رايت الليلة ما فيه
 العجب العجيب ولكن ليتك يا والدي ما اذنت لي في الذهاب قال
 ولم ذلك فذكر له ما رأى من حال النساء واختلاطن بالرجال
 وكشفن لوجوههن وصدورهن ونهوهن اظهاراً للجمال وانه رأى
 ذلك مبائناً للحياء والكمال ومضراً بحال النساء والرجال وداعياً
 الى تعلق البعض ببعض لسهولة الاختلاط المؤدي الى الميل
 واستغال البال وترك الاسان ما يجب عليه من الاعمال اذ لا
 يخفى ان اول الحب نظرة كما ان اول الحريق الشرر فاسواء هذه
 العادة في هذه البلاد وما اضرها على العباد

فقال الشيخ ياني لكل بلاد عادة يستحسنها اهلها ويستنبجون
 ما يحالفها وان كان غيرهم على عكس ذلك ولن تستطيع تغيير
 عادة جارية في مدينة كبيرة مثل هذه بازرائك عليها وانتفاصك لها
 فلا يحصل من الاعتراض عليهم غير التعرض لمعاداتهم على انا لا
 فائدة لنا في تغيير عاداتهم واستمرارهم عليها اذ اسنا نصدد معاشرتهم

وسكنى حاضرتهم وإنما نقيم بين أظهرهم مدة يسيرة ونرحل عنهم فما علينا من أخلاقهم وعاداتهم مليحة كانت أو قبيحة وإنما علينا إذا راينا في أوضاعهم وطباعهم وأحكامهم ومبانيهم وغير ذلك شيئاً فيه لبلادنا مزية ومنفعة أحصيناه وحفظناه حتى نجتهد في نقله إلى جهتنا بالتنويه به بين أهل ملتنا وإظهار محاسنه وبيان منافعه وترغيب الناس فيه بشرط أن يكون هذا مع التحقق من نفعه بعد إمعان النظر وجودة التأمل ومراجعة أهل النظر والبصيرة فيه لا يبادىء الراي والنظرة الحمقاء فقد راينا كثيراً من الأغرار الحمقاء حين يدخلون مثل هذه المدينة الحافلة ويرون ما فيها من الزخرفة والزينة والاهبة وعلامم العز والثروة واليسار مما لا يجدون نظيره في بلادهم تحملهم روعة ما يهولهم من تلك المناظر الرائعة والظواهر المعجبة على أن يستحسنوا كل ما راوه مما يخالف ما عندهم ويظنوا أنه سبب الغنى والثروة لأهل تلك المدينة مع أنه ربما كان في نفس الأمر قبيحاً مضراً وإنما غطى على ضرره أنه مصحوب بأمور نافعة غيره وربما ظهرت مضراته بعد حين فعلى العاقل أن لا يتسرع إلى الحكم بل يثبت ويتأمل حتى تظهر له حقيقة الشيء على ما هو عليه ويجتهد في نقل النافع لأهل وطنه وملته والكف عن غيره وإما ما ذكرت من خوف الفتنة من تكشف النساء كما رايت بالأمس فكان عليك يا بني أن تغض البصر عما لا تحل لك رويته وما يحل عليك نبعته وقد قال الله جلّت كلمته

(قل للمؤمنين يغضوا من ابصارهم)

وبيناها في هذا الكلام دخل الانكليزي عليهما واخذ يسمع
نصائح الشيخ لولده فاتم الشيخ كلامه وقال . واعلم يا ولدي ان
لكل امة من الناس عادات افوها واستمروا عليها لا يتحولون عنها
بل لكل واحد من الامة عادات واخلاقاً تختص به ويميز بها
وقد قلت لك فيما سلف ان الخلق وان كانوا من نفس واحدة
الا ان اخلاقهم وطباعهم متغايرة وعاداتهم واوضاعهم متنافرة فمنهم
من اعتاد حجب النساء وحججهن في المنازل ومنهم من اعتاد
ابرازهن واخلاطهن بالرجال وكذلك منهم البخل والسخي والشجاع
والجبان والفبي والزكي والصالح والطالح الى غير ذلك كما ان
منهم الاسود والاسمر والابيض والاشقر ومنهم من لغته العربية
وغيرها وليس من نوع الانسان الا وفيه خلق من اخلاق غيره
من الحيوان فاذا رأينا الرجل جاهلا في خلقاته غليظا في طباعه
قويا في بدنه لا تومن ضغائنه الحقتاه بعالم النور لان العرب
ضربت بالنمر المثل فقالت اجهل من نمر واذا رأينا الرجل هجوماً
على اعراض الناس الحقتاه بعالم الكلاب فان داب الكلب ان يحفوا
من لا يحفوه ويؤذي من لا يؤذيه واذا رأينا انسانا جيل على الخلاف
ان قلت نعم قال لا وان قلت لا قال نعم الحقتاه بعالم الحمير
فان دأب الحمير ان ادنيه بعد وان ابعدته قرب فلا تتفع به
ولا يملك مفارقتها وان رأينا انسانا يهجم على الاموال والارواح

الحقنه بعالم الاسود فخذ حذرك منه كما تاخذ حذرك من الاسد
واذا رأينا انساناً خبيثاً كثير الروغان المحتماء بعالم الثعالب لان
العرب ضربت به المثل فقالت اروع من تعلب واذا رأينا من
يمشي بين الناس بالنميمة ويفرق بين الاحبة الحقنه بعالم الظربان
وهي دويبة قدر الهرة متنتة نقول العرب عند تفرق الجماعة
مشى بينهم الظربان اي تفرقوا واذا رأينا انساناً لا يصغي الى
الحكمة والعلم وينفر عن مجالس العلماء ويألف اخبار اهل الدنيا
الحقنه بعالم الخنافس فانه يعجبها اكل القاذورات وملامسة
النجاسات وتنفّر من ريح المسك والورد واذا استمت رأبحة الطيب
ماتت لوقيتها واذا رأينا الرجل يصع بنفسه ما تصنع المرء لبعلمها
فيبالغ في التزيّن وينظر في عطفه الحقنه بعالم الطاووس لان
العرب ضربت به المثل فقالت ازهى من طاووس واذا رأينا انساناً
حقوداً لا ينسى الهفوات ويجازي بعد المدة الطويلة على السقطات
الحقنه بعالم الجمال فتجنبنا قربه لان العرب نقول احقد من
جل فخذ من الناس حذرك وجد فيما تحسن به امرك
النصح ارخص ما باع الرجال فلا

تردد على ناصع نصحاء ولا تلم.

ولقد ذكرت بما انساق اليه الكلام من طبائع الحيوان نادرة
لطيفة عن الامام علي رضي الله عنه وكرم وجهه حكى انه دخل
عليه اعرابي فقال له اني رأيت كلباً وطنياً ساة فولدت فما تقول في

ولدها . فقال كرم الله وجهه اعنبره في الاكل فان اكل لحمًا فكلب وان اكل علفًا فشاة . فقال الاعرابي رايته يفعل هذا تارةً وهذا اخرى . فقال اعنبره في الشرب فان كرع فهو شاة وان ولغ فهو كلب . فقال الاعرابي وجدته يلغ مرة ويكرع اخرى فقال اعنبره في المشي مع الماشية فان تاخر عنها فكلب وان تقدم او توسط فهو شاة . فقال وجدته مرة هكذا ومرة هكذا فقال اعنبره في الجلوس فان برك فشاة وان اقعى فكلب فقال يفعل هذا مرة وهذا اخرى . قال اذبحه فان وجدت له كرشا فهو شاة وان وجدت له امعاء فكلب وما ذاك الا من سعة علم الامام كرم الله وجهه ومعرفته بالطبائع

قال الانكليزي اظن ان الذي جر هذا الكلام بينكما حكاية ما رآه برهان من امر التياتر فاني اظنه حدثك بما كان فقال الشيخ نعم شرح لي صورة الحال وكيف قتلت البنت وحكى لي انه تأثر من معاينته ذلك حتى كأن الامر حقيقي لا مجرد تصوير وتمثيل

فقال الانكليزي ما كنت اظن هذا الامر يؤثر في برهان حتى رأيت في اثناء الواقعة بيكي فحملت ذلك على رقة قلبه فقال الشيخ هذا لا يستغرب من مثله فانه صغير السن قليل الممارسة للامور فهو سريع التأثر بعيد عن القسوة قال الانكليزي فكيف به لو رأى تصوير الحوادث الجسيمة

والوقائع الحربية العظيمة حيث يرى القتلى صفوفاً والمدرجين
في دماهم الوقاً والمقطعين أرباً أرباً والمدبرين عن القتال رهباً
وهرباً

فقال برهان اعوذ بالله من ذلك لست ممن يميل لرؤية
هذه الامور وإنما اميل لما يجلب الى النفس السرور ومالي ولما يورث
الحزن ويبعث على الشجن

فقال الانكليزي الشيء لا يعرف الاً بضده ولا تخلو روية هذه
الامور من فائدة

قال برهان ولكن هذا امر لم تألفه طباعاً ولم تسبق لنا به
عادة وإذا رايت شيئاً من ذلك تكلمت فيه بما اراه والذي ارجوه
منك الان ان تعرفني كيفية هذه النظارة ولاي شيء يرى البعيد
بها قريباً والصغير كبيراً فلا بد لذلك من حكمة



المسامرة الثامنة والعشرون

النظارات

قال الانكليزي العلم بحقيقة ذلك متوقف على قواعد علمية
مذكورة في علم الطبيعة في باب الضوء وستقف عليه ان شاء الله
عند تلقي هذا العلم بالمدارس وبعض هذه الخواص قائم بشكل
الزجاجة الموضوعة في النظارة وبعضها ناشيء من تعددها وبعدها
عن بعضها فلا ندخل في ذلك الان ويكفينا الاستدلال بها
على استكشاف الانسان لامور اتسعت بها دائرة معلوماته وقد
زعم بعض المؤرخين من الاورباويين انها لم تكن موجودة الى
القرن الثالث عشر من الميلاد وانما اخترعت بعده على يد رجل
تلياني وليس كذلك لانه تحقق لنا الان ان استعمالها سابق على
هذا التاريخ وان هذا التلياني انما احدث فيها بعض تحسينات
فقط ومع ذلك كله فاطن ان استعمالها بالديار الاروباوية لم
يكن الا بعد استعمالها بالمشرق فان ابتداء علم الملاحة ورصد
الكواكب اللذين هما اشد احتياجاً اليها من غيرها كان بتلك
الديار وقد نسب المؤرخون اختراعها الى المصادفة حيث قالوا

اتفق ان بعض اطفال الصنّاع من اهالي هولاندة في بعض العالهم
 قربوا عدستين من الزجاج الى بعضها وكاتبا من جنسين مختلفين
 ثم نظروا من خلفها فوجدوا الاشياء الضغيرة البعيدة كانها قريبة
 كبيرة فاخبروا معلمهم بذلك فامتحنه فوجده حقًا فاخذ في عمل
 نظارات بعدسات من اجناس مختلفة بعد ان كان يجعلها من
 جنس واحد فكانت تسمى هذه النظارات بالهولاندية نسبة الى
 ذلك المعلم وكانت ترى بها الصور غير تامة الوضوح بسبب ما
 كان يرى فيها من التلون بالوان العدسات فاشتغل اهل الفن
 بازالة هذا الامر وذلك ان احد الفرنسيين ادخل مادة جديدة
 في المواد التي تتركب منها العدسات فامتنع ظهور الالوان
 المذكورة وكان ذلك في القرن السابع عشر من الميلاذ
 وهو القرن الحادي عشر من الهجرة فمن ذلك الوقت صارت
 الصور ترى بلونها الاصلي وبحسب تقدم الناس في المعلومات
 الفعكرية واتساع دائرة العلم والصنائع العملية تحسّن امرها
 شيئًا فشيئًا حتى تنوعت الى انواع كثيرة وصلت في الاتقان الى
 غاية كبيرة

وجميع النظارات المستعملة الان بين الناس بالنسبة لتعدد
 العدسات الزجاجية وعدمه منحصرة في قسمين بسيطة ومركبة
 فالبسيطة هي التي تشتمل على عدسة واحدة كالتي
 تمسك باليد او توضع على الانف وهي مختلفة الشكل والقيمة

بالنسبة لمحسن المعدن والمادة الداخلة في تركيبها ولاختلاف شكل اعين الناس اختلف تركيبها فان من الناس من لا يرى الاشياء الا اذا كانت على بعد منه ومنهم من لا يراها الا اذا كانت قريبة جدا فما يوافق الاولين لا يوافق الآخرين وبالعكس والغالب ان من يرى الاشياء على بعد يكون شكل عينه مقعرا فيناسبه نظارات محدبة وان من يراها من قرب يكون شكل عينه محدبا فيناسبه نظارات مقعرة ولتفاوت اعين الناس في التحديق والتقعر كانت العدسات ايضا متفاوتة فيما وبالتجارب وجدوا التفاوت لا يزيد عن اثنتين وعشرين درجة واكبرها قوة الدرجة الاولى فلا يستعملها الا من كان بصره ضعيفا جدا كالكهرم ومن اضر ببصره الموض فسبحان من علم الانسان من مكنون علمه ما اودع في مخلوقاته من الحكم الربانية حتى استعاض ما ضاع من قوة ابصاره التي هي اصل للذئذ حواسه، وغذاء افكاره

والمركبة هي التي تشتمل على عدستين فاكثرت مثبتة في قضيب اسطوانى فتوضع احدى العدسات في نهايته مما يلي الراى وتسمى الباصرة او العينية والثانية في النهاية الاخرى وتسمى الشيئية او الشخصية لانها في جهة الشيء المرئى وشخصه وقد يكون القضيب مركبا من قضيبين او قضبان يدخل بعضها في بعض لسهولة الاستعمال وتقريب الاشياء وزيادة ظهورها للعين فتكون حجب

نافعة لجميع الناس لسهولة تنقيص الطول وزيادته على حسب قوة الرائي وفي هذا النوع اذا كانت العدسات من جنس واحد اي محدبة فقط او مقعرة فقط تكون الصورة المرئية مقلوبة اي ان المرئي لو كان رجلاً مثلاً لنظرت صورته منعكسة رأسه لجهة اسفل ورجلاه الى اعلى فان كانت العدسات مختلفة بان كان بعضها محدباً والآخر مقعراً رؤيت الصورة كما هي واما النظارات التي يستعملها الجريون فيوجد بها عدسات اخرى بين الباصرة والشيئية (اي الشخصية) موضوعة بقوانين حسابية وبسبب ما علم من فوائد هذه الالات لم يزل اهل الفن مشغولين بها حتى توصلوا الى عمل نظارات تكبر الصورة عن اصلها الف مرة والفين وثلاثة الاف واكثر والى عمل نظارات لنظر الاشياء الدقيقة جداً كاعضاء بعض الحشرات كالنمل والذباب والبراغيث ونحو ذلك مما لا يمكن رؤيته بدونها وهذه ايضا اما بسيطة كالتي عند الساعاتية والجوهرية واما مركبة في قضبان تتداخل في بعضها وتكون عادة موضوعة راسية مثبتة في قائم من معدن لتسهيل الاعمال اللازمة ويكون التعظيم المحاصل منها حينئذ محصل ضرب تعظيم كل من هذه العدسات في الاخر فاذا كانت العدسة الشخصية او الشيئية تعظم قطر الجسم خمس مرات والعينية عشر مرات كان التعظيم الاخير خمسين قطراً اي الفين وخمسمائة سطح حاصلة من ضرب الخمسين قطراً في نفسها وقد

يكون التعظيم الاخير الف قطراً اي مليون سطح كما اذا كان
 التعظيم من الشخصية مائة ومن العينية عشرة او من الشخصية
 اربعين ومن العينية خمسة وعشرين مثلاً وسأطلعك على هذا
 كله واريك بعض غرائب الصور التي تراها بها اذا دخلنا المدينة
 فان بها دكاكين مخصوصة ببيع النظارات لانها على البحر وجميع
 القباطين لا بد لهم منها فلا تسير سفينة الا وبها عدة منها اما بيد
 القباطين او بيد البحرية



المسامرة التاسعة والعشرون

العادات

ثم امر الانكليزي باحضار الفطور فاكلوا على العادة ثم قاموا
 يفرجون على المدينة ولاجل وقوف الشيخ على كيفية المدينة واهلها
 استحسنوا ان يبدأوا بالتفرج على اصلها القديم ثم على الجديد وفي
 اليوم الاخير يذهبون الى خارجها ليطلع الشيخ على اطرافها
 وضواحيها ويقارن احوال الزمن الماضي باحوال الزمن الحالي

ويرى كيف تتغير احوال البلدان بتغير اهلها واستحسن الشيخ
الذهاب على القديم وان كان اكبر الثلاثة سنًا ليمكن مزيد تمكن
من الاطلاع على ما بها من الاماكن والبقاع والاحوال والطباع
فاخذ بعضهم بيد بعض وابتدأوا من المينا (اي المرسى) فداروا
حولها وراوا بها مخازن البضاعة الواردة والصادرة ومخلات
الكهرك ونحو ذلك فتعجب الشيخ من كثرة السفن وتنوع اشكالها
واجناس ملاحيها وملابسهم والوانها ومن كثرة البضاعة الموجودة
في المينا المذكورة منها الوارد للمدينة والصادر الى جهات مختلفة
ووجد المرور بالطرق عسرًا جدًا لكثرة العربات المعروفة في
مصر بعربات الكر ومقابلتها لعربات الركوب والمحاملين والممارين
فكان سيرهم متقطعًا غير مستمر وظهر للشيخ وولده عظم تمول الامة
الفرنساوية واتساع تروتها ومعرفتها بطريق الاسباب المعاشية
ولكون النفس مجبولة على حب الوطن تذكر الشيخ مصر واهلها
وتغر الاسكندرية وحالها فوجد بينها وبين مرسيليا فرقًا كبيرًا وان
ذلك ليس الا من تفاوت احوال التقدم ونظر الى المارين بالطرق
وقارن احوالهم بما يعلم من احوال اهل بلاده فوجد ان لا نسبة
بينهما الا في الصورة فقط لانه رأى الكل يسعى مع الاجتهاد
والغيرة والنشاط في طلب الرزق وعليم اثار اليسار والثروة
والنعمة وما زاده تعجبًا ما رآه من اجتماع خلق كثير لا يسمع لهم
صوتًا ولغطًا كما هي عادة المصريين واهل المشرق بل كل مشغول

بامر نفسه سائر في طريقه محتفز من اضرار غيره او تغيير خاطره
 ومع تنوع الاشغال والاعمال وكثرة العمال فلا ضرب ولا سب
 فكانهم اجتمعوا للصلاة او لسماع منشور من احد الولاة فلا يسمع
 بينهم الا الفاظ لا بد منها بين المتعاملين من غير صياح ولا صراخ
 حتى قال الشيخ ليت هذا الحال بازقة القاهرة والاسكندرية ونحوها
 من مدن الممالك المشرقية فانا نرى الناس بها سيما في الموالد
 والمواسم والمحافل لا تكاد تمر بهم ساعة من الساعات الا ويحصل
 فيها تشويش خاطر المارين وازعاجهم من كثرة الصياح والصراخ
 والسب وسماع الالفاظ الفظيعة ثم تأمل في اصل ذلك وسببه
 فوجده ناشئا من قوتين الضبط الابتدائية وطرق التربية الاولى
 فتمعود كل على ما نشأ عليه ثم انهم بعد الاطلاع على المينا وما بها
 من المباني والغرائب دخلوا المدينة فبدئوا بالجزء القديم منها
 فوجدوا بناء وحاراته وطرقه مثل ما يوجد في المدن المشرقية
 سواء بسواء الا ان طرقه مبلطة وغالب حاراته يخرج منها روائح
 كريهة وما بها من الدكاكين والخانات ليس كالذي رآوه في
 الشوارع الجديدة الموصلة الى اللوكاندة حيث هم نازلون ووجدوا
 المارة قليلة بالنسبة لما رآوه في تلك الشوارع وما زالوا سائرين
 من محلة الى محلة ومن جهة الى غيرها والشيخ وابنه يتاملان فيما
 يمران به ويتعجبان نظرها ويقابلان حاله بحال ما في مصر
 وجهاتها من نوعه وينظران في الفرق بين الحالين والترجيح بين

الأميرين

وكان غالب نظر الشيخ منعطفًا الى عادات الناس وإدابهم في معاملاتهم وسائر حالاتهم وما يراه بهم من علائم الغنى والفقير والراحة والتعب وكثرة الكسب وقلته وسهولة أمر المعاش وصعوبته ونحو ذلك من الاحوال واسبابها وكان نظر برهان الدين كعادة غيره من الشبان قاصراً على المناظر والظواهر فنظر في مباني المدينة وتأمل فيها فراها مرتفعة ورأى غالب البيوت من اربع طبقات الى سبع بعضها فوق بعض فتعجب من وضع المباني وكثرة تعدد طبقات المنازل مع ان اعظم بيوت مصر في العلو طبقتان خلاف الطبقة الارضية بل الكثير منها طبقة واحدة فوق الارضية

وقال له الانكليزي اراك تردد النظر الى هذه المباني والتأمل في ارتفاعها واراك كالمتعجب من كثرة طبقاتها . فقال نعم . قال الانكليزي لا غرابة في ذلك فهذا كله ناشيء من امور طبيعية واسباب جوية لان هذه البلاد باردة فلا يناسبها الغرف الواسعة ولا المرتفعة وانما يناسبها القليلة السعة والارتفاع فاذا لزم عندكم ارتفاع الطبقة ستة امتار مثلاً كفى عندنا نصفها لان غالب اوقات السنة عندنا باردة فتحتاج اصحاب المساكن لاستعمال الة مخصوصة لتولد الحرارة ودفع البرودة كأفران من حديد توضع في المحلات وقت الشتاء وحمامات تعمل داخل البناء كما رأيت في محلات اللوكاندة فكما كبر المحل اخراج لزيادة الوقود في الفرن وفي ذلك

زيادة في المصرف ولذا اضطر الناس عندنا الى تقليل ارتفاع
المحجرات فكثرت الطبقات في الدور مع كون الدار لا يزيد
ارتفاعها عن ارتفاع دوركم الا بشيء يسير بل ربما كان ارتفاعها
سواء الا انها عندنا منقسمة الى عدة طبقات تسكنها عائلات
متعددة اذ كانت العادة عندنا ان لا ينفرد صاحب الدار بسكنائها
بل، يسكن منها فيما يكفي عائلته ويؤجر باقيها بخلاف ما عندكم
من تعود كثير من الناس ان ينفرد صاحب الدار بسكنائها مستقبلاً
ان يساكنه غيره ولو كان من اقاربه فلما ذكر من الاسباب
اختلفت اوضاع المنازل عندنا وعندكم وكما اقتضى اختلاف احوال
الاقطار اختلاف اوضاع المساكن كذلك اقتضى اختلاف هيئات
الملابس وتنوع المأكول والمشرب وعلى ذلك جرت عادتهم ووقع
عليه استحسنهم حيث كان مرجعه الى اقتضاء الطباع ألا ترى
العرب في البداية يكتفي الواحد منهم بقميص واحد ورداء ابيض
من الصوف وهو المعروف بالحرام وما ذاك الا لان حرارة قطرم
تمنعهم من الزيادة على ذلك فالثوب لستر العورة والحرام لزينة
النهار وغطاء الليل ولم يكن اختيار اللون الابيض خالياً عن
الحكمة بل لانه الموافق للاقطار الحارة فيرد الحرارة عن البدن
بخلاف باقي الالوان فانها تجذب حرارة الجوالها ومن اجل
ذلك اعتاد الناس لبس الابيض في الصيف وغيره في الشتاء
وكذلك يستحب في البلاد الحارة الثياب الواسعة كملايس اهل

الارياض وكالحجة والقفطان عند اهل المدن واما البلاد الباردة فيطلب فيها ضيق الملابس لتكون مماسة للجسد لاصقة به لان الجسد له درجة في الحرارة لها مع حرارة الجو نسبة تتعادل معها بحسب الفصول فهما كان الثوب محكما على الجسد حفظ حرارته ولو نظرت الى تفصيل المنازل عندنا وعندكم وتاملت صورتها الخارجية والداخلية لرايت ان القطر له دخل عظيم في اختلافها مثلاً سطوح المنازل عندكم مستوية وفي بلادنا لا يناسب هذا الوضع لان المطر عندنا كثير وفي بعض الاحيان يتجمد فيكون ثلجاً فلو كان السطح مستوياً لتسارع اليه التخلل خصوصاً لطول مدة الامطار وكثرتها فيسري التخلل الى المنازل وتمتنع راحة سكانها وتسلم امتعتهم ويؤدي ذلك الى ضرر عظيم لتراكم الثلج فوق الاسطحه واذا ابتدا الجو في الحرارة انماع وسال وبسيلانه يفسد بناء المنازل ولذلك تجد جميع سقف المنازل عندنا عبارة عن سطحين يرتفع طرفاها عند التقاها على الهيئة المعبر عنها في اصطلاح المصريين بالجمالون فهذا الشكل من ضروريات قطرنا لما علمت بخلاف ما عندكم فان الامطار في الاقاليم الشمالية المعروفة بالجهة البحرية في مصر قليلة جداً وفي الجهة الجنوبية منها المعروفة بالقبليّة نادرة ولا ضرورة للاحتراس من شيء لو وقع كان قليلاً او نادراً او غير مضر وهذا قانون عام في جميع جهات الارض فكل سكان بقعة من مبداء اتخاذهم لها مقراً ووطناً قد تخللوا حتى اهتدوا الى ما

يوافق احوالهم بالنسبة لهذه البقعة ومن ثم كانت الطباع والاخلاق
والعادات متولدة من طبيعة فطر الجبهة واما ما زاد فطاري من
اختلاط سكان كل بقعة بمن جاورها



المسامرة الثلاثون

القهوة

وهكذا كان يتكلم مع برهان والتج يسبح الى ان وصلوا الى
محل قهوة يزيل الاتراح ويحلب الافراح للطافته وحسن زخرفته
وكثرة ما به من المرايا وسائر المزايا والنقوش اللطيفة والاشكال
الظريفة والادوات النظيفة والآلات المطربة والمحالات المعجبة
فدخلوا بقصد الاستراحة فاخاروا ركنا بعيدا عن الزحام فقعدوا
حول طرابيزة فحضر الخادم فامر الانكليزي بقهوة للشيخ ولولده
وبليهمونية لنفسه فذهب باقي له بما طلب ثم اخذ ورقة من اوراق
البحرودت ليطلع على ما فيها من الاخبار وكان الوقت اخر النهار

ومن عادتهم التفسح في هذا الوقت فمنهم من يأوي الى محلات
 القهوة ليطالع على الاخبار او ليتسلى مع بعض الاخوان ومنهم من
 يذهب الى خارج المدينة للفسحة والترويض ومنهم من يمشي مع بعض
 حرمه من النساء فكان في محل القهوة في هذا الوقت زحام كثير
 يدخلها فوج من الناس ويخرج اخر والجميع في هيئة تدل على
 الثروة فاستغرب الشيخ هذا المحل واستعظم امره وراى فيه عدة
 محلات متداخلة وراى الناس تخرج من محل الى اخر بدون ماع
 يمنعهم وراى في المحل كثيراً من الكراسي المحسنة والتراييزات الثمينة
 ولكثرة المرايا وتقابلها ببعضها كانت صور الجالسين والمخرجين
 والداخلين تنعكس فيها وتضاعف مراراً فكان يترآى في المحل
 سعة اكبر واكثر مما هو عليه في نفس الامر وكان المنظر الحادث
 من هذا التكرار غريباً يلذ الناظر ويسر الخاطر فرغب برهان في
 التفسح في ارجاء المكان فقال له الانكليزي قم ولا حرج وانظر الى
 ما تحب وتفرج فراى مكاناً كبيراً فدخله فوجد في وسطه ترايزة
 كبيرة عليها ثلاث كرات من سن الفيل وحولها ناس من جملتهم
 اثنان بيد كل واحد منها عصا يضرب بها احدى الكرات الثلاث
 المذكورة فتضرب احدى الكرتين الاخرتين او كليهما وربما ضرب
 بها حافة الترايزة فتنعكس عنها الى الكرة الثانية ثم الى الثالثة
 وربما لم تصب الا واحدة وفهم من الناس ان هذه اللعبة تعرف
 بالبيارد وان الواحد اذا اصاب بالكرة التي يضربها كلتا الكرتين

الباقيتين حسب له واحد في اللعب ولعب ثانيًا فاذا لم يصب
 كليهما لم يحسب له شي ويلعب قرينه وهكذا حتى يستكمل احدها
 العدد المتفق عليه بينهما فتكون له الغلبة ثم خرج من ذلك
 المكان الى حجرة اخرى فوجد بها قومًا جلوسًا وامامهم طرايزات
 عليها الصحف الخبرية واوراق المحادث النشرة وهم يقرءون فيها
 وفي غيرها واخرين ياكلون ووجد محلات التهوّة والمشروبات في
 غاية النظافة والظرف والخدمة في هيئة الكمال واللطف ووجد
 شابة ظريفة الملبس جميلة الصورة امامها مكتبة ودفتّر تكتب فيه
 ما يطلب فرجع وذكر ما رأى لوالده وكان قد رأى هو ايضًا قريبًا
 من المحل الذي هم به اناسًا يلعبون القمار واخرين يلعبون بالنرد
 وهو المعروف بالطاولة واخرين يلعبون بالشطرنج والدومينو

فقال الشيخ تنبيهًا لولده واحكامًا لرسله قد رايت ما بهذا
 المكان من بديع الاتقان وغريب الاحسان ما يدلك على تسابق
 الافكار في توصل بني نوعك الى محاسن الآثار فهذا الموضع كما
 تراه يبلغ كل داخل فيه مناه فالناس ما بين اكل وشارب ومتفرج
 وللاعب ومطلع على الاخبار الوقتية وسائل ومحيب عن الاحوال
 التجارية والناس مع اختلاف هذه الشؤون على اكمل هدى واجمل
 سكون الى سلامة ابدان ولطافة اذهان ونظافة ثياب وملاحة
 ذهاب وايباب فاين من هذا غالب محلات التهوّة في مصر حيث
 يجتمع السوقة من الناس ولا ترى ما يفر الناظر ويسر المخاطر ولا

شي فيها غير القهوة وتراها لضيقها يهجم على من فيها الدخان المتصاعد من الكانون وكذلك دخان النرجيلة والعود ونحو ذلك حتى يراهم من يربهم كأنهم في حريق أو محل سجن مضيق فهي منبع لكثير من الأمراض والعلل وماوى لاهل البطالة والكسل خصوصاً المحلات التي يتعاطى فيها الخشيش فلا يسمع فيها إلا الفاظ يعجبها السمع وينفر منها الطبع ولما خلت عن السب والضرب فهي بهذه الكيفية لا تليق بالامراء والاعيان والفضلاء

فقال الانكليزي ان اصل ما جعلت له هذه المحال عندنا وعندكم واحد ولكن بسبب ازدياد الثروة والتوسع والعمران اكتسبت هذه المحال عندنا هذه الهيئة شيئاً فشيئاً حتى صارت كما ترى يرد اليها جميع الناس من رجال ونساء وافاضل وامراء ومع هذا فما هنالك شيئاً بالنسبة لما في مدينة باريس كما ستراء فليس الخبر كالعيان وقد رايت عندكم بالموسكي وجهة الازبكية والاشكندرية بعض محلات للقهوة تشبهها وان كان غالب المتتردين اليها من الاوروبيين فهذا ربما يشعر بان قطركم قد اخذ في مبادي التوسع في العمارة والرفاهية فيوشك ان تكثر به هذه المحلات ويزداد اتقانها وتحسينها. أما رايت في ازقة مرسيليا القديمة محلات للقهوة لا فرق بينها وبين ما في القاهرة فهذا مما يدل على ان هذه الحالة لم تكن في القرون السابقة كما هي الان ولكن لا تكون الامور الا

تدرجاً فكما ازدادت امة من الام تحولت عن حالتها الاصلية الى ما يقتضيه ما صارت اليه ولا يخفى عليك ان الانسان وان كان يصرف في القهوة هنا اضعاف ما يصرفه عندكم الا ان ذلك ليس لذات القهوة بل لها ولما يتبعها من نظافة المكان وما فيه من المحاسن التي رايتها فانكم تعلمون ان النظافة من ضرورات حفظ الصحة التي رعاها الشرع والعقل ولذلك يتعين على ضباط البلاد واقرى والمدن دوام تفقدها والتنبيه عليها حتي تصير عند الاهلين طبعاً وعادة من جملة العادات المألوفة كما انهم يلزمهم زيادة عن ذلك شدة التضييق على المواد المضرّة بالعقل والجسم كالمحشيشة فيلزم مزيد التاكيد في ازالتها والتوعد بالعقاب الشديد على استعمالها وكثيراً ما سمعت عندكم بنشر اوامر من الحكومة بمنع تعاطيها وعدم زرع شجرتها في شي من ارض مصر ولكن لم تمتنع بالكلية وليت شعري من اين عرف المسلمون هذه الشجرة وكيف استعملوها ولم تكن مشهورة الاستعمال بين قدماء المصريين



المسامرة المحادية والثلاثون

الحشيش

فقال الشيخ انها لم تكن من مستنبات مصر واشتهرت نسبتها الى طائفة من الاعاجم تسمى الحيدرية نسبة الى رئيسهم حيدر قال المحسن بن محمد في كتاب السوانح الادبية سالت الشيخ جعفر بن محمد الشيرازي الحيدري ببلدة (تستر) في سنة ثمان وخمسين وستائة عن السبب في الوقوف على هذه العقار يعني الحشيشة ووصوله الى الفقراء (يعني الدراويش) خاصة وتعيده الى العوام عامة فذكر لي ان شيخه حيدر طلع ذات يوم وقد اشتد الحر وقت القائلة منفرداً بنفسه الى الصحراء ثم عاد وقد علا وجهه نشاط وسرور بخلاف ما كان يعهد من حاله قبل فدخل محله واذن لاصحابه في الدخول عليه واخذ بمحادثهم ويواآسهم فلما راه على هذه الحالة من الموانسة بعد اقامة المدة الطويلة في الخلوة والعزلة سالوه عن سبب ذلك فقال بينما انا في خلواني اذ خطر ببالي الخروج الى الصحراء منفرداً فخرجت فوجدت كل شي من النبات ساكناً لا يتحرك لعدم الريح وشدة القيط ومررت بنبات له ورق

فرأته في تلك الحال يميس وينحرك بلطف كالثلث الشوان فجعلت
 اقطف منه اوراقا واكلها فحصل عندي من الارتفاع ما شاهدته
 فقوموا بنا حتى اوقفكم عليه لتعرفوا شكله قال فخرجنا الى الصحراء
 فوقفنا على النبات فلما رايناه قلنا هذا نبات يعرف بالقنب فامرنا
 ان نأخذ من ورقه ونأكله ففعلنا فوجدنا في قلوبنا من السرور
 والفرح ما عجزنا عن كتمانها فلما رأنا على الحالة التي وصفنا امرنا
 بصيانة هذه العقار واخذ علينا الايمان ان لانعلم بها احداً من عوام
 الناس واوصانا ان نخفيها عن الفقراء وقال ان. الله تعالى قد
 خصكم بسر هذا الورق ليذهب بأكمله همومكم الكثيفة ويجلو بفعله
 افكاركم الشريفة فراقبوه بما اودعكم وراعوه فيما استرعاكم

وعاش الشيخ حيدر بعد ذلك عشرين سنة ثم توفي سنة ثمان
 عشرة بزاويته في الجبل وعظمه اهل خراسان وزاروه وكان
 قد اوصى اصحابه عند وفاته ان يوقفوا ظرفاء اهل خراسان وكبراءهم
 على هذه العقار فاستعملوها فلم تزل هذه الشجرة شائعة ذائعة في بلاد
 خراسان وفارس ولم يكن يعرف اصلها اهل العراق حتى ورد اليها
 صاحب هرمز ومحمد بن محمد صاحب البحرين وهما من ملوك
 سيف البحر المجاور لبلاد فارس في ايام الملك الإمام المستنصر بالله
 وذلك في سنة ثمان وعشرين وستمائة فحملها اصحابها معهم واظهروا
 للناس اكلها فاشتهرت بالعراق ووصل خبرها الى اهل الشام
 ومصر والروم فاستعملوها وقد نسبها لحيدر المذكور محمد بن علي

بن الاعمى الدمشقي في قوله من ابيات
 دع الخمر واشرب من مدامة حيدر
 معبرة خضراء مثل الزبرجد
 يعاطيكها ظي من الترك اغيد
 يمس على غصن من البان املد
 فتحسبها في كفه اذ يديرها

كقمر عذار فوق خد مورد

وقال الشيخ محمد الشيرازي القلندري لم ياكل الشيخ حيدر
 الحشيشة في عمره البتة وإنما عامة اهل خراسان نسبوها اليه لاشتهار
 اصحابه بها وكان اظهارها قبل وجوده بزمان طويل وذلك انه
 كان بالهند شيخ يسمى بيرطن هو اول من اظهر لاهل الهند اكلها
 ولم يكونوا يعرفونها قبل ذلك ثم شاع امرها في بلاد الهند حتى ذاع
 خبرها ببلاد اليمن وما جاورها ثم فشا الى اهل فارس ثم ورد
 خبرها الى اهل العراق والروم والشام ومصر في السنة
 التي تقدم ذكرها وبيرطن هذا يزعمون انه كان في زمن
 الاكاسرة وادرك الاسلام واسلم وعاش بعد ذلك طويلاً وذلك ما
 لا اصل له وقد نسب اظهارها للناس الى اهل الهند علي بن مكى
 في ابيات له يقول فيها

قم فانف جيش المم واكفف يد العنا
 بهندية امضى من البيض والسمر

بهندية في اصل اظهار اكلمها

الى الناس لاهندية اللون كالسمر

وقد قيل في هذه الشجرة الملعونة كثير من الشعر وان لم يبلغ
ما قيل في اختها الخمر ويقال ان اول ما نظم فيها من الشعر قول

ابي عبد الله محمد بن ابي بكر بن عبد القادر الحنفي

وخضراء كافورية بات فعلها * بالبابنا فعل الرحيق المعتق
اذا نفحننا من شذاها بنفحة * تدب لنا في كل عضو ومنطق

غنيت بها عن شرب خمر معتق

وبالدلق عن لبس الحديد المزوق

فقال الانكليزي ما المناسبة في نسبتها الى الكافور في قوله

وخضراء كافورية

فقال الشيخ ليس المراد نسبتها الى الكافور المشهور وانما اراد

نسبتها الى بستان كافور وكان مشهوراً به وكان هذا البستان
موجوداً بمصر قبل بناء القاهرة وتملك الدولة الفاطمية لدير مصر

اشاء الامير ابو بكر محمد بن طنج الملقب بالاخشدي فلما قدم

جوهر القائد الى مصر جعل هذا البستان من داخل القاهرة

وعرف ببستان كافور وقيل له في الدولة الفاطمية البستان

الكافوري قال بن عبد الظاهر البستان الكافوري هو الذي

كان بستاناً لكافور الاخشيدي وكان كثيراً ما يتنزه به وبنيت

القاهرة عنده ولم يزل الى سنة احدى وخمسين وستائة فاخذت

البحرية والعززية به اصطبلات وازيلت اشجاره قال ولعمري ان
خرابه كان بحق فانه كان عرف بالحشيشة التي يتناولها الفقراء
والتي تطلع به يضرب بها المثل في الحسن قال شاعرهم ابو الحسن
علي بن عبد الله النبعي

رب ليل قطعتني وندي

شاهدي وهو مسمعي وسبيري

مجلسي مسجد وشربي من خضراء -

- تزهو بحسن لون نصير

قال لي صاحبي وقد فاح منها -

نشرها مزييا بنشر العبير

أمن المسك قلت ايسر من المسك -

- ولكنها من الكافور

فلم يرد انها من الكافور وإنما اراد انها من البستان المذكور
ومن ذلك قول ابي المعز بن ابي الحسن بن احمد الصائغ
المغربي

فم عاطني خضراء كافورية

قامت مقام سلافة الصبء

يغدو الفقير اذا تناول درهما

منها له تيه على الامراء

وامر السلطان الملك الصالح نجم الدين ايوب الامير جمال

الدين بن يغموران يمنع من يزرع في الكافوري من الحشيشة
 شيئاً فدخل ذات يوم فرأى فيه منها شيئاً كثيراً فامر بان يجمع
 فجمع واحرق فنظم في ذلك ابو العباس احمد بن يوسف ابيانا
 مطلعها

صرف الزمان وحادث المقدور

تركا نكير الخطب غير نكير

وكان ذلك في سنة ثلاث واربعين وستائة فهذا وجه
 تلقيبها بالكافورية وقد عرفت اصل تلقيبها بالهندية والحيدرية
 والصحيح ان هذا النبات قديم معروف من قبل الشيخ حيدر
 المتقدم ذكره بازمان طويلة يدل على ذلك ما نقله الاطباء في
 كتبهم عن بقراط وجالينوس من مزاج هذه العقار وخواصها واما
 حكمها في الشرع فهو التحريم لما يخدر العقل منها قال بعضهم شر
 سكر سكر الحشيشة وان قال من غلب على عقله هواه وهوى
 به الفساد الى مضيق مهواه

هي البكر لم تنكح بقاء سحابة

ولا عصرت يوماً برجل ولا يد

ولا عبس القسيس يوماً بكاسها

ولا قربوا من دنها كل متعدي

ولا نص في تحريمها عند مالك

ولا حد عند الشافعي واحمد

ولا اثبت النعمان نفيس عنها

فخذها بحمد المشرقي المهند

قال المقرئ في الكلام عليها دع نزاهة القوم فما يلي
 الناس بانفسد من هذه الشجرة لاخلقهم ولقد حدثني القاضي
 الرئيس تاج الدين اسماعيل بن عبد الوهاب ابن الخطباء المخزومي
 قبل اخلاطه عن الرئيس علاء الدين بن نفيس انه سئل
 عن هذه الحشيشة فقال اعتبرتها فوجدتها تورث السفالة
 والردالة وكذلك جربنا في طول عمرنا من عاناها فانه يخط
 في سائر اخلاقه الى ما لا يكاد ان يبقى له من الانسانية شيئاً
 وقد قال ابن البيطار في كتاب المفردات ومن القنب نوع ثالث
 يقال له القنب الهندي ولم أره بغير مصر ويزرع في البساتين
 ويقال له الحشيشة عندهم ايضاً وهو يسكر جداً اذا تناول منه
 الانسان قدر درهم او درهمين حتى ان من اكثر منه يخرج الى
 حد الرعونة وقد استعمله قوم فاخذت عقولهم وقد ادى بهم الحال
 الى الجنون وربما قتلت ورايت الفقراء يستعملونها على انحاء شتى
 فمنهم من يطبخ الورق طبخاً بليغاً ويدعكه باليد دعكاً جيداً حتى
 يتعجن ويعمل منه اقراصاً ومنهم من يحففه قليلاً ثم يحمصه ويفركه
 باليد ويخلط به قليل سمس مقشور وسكر ويستفه ويطيل مضغه
 فانهم يطربون عليه ويفرحون كثيراً وربما اسكرهم فيخرجون به الى
 الجنون او قريب منه وهذا ما شاهدته من فعلها قال فانظر كلام

العارف فيها واحذر من افساد بشرتك وتلاف اخلاقك باستعمالها
ولقد عهدناها وما يرمى بتعاطيها الا اراذل الناس ومع ذلك
فيأنفون من انتسابهم لها لما فيها من الشنعة وكان قد تبع الامير
سودون الشيخوني رحمه الله الموضع الذي يعرف بالجنينة من ارض
الطبالة وباب اللوق وحكر واصل ببولاق واتلف ما هنالك
من هذه الشجرة الملعونة وقبض على من كان يتلعبها من اطراف
الناس ورذلائهم وعاقب على فعلها بقلع الاضراس فقلع اضراس
كثير من العامة في نحو سنة ثمانين وسبعائة وما برحت هذه
الخبينة تعد من القاذورات حتى قدم سلطان بغداد احمد بن
اويس فاراً من تيمورلنك الى القاهرة في سنة خمس وتسعين وسبعائة
فتظاهر اصحابه باكلها وشنع الناس عليهم واستجبوا ذلك من فعلهم
وعابوه عليهم فلما سافر من القاهرة الى بغداد وخرج منها ثانياً واقام
بدمشق مدة تعلم اهل دمشق من اصحابه التظاهر بها وقدم الى
القاهرة شجص من ملاحدة العجم صنع الحشيشة بعسل خلط فيه
عدة اجزاء مجففة كعرق اللقاح ونحوه وسماه العقدة وباعها بخفيفة
فشاع اكلها وفشا في كثير من الناس مدة اعوام فلما كان في سنة
خمس عشرة وثمانمائة شاع التجاهر بالشجرة الملعونة فظهر امرها واشتهر
اكلها وارتفع الاحشام من الكلام بها حتى لقد كادت ان تكون
من تحف المترفين وبهذا السبب غلبت السفالة على الاخلاق
وارتفع ستر الحياء والحشمة من بين الناس وجهروا بالسوء من

القول وتفاخروا بالمعائب وانخطوا عن كل شرف وفضيلة وتحلوا
بكل ذميمة من الاخلاق ورذيلة فلولا الشكل لم تقض لهم بالانسانية
ولولا الحس ما حكمت عليهم بالحيوانية وقد بدا المسخ في السمائل
والاخلاق المنذر بظهوره على الصور (انتهى المراد منه)
فقال الانكليزي وقد تكلم الافرنج ايضا على هذه الشجرة
الخبثية واطنبوا في ذمها وذكر مضارها ومفاسدها



المسامرة الثانية والثلاثون

يوم العطلة

ثم انهم ارادوا الانصراف فطلب الانكليزي خادما المحل
فأتى له بورقة مكتوبة فيها اصناف ما اخذوه فدفع الثمن وارضى
الخادم ثم خرجوا يتفرجون على المدينة الجديدة وازقتها وشوارعها
الى ان وصلوا الى ميدان من ميادينها المعدة للفسحة فوجد الشيخ
به غالب اهل البلد من ثني وفقير وكبير وصغير في احسن

ملا بهم كل على قدر حاله . فقال الشيخ هل هذا اليوم عندكم
يوم عيد فقال الانكليزي لا بل العادة في جميع بلادنا التفرغ والتخلي
عن الاشغال كل يوم في هذا الوقت واما يوم الاحد فيعطل
الناس فيه اشغالهم ويخرجون بعد الظهر للتنزه فهو عندنا
كيوم السبت عند اليهود ويوم الجمعة عند المسلمين غير ان
عادتهم في يومهم تغيرت عما كانت عليه في صدر الاسلام فان
بعضهم قد يشتغل فيه كباقي الايام ولم يبق له من الاحترام الا
صلاة الجمعة واما اليهود فعلى اصل عادتهم لا يشتغلون في
يومهم بشيء وكذلك طائفة البروتستانت من النصارى خصوصاً
الانكليز لا يشتغلون بشيء في يوم الاحد واطن انك لا تجد في
هذه العادة باساً اذ في ذلك اليوم تفرق كل امة لقضاء لوازمها
كل بحسبه فالفقير يتفرغ لقضاء لوازمه المنزلية وتنشيط قلبه
البدنية وتنظيف ثيابه وجسده وصاحب الوظيفة يقيم بمنزله
لموانسة عائلته او لتنظيم اشغال نفسه مما يتعسر عليه في غير
هذا اليوم فضلاً عما يحصل فيه من المزايا كتزاور الاصحاب
وعيادة المرضى وغير ذلك من الامور اللازمة لدوام الجمعية

فقال الشيخ نعم العادة ولكل امة عادة على حسب شرائعهم
ومتنضيات احوالهم وليوم الجمعة عندنا اعمال تطلب فيه كصلاة
الجمعة والاغتسال لها والتبكير لصلاتها والصلاة على النبي صلى
الله عليه وسلم فيه والصدقة والنظافة والتطيب بالروائح الحسنة

ونحو ذلك واطن ان لكل امة في يومها خواص تشبه هذه وان كان لا يحضرني الان ما هي . وقد حان وقت الطعام فقاموا وركبوا عربة ورجعوا الى مقرهم وفي اثناء الطريق قال الانكليزي للشيخ ان البوسطة الى مصر ترسل غداً وعن قريب نساfer فان كان عندك مكتوب تحب ارساله فاعطنيه لارسله مع خطاباتي

فقال الشيخ نعم اريد ان ارسل بعض كلمات للاولاد في داخل مكتوب برهان وسأكتبها ان شاء الله في اللوكاندة قال فكيف وجدت هذه المدينة . قال حسنة لطيفة وانما ارجو منك ان تتخفي ببعض انبائها لآكون على علم بها وباحوالها فقال الانكليزي هذا بعض ما يجب عليّ وسأقص عليك ما اعلم من امرها بعد وصولنا الى مستقرنا فلما وصلوا دخل كل منهم حجرتة وازال ما به من غبار الطريق وغير ما لزم تغييره ثم حضروا الى المائدة فاكلوا ثم قاموا الى حجرة الشيخ وقد حضر برهان ومعه يعقوب الذي كان اصطحب به في السفينة وقد تكلم معه الانكليزي بعض كلمات ففهم منها لياقته للخدمة واتفق معه على شروط الخدمة وما يلزم اداؤه وكان فيما قاله له ان برهان الدين صغير ويحتاج لدليل يده ومرشد يرشده فاعظم واجب عليك العناية به والملازمة له ففرح برهان بذلك ثم ان الانكليزي قال للشيخ قد طلبت مني بعض اخبار هذه المدينة وانا متفكر

فما القيه اذ لا يخفى انه مضى عليها قرون عديدة وما من قرن الا وتقلب فيه حوادث لو جمعت للمئات مجلدات فكيف لو جمعت حوادث القرون كلها لكن لا يخفى ان نتيجة الحوادث في جميع البقاع والقرون متقاربة فتاريخ كل امة كتاريخ غيرها وكذا كل بلدة لا فرق في ذلك بين المدن والقرى اذ النتيجة لا تخرج عن احد شيئين خير وشر ومن الاول تكون اللذة ومن الاخر يكون الالم وتسلط الاثنين لازم لكل فرد من افراد الخليقة فلا يدوم احد على حالة واحدة وكذلك البقاع فكل حالة مقترنة بصددها.

الدهر لا يبقى على حالة * لا بد ان يقبل او يدبر
فان تلقاك بمكروهه * فاصبر فان الدهر لن يصبر



المسامرة الثالثة والثلاثون

مرسيليا

ومن ذلك هذه المدينة واهلها فقد ثقل عليها كل من
 الامرين وشربت من الكاسين واعتراها من الخير وضده ما اعتري
 غيرها كالاسكندرية وغيرها وملخص ما اعلمه من امرها انها قبل
 المسيح بستمائة سنة اي قبل تاريخ الهجرة النبوية بالف ومائتين
 واربعين سنة تقريباً كانت لقوم يعرفون باسم ليجور او (ليغور) وكان
 لهم جزء عظيم من خليج ليون واغلب ارض خليج جينوا فهاجر اليها
 بعض الاروام اعني سكان اسيا الصغرى او الاناطول من مدينة
 يقال لها فوسيه محيت اثارها الان فنزلوا بهذه البقعة وسكنوها
 وكانت ارض فرانساً اذ ذاك لقوم يقال لهم الجملو (او الغالية)
 وكان لهم ملك يقال له نانوس فطرد قوم الليغور من هذه البقعة
 الى ان تولى واقر مكانهم اولئك المهاجرين لمساعدتهم له واتحادهم
 معه فاستوطنوها واستمروا بها واخذوا في اسباب التقدم فاستعنت
 شهرة وعظمت ثروتهم فحسدوهم من جاورهم وحاربوهم مراراً ولكن
 لم يفوزوا منهم طائلاً ثم جاءهم بعد ستين سنة جمع عظيم من

قبائلهم واهليهم فاستقبلوهم واسكنوهم معهم فزادت قوتهم وقويت شوكتهم وعمرت بلدتهم حتى فاقت على ما جاورها من البلاد واحداثوا عدة من المدن والثغور مثل نيث واوينب واتسعت دائرة تجارتهم وسارت في جميع البحار خصوصاً بمساعدة الرومانيين ثم انفردت هذه المدينة بتجارة البحر واستقلت بها عند انحطاط مدينة صور وقرطاجنة وبقي الامر على ذلك الى ان اسست القسطنطينية فاخذت منها شهرتها وتحولت التجارة اليها وذلك في حدود ثلاثمائة سنة من ظهور المسيح ومن ذلك الحين اخذت مدينة مرسيليا في الانحطاط والاضمحلال وبعد ان كانت منفردة بالشهرة في سياحة البحار والتجارة اصبحت كغيرها من الثغور آخذة في التنازل وفي تلك الايام كان امر القوم مفوضاً الى ستائة من رجالهم يقيمون مدة حياتهم في تدبير احوال جمهورهم وكان الشرط في انتخابهم لهذه الوظيفة ان يكونوا من اهلبا المولودين بها وان يكون لهم اولاد ذكور وكانت الدعاوي والتضاييا مفوضة الى خمسة عشر شخصاً منهم ينظرون فيها على مقتضى قوانين موضوعة وكان بت الحكم مفوضاً لثلاثة من المعتمدين وكانت عادتهم ان تكون قوانينهم التجاري على مقتضاها فصل الدعاوي مشهورة ومعلقة بمحيطان الحال الشهيرة من المدن ليتمكن كل واحد من الاهلين من الاطلاع عليها ومعرفتها بنصوصها وموضوعاتها وتلك القوانين كانت لا تخالف قوانين اليونان في شي

وفي سنة ٤٢٦ من ظهور المسيح اي قبل الهجرة بمائتي سنة حصل لهذه المدينة من ملوك فرنسا كثير من النصب والشدة حتى انحط قدرها انحطاطاً بالغاً وبقيت الازمان الطويلة في اضمحلال وسوء حال خصوصاً لما تغلب عليها العرب في سنة ١١٧ بعد الهجرة فهدموا اكثر مبانيها واذلوا اهلها وخربوا عماراتها فصارت بهذه الاسباب في اسوء حال واخذت في التنازل الى زمن شرلماني فجعلها في حمايته من سنة ثمانمائة من الميلاد وهي سنة ١٨٤ من الهجرة فاخذت في الارتقاء والتقدم من ذاك الوقت ونمت علائقها التجارية مع غيرها واشتهرت بالسياحة في البحار كما كانت اولاً وجلبت من جهات اسيا واسبانيا اهل الصنائع والحرف وغيرهم فسكنوها فعاد اليها فخارها وشهرتها في التجارة والصناعة واستمرت على هذه الحالة الى سنة ٨٨٥ من الميلاد اعني سنة ٢٧٢ من الهجرة ثم اضيفت في هذا التاريخ الى مملكة فرانسافقويت شوكتها وحسن امرها بمساعدة ملوك الدولة فاخذت تجارتها في النمو والتقدم حتى صارت اعظم الثغور الفرنسية وفي سنة ١٨٠١ من الميلاد و ١٢١٦ من الهجرة كان عدد اهلها تسعين الفا وخمسمائة فقط والآن بلغ مائتين وخمسة وثلاثين الفا اعني ان اهلها زادت في تسع وستين سنة مائة واربعة واربعين الفا وخمسمائة فهذا دليل على تقدمها ورفاهية اهلها واعندال هوائها فلم يكن البرد فيها شديداً جداً ويندر ان تنزل درجتها في الشتاء عن الصفر اكثر من ثماني

درجات ولا تزيد درجة حرارتها عن ست وثلاثين درجة في
من هذه الحثية لا تخالف الاسكندرية من اعمال مصر الا قليلا
واما من حثية التجارة فكل من هذين الثغرين يخرج منه من
اصناف التجارة نحو اربعمائة تونولته (والتونولته عبارة عن ٨٠٠
اقعة تقريباً) الا ان السفن الواردة الى ثغر مرسيليا اكثر من السفن
الواردة الى ثغر الاسكندرية فان عدد ما يرد في السنة الى
مرسيليا نحو خمسة الاف وما يرد الى الاسكندرية نحو ثلاثة وفي
الايام السابقة كان المانع من زيادة تقدم مرسيليا قلة المياه العذبة
بها فكان اهلها واصحاب السفن الواردة اليها ياخذون ما يلزم
لشربهم من الماء العذب اذ ذاك من نهر صغير قريب من موضع
المدينة لكنه كان يجف في غالب اوقات السنة فكان يلحق اهل
البلد والوافدين عليها من الاغراب من ذلك ضرر عظيم ولم
يزل الحال على ذلك الى ان عمل لها خليج طوله سبعة وثمانون
الف متر بلغت مصاريفه نحو مليونين من الجنيهات المصرية فتمت
بذلك لم اسباب الرفاهية والراحة وتلذذوا بانواع التلذذات التي
كانوا محرومين منها من قبل كالتمتع بكثرة البساتين والمحدثات
وفساقى الماء في الميادين وحصل للناس من ذلك مزيد الراحة
بسبب تقسيم المياه على المنازل وايصاله الى جميع طبقاتها مع السهولة
ومن هذا الخليج جزء عظيم يبلغ طوله خمسة وعشرين الف متر يمر
في جوف الجبال من تحت الارض فلا يراه احد ومنه جزء يبلغ

طوله اربعائة متر بواحد يسمى وادي دو كفاور يمر فوق عقود من
البناء عالية شاهقة يبلغ ارتفاعها اثنين وثمانين متراً وكمية الماء الوارد
الى حوض التصفية الذي يقسم منه الماء على جهات البلد تبلغ في
الثانية الواحدة عشرة امتار مكعبة وهي نحو مائة وست عشرة قربة
من قرب مصر اعني القرب الكبيرة المعروفة في مصر بالحماري اما
بالقرب الصغيرة المعروفة بالكتافي فتبلغ نحو مائتين وعشرين قربة
وبما ذكر صارت هذه المدينة الى ما تراه من العماره والبهجة
وحسن الحال

فقال الشيخ هكذا الدنيا لا تزال تنتقل فيها الاحوال ودوام
الحال من المحال وقد قال تعالى وهو اصدق القائلين (وتلك
الايام نداؤها بين الناس) والباقع كالناس تشقى وتسعد كما قال
القائل

اني اطلعت على البقاع وجدتها

تشقى كما تشقى الرجال وتسعدُ

وما ذكرته لي بالنسبة لمرسيليا قد حصل لغيرها من المدن
والقرى فلا يكاد يسلم من ذلك التبدل بلد كما انه لا يخلو من
التغير والتقلل احد

هي المقادير تجري في اعتتها

فاصبر فليس لها صبر على حال

يوماً تريض خميس الدهر ترفعه

الى السماء ويوماً تخفض الغمام

وقد ذكرت بما حكيت لي من تاريخ مرسيلية وتقلب حالها
تاريخ الاسكندرية وتغيراتها والشيء بالشيء يذكر فان مدينة
الاسكندرية ايضاً قد توالى عليها احوال كثير وتقلبات كبيرة من
سعد ونحس ونعم وبؤس فقد جرعها الدهر كوؤس صابه وشهده
واذاقها من حلو ومره وقلبها بين خصبه ومحله فما من قرن مر
عليها الا وهي في حالة غير ما كانت عليه من قبله فسجلن من له
الدوام والبقاء ولا يعتبره التغير والفناء

الميامرة الرابعة والثلثون

شذرات

من تاريخ مصر والاسكندرية ومراسلة الاسكندر وداودا ولد بطليموس

فقال الانكليزي نعم قد اصاب الاسكندرية ومصر ايضاً من
ذلك ما اصاب سائر البلاد وقد تقلب اليها من سيرة الاقدمين
واخبار السالفين ان مصر قبل انشاء الاسكندرية بعدة قرون
كانت في احسن حالة واوفر نعمة فكانت العلوم والصنائع بها

في اقصى درجاتها واحوال التقدم والتمدن فيها واصلة الى غاياتها
وكانت حينئذ اهلها في عيش رغيد وطالع سعيد وخير مزيد
مشتغلين بمجدهم وجهدهم في ازدياد عزهم ومجدهم والاستكثار من
اسباب سعادة الحال ونماء الارزاق والاموال وما زالوا كذلك الى
ان خاتما الزمان فسلط عليها الفرس فاغاروا عليها تحت قيادة
ملك من ملوكهم يقال له كميشتاش او كمييز فدمر مبانيها وغير
مغانها وخرب معابدها ومعاهدها واسر اهلها واذلم وقهرهم وبسط
فيهم يد الظلم والمجور والعدوان حتى تركوا اعمالهم وتخلوا عن
صنائعهم ومساعيمهم واضطر كثير منهم الى الفرار والتغرب عن الديار
ومن ذلك الحين اخذت مصر في التفتقر واحوالها في التغير وكان
ذلك قبل مولد المسيح عليه السلام بخمسة وعشرين وخمسمائة عام
وكانت قبل ذلك قبلة يومها الناس من جميع الافاق لطلب
العلوم والفنون والارزاق حيث كان ما عداها من البلاد في
ظلمات الجهل وهي من بينها مضيئة بانوار العلم والفضل فاصبحت
بعد ذلك تشكو لغيرها مآدها وازال نعيمها ونعمها وسلبها ما كانت
فيه من رغد العيشة وحرما بسبب سطوات هذا الجبار الظالم
الغدار الذي لم يكن ظلمه قاصراً على الاحياء بل تعدى ايضاً الى
الاموات فاخرج اجسامهم من قبورهم فاحرقها وذرى رمادها في
الهواء

وفي ذلك الوقت كانت مملكة الرومانيين في ابداء نشأتها

واخذت مملكة الروم ايضاً في ابتداء عزها وشهرتها وهذا بسبب من هاجر اليها من المصريين الذين رحلوا عن اوطانهم فراراً من مظالم الفرس وعدوانهم فاستوطنوا بلادهم ونقلوا اليهم كثيراً مما كان عندهم من صنائع مصر وعلومها وفنونها وكان بمجل الاسكندرية بلد صغير في محل مرتفع على البحر يقال له راقوفي اورقوده

قال الشيخ يويد هذا ما قرأته في كلام بعض مؤرخي الاسلام قال بنيت الاسكندرية غير مرة وكان اول بنائها بعد الطوفان في زمن مصر ايم بن بيصر بن حام بن نوح عليه السلام وكان يقال لها اذ ذاك مدينة رقوده ثم بنيت بعد ذلك مرتين (اه)

قال الانكليزي آيا ما كان هذا المحل في الازمان العتيقة فقد آل امره قبل بناء هذه المدينة الموجودة الان الى ان صار به على ما نقل الينا من علمه قرية صغيرة تعرف بالاسم المذكور يسكنها جماعة كانت تقيمهم به فراعنة مصر لمنع من يطوفون في البحار من ان ينزلوا بارضهم وكان الفراعنة يكرهون الملاحة واهلها كراهة شديدة ولذلك اقاموا هولاء المحافظين بهذا المحل لمنع من عساه يريد النزول به ممن يحب الملاحة وكان المحافظون الذين يسكنون هذا المحل من اعراب البادية النازلين في الصحراء خلف الجبل الغربي فان هذا المحل كان متقطعاً عن الناس بعيداً عن العماره مجرداً عن المزارع والمراعي فلم يكن يرضى بسكناه غيرهم

وقال بعض المؤرخين كانت راقوتي هذه جعلت في قديم الزمان محطة عسكرية لمنع اليونان من دخول مصر وكانت الفراعنة قد أعدت ما جاورها من الأرض لزعمي الماشية وإقامة الرعاة بها لإعانة العسكر عند الحاجة اهـ ٠ ثم لم يزل ظلم الفرس بمصر حتى كثرت بها الفتن وتوالت عليها المحن ونزع كثير من أهلها الأديم عن المطاعة والانتقاد وفزعوا للسلاح واستعدوا للحرب فنشب الشر بين الفريقين وحصل من ذلك مصائب كثيرة وخطوب عظيمة أضر لمرها باهل البلاد وأضعفت الحكومة وهنت قواها ومنه نشأ تمزق اجزائها وتفرق كلمتها وتبع ذلك غلبة الروم في جهات متعددة انتصروا فيها فكان في ذلك ازدياد شهرتهم وقوة كلمتهم وانتصار العلم على الجهل بنصرتهم ولكنهم جرت عليهم عادات الأيام في تنقلها وتداولها بين الناس وتحولها فتقهروا بعد تقدمهم حتى غلبه المقدونيون ومن ذلك الوقت اتسع صيت المقدونيين وعظمت دولتهم وقويت شوكتهم ووصلتهم بظهور الاسكندر الأكبر بين أظهرهم فجاب بهم الاسكندر بلاد الفرس وتسلط عليهم ودوخهم واستولى على ممالكهم في مدة دارا ملكهم ودخلت مصر تحت قبضته وكان ذلك في سنة ٣٣٢ قبل الميلاد اي بعد مرور قرنين من استيلاء كمبشاش على مصر وقد قرأت في بعض الكتب العربية بعض مكاتبات ظريفة دارت بين دارا والاسكندر وبين الاسكندر وارسطاطاليس في ذلك قد شذعني عبارتهما وكنت

اود لو كان عندي صورتها فهل في حفظك ايها الاستاذ شيء منها

فقال الشيخ نعم قرأت في بعض التواريخ ان الاسكندر لما ولي مكان ابيه قطع ما كان يرسله ابوه كل سنة الى ملك الفرس من القطيعة ويقال انها كانت الف بيضة من الذهب فلما قطعها كتب اليه دارا يتهده ويبعث اليه بكرة وصولجان وخرقة فيها سمسم وقال له انت صبي فالعب بهذه الكرة فان ادبت الاناة ولا بعثت اليك بجنود عدد هذا السمسم واتيت بك في الوثائق

فكتب اليه الاسكندر

اما بعد فقد تيمنت بالكرة والصولجان فان الدنيا مثل الكرة وسألعب بها واضيف ملكك الى ملكي واما السمسم فقد تيمنت ايضاً به لانه بعيد عن المحرقة والمرارة واما البيض فان الدجاجة التي كانت تبيض قد ذبحتها واكلت لحمها فغضب دارا وسار اليه بمجموعه وسار الاسكندر بمجموعه فالتقيا على تصيين فلما هم دارا بالقتال بعث اليه الاسكندر بمصححه ويقول له ايها الملك لا تفعل فان دماء الملوك لا تجوز اراققتها وهدم البيوت القديمة غير محمود والبغي ذميم العقبي والحرب غير مأمون العاقبة واصحابك قد ملوك وكرهوك لسوء سيرتك فارجع

فانك محمد قولي فلم يلتفت اليه دارا واقاما بنجاربان مدة ثم ان الاسكندر دبر حيلة وهو انه لما وقع الملل بين الفريقين برز منادي الاسكندر فقال يا معشر الفرس قد علمتم ما كان من مكاتبتكم لنا ومكاتبتنا لكم من الامان وقد طال القتال فمن كان منكم على غير قتال فليعتزل وله الوفاء بالعهد فاتهمت الفرس بعضهم بعضا واضطربوا فكان من اسباب خذلان دارا ثم وثب على دارا رجلان من اصحابه قطعناه من خلفه وكان الاسكندر نادى من ظفر بدارا فلا يقتله فجاء به الرجلان الى الاسكندر فقتل عن فرسه وقعد عند رأس دارا وبه رمق فقال والله ما هممت بقتلك ولقد نهيت عنه واني ليعز عليّ مصابك فاسألني حوائجك فقال تقتل فلانا وفلاناً اللذين قتلاني فاني كنت محسناً لهما فقال سمعاً وطاعة واحضر الرجلين فقتلها وقال هذا جزاء من ينجرأ على ملكه وتفرق ملك فارس ثم صار الاسكندر الى بابل وجلس على سرير دارا واستولى على خزائنه وجواهره وسلاحه وشرع في هدم بيوت النيران وقتل الموازنة

وكتب الى استاذة ارسطاطاليس يستشيريه فبين بقي من عظام الفرس بما معناه

اما بعد فان دوائر الاسباب ومواقع الفلك وان كانت

اسعدتنا بالامور التي اصبح لنا بها الناس دائنين فانا مضطرون
 الى حكمك وغير جاحدين لفضلك والاجنباء لرايك لما بلونا من
 جدى ذلك علينا وذقنا من جنى منفعتة حتى صار ذلك بجزعه
 فينا وترشيحه لعقولنا كالغذاء لنا فما ننفك نعول عليه ونستمد منه
 استمداد الجدول من البحار وقوة الاشكال بالاشكال وقد كان فيما
 سبق الينا من النصر وبلغناه من النكاية بالعدو ما يعجز القول
 عن وصفه والشكر على الانعام به وكان من ذلك ان جاوزنا
 ارض الجزيرة وبابل الى ارض فارس فلما نزلنا باهلها لم يكن
 ريثا تلقانا نفران منهم يقتل ملكهم طلباً للحظوة عندنا فامرنا
 بصلبها لتجربها وقلة وفائها ثم امرنا بجمع من هناك من ابنا ملوكهم
 وذوي الشرف منهم فرأينا رجالاً عظيمة اجسامهم واحلامهم يدل
 ما ظهر من رؤيتهم على ان وراة من قوة بأسمهم ما لم يكن معه
 سبيل الى غلبتهم لولا ان القضاء ادالنا منهم ولم نر بعيداً من
 الراي ان نستأصل شافتهم ونلحقهم بمن مضى من اسلافهم لتسكن
 بذلك القلوب الى الامن من جرائرهم ورأينا ان لا نعجل ببادرة
 الراي في قتلهم دون الاستظهار بمشورتك فيهم فارفع الينا رايك
 فيما استشرناك بعد صحنك عندك وتقليبه على نظرك على عادة
 ازائك المسعفة والسلام على اهل السلام فليكن عليك وعلينا

فكتب اليه ارسطاطاليس المؤيد المهدي له الظفر من اصغر خوله ارسطاطاليس

اما بعد فقد تقرر عندي من مقدمات فضل الملك وبين
نقيبته وبروز شأوه وما ادى الى حاسة بصري صورة شخصه ووقع
في فكري على تعجب رايه ايام كنت اودّي اليه من تعليمي اياه ما
اصبحت قاضياً على نفسي بالحاجة الى تعلمه منه وقد ورد كتاب
الملك بما رسم لي فيه وانا فيما اشير به على الملك كالعدم مع
الوجود ولكني غير ممتنع من اجابته

فاقول ان لكل تربة لا محالة قسما من كل فضيلة وان
لفارس قسمتها من النجدة والقوة وانك ان تقتل اشرافهم تخلف
الوضعاء منهم وترث سفلتهم منازل عليتهم وتغلب ادنيائهم على
مراتب ذوي اخطارهم ولم يتل الملوك قط ببلاء هو اعظم عليهم
من غلبة السفلة وذل الوجوه واحذر الحذر كله ان تمكن تلك
الطبقة من العلية فان نجم منهم ناجم على جندك واهل بلادك
دهمهم ما لا روية فيه ولا منفعة معه فانصرف عن هذا الراي الى
غيره واعمد الى من قبلك من العطاء والاحرار فوزع بينهم مملكتهم
والزم اسم الملك كل من وليته منهم ناحية واعقد التاج على راسه
وان صغر ملكه فان التسي بالملك لازم لاسمه والمنعقد له لتاج

لا يخضع لغيره ولا يلبث ذلك أن يوقع بين كل ملك منهم وبين صاحبه تدابراً وتغالباً على الملك وتفاخراً بالمال حتى ينسوا بذلك اضغانهم عليك ويعود بذلك حربهم لك حرباً بينهم ثم لا يزدادوا في ذلك نصرة إلاّ أحدثوا هنالك استعانة بك فان دنوت منهم كانوا لك وإن نأيت عنهم تعزّزوا بك حتى يثب كل منهم على جاره باسمك وفي ذلك شاغل لم عنك وإمان لأحداثهم بعدك ولا إمان للدهر وقد أدبت للملك ما رايته حظاً وعليّ حقاً والمملك ابعد روية وأعلى عينا فيما استعان بي عليه والسلام الابدي على اهل السلام فليكن على الملك . هـ . قال الشيخ فهذا ما علق بخاطري من ترجمة تلك المكاتبات فهل تعلم كيف كان بناء هذا الثغور وسببه

قال الانكليزي يقال ان الاسكندر لما استولى على ارض مصر في جملة ما دخل تحت حوزته من الممالك اخذ يدبر فكره فيما يتأتى له بواسطته ارتباط علائق المعاملة بين الامم المختلفة التي استولى عليها في جهات متفرقة من الارض فرأى انه لا بد له من اتخاذ مركز معين متحد به علائق هذه الامم ورأى ان يكون هذا المركز بساحل البحر المتوسط اعني بحر الروم فاجتاز لذلك محل رقوده المتقدم ذكره فبنى به الاسكندرية ووسمها باسم نفسه رغبة في تخليد ذكره وان يبقى اسمه ببقائها ويذكر كلما ذكر اسمها ولما انشأها جعل تقسيم الدور والازقة بها على حسب وضع

ارضها فكانت على شكل الهرس المهدوني وكان يشتمها شارعان
عظيمان متقاطعان احدهما يشتمها من الشرق الى الغرب طوله
فرسخ وفي احد طرفيه باب كانوب وهو مضاف الى اسم مدينة
كان الى جهتها وهي التي يقال لها الان ابو قير وفي الطرف
الآخر بلب نكروبوليس وهذه كلمة يونانية بمعنى المقبرة والشارع
الثاني يشتمها شمالاً وجنوباً وطوله ثلث فرسخ وفي احد طرفيه
باب الشمس على البحيرة وفي الطرف الاخر باب القمر على المينا
وكانت سعة كل من هذين الشارعين مائة قدم وعندها كانت
المعابد والمياكل والمباني الفاخرة والعمارات العظيمة وكانت المدينة
متقسمة لاربعة ارباع اعظمها واھمها الربع الذي كان بين الشارع
الكبير والبحر وكان فيه المدفن الذي كان يسمى صوما وبه اودعت
جثة الاسكندر حين مات فوضعت في تابوت من الذهب ودفنت
فيه ومحل الان تل يعرف بكومر الديماس وكان فيه ايضاً دار
الكتب (الكتبخانة) العظي وبيت الخف ودار الملوك والملعب وكان
هناك قطعتان من الصخر عظيمتان من الاحجار المعروفة بالمسلات
من اقدم الانار المصرية وھا بافتيان الى الان وقد وقعت احداھا
ولم تزل الثانية قائمة بمكانھا ويسميا الناس مسلة كلوبطرة ومسلة
فرعون وفي محل رقعوده القديمة (السيرابيوم) وهو مدفن الحيوانات
التي كانت مقدسة في دينهم وهناك عمود سوير وهو مضاف الى
اسم الملك سوير الروماني الذي وضعه ويعرف عند الافرنج

بعمود بومبيوس وهو قائد روماني مشهور وهذا العمود هو الذي يقال له عندكم عمود السواري ولعل لفظة السواري هذه من لفظة سوير المذكورة

وفي غربي اسكندرية اعني جهة باب العرب والقباري يرى الانسان ابواباً منحوتة في الصخر وهي ابواب قبور ومعابد للنصارى استحدثوها عند ظهور الديانة النصرانية ولما كان موضع الاسكندرية بعيداً عن مجرى النيل ليس به من الماء العذب ما يستطاب الشرب جعل لها خليج يتصل بالنيل ويوصل اليها ماء في اوان ارتفاعه وقد جعل فيها صهاريج واسعة يخزن فيها الماء لوان انحطاط النيل ولم يكن على ساحل بحر الروم مينا اعظم سعة من مينا الاسكندرية فانها تكفي كثيراً من المراكب ويمكن ان يكون فيها مائتان وخمسون سفينة وعند اتصالها بالبحر سلسلة من الصخر تمتد من الشمال الشرقي من عند الصخرة الثائم فوقها المنار المعروف بالنار الى الجنوب الغربي حتى تنتهي الى جزيرة المرباط وهي مغطاة بالماء تضرب فوقها الامواج وفي طول هذه المسافة ثلاثة مداخل تعرف بالبوغازات تمر منها السفن الهاردة والصادرة اولها البوغاز الشرقي وهو منحصر بين صخرتين احدهما الى جهة الشرق وتسمى الجوانية والثانية الى جهة الغرب وتسمى صخرة الحوت وعرضه نحو اربعة الاف متر وعمق مائه نحو ستة امتار وبعده البوغاز المتوسط ثم القلي وكانت هذه المينا في القديم

متصلة بالمينا الشرقية المعروفة بالمينا القديمة وكان بينهما جسر يمتد من رأس التين الى المدينة وكانت السفن تتقل من احداها الى المينا الاخرى من فتحات كانت في ذلك الجسر وقد هجرت الان تلك المينا القديمة وصارت غير صالحة لوقاية السفن والامن عليها فلا يوجد بها الان الا قليل من السفن الصغيرة ويشاهد الفئار السائف ذكره لاهل السفينة في لجة البحر على بعد عشرين ميلاً منه فاذا رآوه احترسوا على سفنهم من ان تقع على الصخور التي عند ساحل البحر ولهذا الغرض جعل هذا الفئار لالدلالة على مدخل المينا كما هو الشأن في غيره من امثاله في سائر الممالك وإنما يكون الدخول الى المينا من البوغازات المذكورة بدلالة جماعة من اهل الاسكندرية يعرفون برؤساء البوغاز يأتي اقدم للسفينة وهي مسافرة فيلزمها بالارشاد والدلالة حتى تخرج الى متسع البحر وكذلك وهي داخله حتى تلقي المراسي وهذه عادة جارية من قديم الزمان لكثرة ما في البوغاز من الاعوجاجات والصخور المعترضة في اثنائها

ولما انشأ الاسكندر هذه المدينة استوطنها وتقل مقر السلطنة اليها وكان قبل بمدينة منف القديمة التي يقال انها اول مدينة عمرت بعد الطوفان وقد خربت وبني عند اطلالها قرية يقال لها ميت رهينة عند مدينة البحيرة ومدينة منف هذه من اشهر المدن القديمة ذكراً واعظمها فخراً وكثيراً ما ذكرت في الكتب الافرنجية

ولم نخلُ ايضاً من ذكرها الكتب العربية

قال الشيخ هي كما ذكرت عظام وشهرةً وقد زعم بعض المؤرخين ان كلمة منف في اللغة القبطية بمعنى ثلاثين وان سبب تسميتها بذلك هو ان بيصرين حام بن نوح عليه السلام خلف ثلاثين نفساً منهم اربعة ذكور وهم مصرام وفارق وماج وياج فتزوجوا وتناسلوا وكثروا وكان مصرام اكبرهم وكانوا قبل بناء منف يسكنون بسفح المقطم فلما بنوها انتقلوا اليها وسكنوها وسميت بهذا الاسم بعددهم كذا زعم ولكي سمعت من بعض من يعرف علم اللسان المصري القديم ان لفظة منف اصلها باللسان المذكور (منفر) وهي مركبة من كلمتين احدهما من ومعناها المحل والثانية (نفر) ومعناها العظيم او الخصب فركب اللفظان تركيباً مزجياً وجعل مجموعها على هذه المدينة وكان يقال لها عند اليونانيين منفيس ثم قيل لها منف وكانت مقر الفراعنة من قديم الزمان فكانت من اعظم المدن المصرية ابهة ورونقاً وسعة حتى قيل انها كان لها سبعون باباً من الحديد والصفرة وكانت الانهار تجري من تحت منازلها واقينتها فيجسسون الماء كيف شاؤوا ويرسلونه كما ارادوا قيل وفي ذلك يقول الله جل ذكره حكاية لقول فرعون (أليس لي ملك مصر وهذه الانهار تجري من تحتي افلا تبصرون

فقال الانكليزي قد بقيت هذه المدينة على ما ذكرت ايها

الاستاذ من عظمها وفخرها وزفعت قدرها حتى انتقل تحت السلطة الى الاسكندرية فهرع الناس اليها وكثرت عمارتها وانحط من قدر منف وعزها وابتهتها بقدر ما زاد في عز الاسكندرية ورونتها واستوطن الروم في مدة الاسكندر مدينته هذه الاسكندرية فكانوا اكثر سكانها اذ كان منهم معظم جنوده وغالب رجاله ثم كثر عددهم في مدة من خلفه من البطالسة حتى دخلوا جميع بلاد مصر ولم تخرج البطالسة في ايامهم عن النهج الذي نهجه لهم الاسكندر من عدم التعرض لاهل البلاد التي دخت تحت طاعنه في شيء من عاداتهم وما هم عليه وكان اول هذه البطالسة بطليموس لاغوس فلما ولي الحكومة بعد الاسكندر سنة ٣٢٤ قبل الميلاد سار في المملكة سيرة حسنة ورتب امورها ترتيباً عاد عليها بعظم الفائدة واستوجب لاهل البلاد ومن عنده من الاغراب مزيد الامن والاطمئنان على ما بأيديهم من الاملاك والاموال مضافاً ذلك الى امنهم على الانفس والاهل والعيال فعمت الامنية وكثرة العمارة والثروة والمدنية وكان بطليموس لاغوس المذكور محباً للعلم واهله محبداً في تعليمه وتعميمه فانشأ في الاسكندرية مدرسة عظيمة شاع صيتها بين العباد فقصدها الناس من اقاصي البلاد وجعل فيها خزانة للتحف جمع اليها ما قدر عليه من النوادر والطرف وانشأ بها دار كتب عظيمة جعل فيها قدراً وافراً من الكتب النفيسة مما جمعه من اكثر المعابد المصرية وما غنمه من

البلاد التي اغار عليها وحاربها فصارت من احسن خزائن
 الكتب واعظمها واشهرها ومن كثرة رعايته للرعية وتمسكه بالعدل
 والانصاف في ايامه ومجانبته للظلم والحيف في احكامه كثرت
 البركة في محصول الارض واتسعت دائرة الزراعة والتجارة
 وكثرة الارزاق والمكاسب ثم لما قضى نخبه وخلفه في الحكومة
 ولده سار سيرته في الرعية فكثرت العمارة والتجارة وصارت
 الاسكندرية مقصداً لجميع التجار يقصدونها من المشرق والمغرب
 فكان يرد اليها التجار من الهند وبلاد المغرب وآسيا وبلاد الصين
 وجزائر البحر المحيط. والبحر الاحمر وسواحل بحر الروم والبحر
 الاسود وغيرها ومنها تنفرق البضائع وتوزع على جميع البلاد في
 معمورة الارض فكانت الاسكندرية في تلك الاوقات منفردة في
 ذلك لا يشاركها فيه غيرها وتقل اليها من الاثار القديمة
 والتحف العظيمة من مصر وغيرها كل غريب وعجيب وجمع لها
 المعلمون والاحبار من جميع الاقطار فصار اهلها قدوة للناس في
 العلم والفخار وصارت مركز التجارة لجميع التجار الا ان من ولي
 الحكومة من البطالسة بعد بطليموس الاول وابنه لم يسيروا
 سيرتها فحدث في ايامهم الظلم والجور والاحجاف والغدر فهاجر
 كثير من الناس من ارض مصر الى غيرها من البلاد فراراً من
 ظلمهم وبغيمهم ووقع باسمهم بينهم ايضاً فاكثروا من سفك دماء
 بعضهم فكانت الاسكندرية في كثير من ايامهم عرضة للهجة والفتنة

وأدى طول نزاعهم ومغالبتهم لبعضهم الى ان التجاء بعضهم الى
الرومانيين فتوسطوا بينهم في امورهم ودخلوا بينهم حتى آل امرهم
الى ان تمكنوا من مصر وطردها منها البطالسة واستولوا عليها
وذلك قبل الميلاد بثلاثين سنة فانزلوها عن درجتها وسلبوها
ثوب نعمتها وجعلوها احدى مدنها و اضافوها مع باقي مملكة
مصر الى متسع ملكهم فاخذ قطر مصر من ذلك الوقت في
الانحطاط عما كان عليه من درجات العز والفخر وصاروا يخفرون
اهلها ويؤخزونهم ويقدمون غيرهم عليهم ولا ينظرون بعين العناية
والرعاية اليهم فنشأ من ذلك فتن كثيرة ادت الى حروب
متتابعة سفك فيها دماء كثير من العباد وخرب بسببها اكثر
البلاد حتى امتدت يد التعدي الى دار كتبها العظيمة فانلفت
معظم كتبها ودرست شهرت مدرستها التي كانت وحيدة المدارس
في تلك الايام واخذ العلم في التقهقر خصوصاً عند انقسام مملكة
الرومانيين الى مملكتين شرقية وغربية وكان تحت المملكة الشرقية
استانبول وتحت المملكة الغربية روما وصارت مصر في هذه القسمة
تابعة لمملكة المشرق وذلك في حدود ثلاثمائة واربعة وستين بعد
الميلاد وفي ذلك الوقت كانت درجة مدينة الاسكندرية في التجارة
والعمارة تلي درجة رومة التي هي تحت المملكة الغربية من الملكين
الرومانيين وفي هذا العصر اخذت الديانة العيسوية في الظهور
وتصدي نشرها قياصرة الروم وقومهم ولكون هذه الديانة ظهرت

بقرب ارض مصر دخلتها من غير معارض ولا مانع فنشاء بها عدة كنائس وديور وظهر بها عدة من البطارقة والاساقفة المشهورين وجعلوها محلاً لجميع اعمال الدينية ومظهراً لاقوالم الخلافة فقامت بينهم نار الشقاق وانقطعت باختلافهم حبال الوفاق ودخلت المحكام بينهم في تلك الامور ولم يكن في العادة من شأنهم الدخول في مثلها وترتب على الاختلال وفساد الاحوال ان غنمت هذه الفرصة الملكة زنوبية المتسلطنة وقتئذٍ على مملكة تدمر التي كانت مقر سليمان عليه السلام في قديم الايام وهي في صحاري الشام فاغارت هذه الملكة على مصر بمجنودها واستولت على سرير الاسكندرية وذلك قبل الهجرة بنحو خمسين وثلاثمائة سنة ولكن لم تلبث قليلاً ان طردت منها ثم امدتها مملكة تدمر بالعساكر والذخائر فارادت الرجوع الى مصر لاختذاها ثاني مرة وكان ذلك في زمن القيصر ادرينانوس فسار اليها من رومة فكسرها واسرها وبقيت مصر في قبضة الرومانيين كما كانت وفي مدة هذا القيصر حصل في مصر بعض اصلاح لامورها وتنظيم لاحوالها ولكن لم تلبث ان جر اليها طمع من ولوا من قبل القياصرة عليها بعض مصائب عظيمة وخطوب جسيمة اضررت بمصر واهلها ولا سيما اسكندرية فانها عادت بكثير المضرة عليها وعلى من فيها واخذت بتجاريتها فاعتراها من هذه التقلبات الضعف العام وزال عنها رونقها فهاجر منها الى الروم كثير من كانت تفخر بهم من اهل العلم والثروة ولكن

بقي بها بقايا منهم كبطليموس الفلكي الشهير وديوكانت وسورانوس
وغليان فحفظوا ما بقي عن الاوائل من آثار العلم والفنون ولولاهم
ما عثر المتأخرون بشيء من آثار المتقدمين وامتدت هذه الاحوال
مدة مائتين وسبعين سنة لم تزد فيها الاسكندرية الا تفهقراً وتاخراً
ومع كل هذا كانت مملكة الروم الشرقية الملتحمة بها الاسكندرية
احسن حالاً من المملكة الغربية فان شدة الجور والظلم والفجور
والفسوة في المملكة الغربية المذكورة كانت اكثر وادهى وامر
ولذلك قام اهل تلك الجهة على ملوكهم مراراً وما من مرة منها الا
صرفت فيها المملكة اموالاً عظيمة وسفكت فيها دماء كثيرة من
غيران يحصل من ذلك كله ادنى فائدة بل كان عاقبة كل مرة
منها زيادة ضعف الاهلين واضمحلالهم وسوء احوالهم وفي تلك
المدة كثرت المنافسات الدينية واتسع الخلاف بين اهل الديانة
النصرانية وكثرت الدورات بجبهات الاسكندرية وما جاورها وانقطع
بها كثير من المترهبين الذين هاجروا الى مصر فراراً من جور
حكام البلاد الاخرى لكنهم لبغضهم لدين من تقدم من المصريين
هدموا مبانيهم القديمة وهياكلهم الجسيمة وخرّبوا الكثير من البلاد
وهدروا دم من كان بها من العباد حتى اتناو نسبنا ما فعله ملك
العجم وخلفاؤه بمصر واهلها لم يبلغ معشار ما فعله النصارى بها
وبهذه الافعال الشنيعة تغيرت احوال الامة وتحولت عن بعض
عاداتها وطباعها ومعتقداتها وكرهت الروم والرومانيين وتمنت

انقضاء حكومتهم وزوال نعمتهم واستمر الحال على ذلك الى سنة ٦٤٢ من الميلاد وهي سنة ٢٢ من الهجرة فجاءت جيوش امير المؤمنين عمر بن الخطاب يقودها عمرو بن العاص فحاصر الاسكندرية اربعة عشر شهراً ثم افتتحها ودخلها بمن معه من العسكر وضرب على اهلها الجزية فرحل عنها كثير من الاغراب الى بلادهم وانتقل بعضهم الى مدينة مصر التي اتخذها المسلمون قاعدة المملكة وعاصمة البلاد وسموها الفسطاط وهي في موضع بابلون القديمة ومن اثارها التلال الكثيرة الموجودة الى الان بين العيون وباب السيدة وسور القاهرة فكان كلما اخذت مدينة الفسطاط في الشهرة اخذت مدينة الاسكندرية في الخمول والاتضاع وصارت تلتاشى تجارتها ويفارقها اهلها ويضعل حالها بعد ان كانت اعظم مدينة في هذه الديار ومركز التجارة جميع الاقطار ثم صارت كل سنة تناخر وتتهقر واستمرت على ذلك قروناً عديدة ومدداً مديدة فلما كانت سنة ١١٦٧ من الميلاد وهي سنة ٥٦٣ من الهجرة هجم عليها الفرنسييس واستولوا عليها ودخلوها ولكنهم لم يلبثوا بها الا زمناً قليلاً ونهض لاستخلاصها من ايديهم الملك الناصر صلاح الدين فاخلاها منهم واجلاهم عنها واستردها الى الاسلام سنة ٥٦٤ كما كانت

وفي سنة ٥٩٩ من الهجرة استولى عليها الجنويون وفي مدتهم حصل بعض رواج في التجارة وتقدم في العمارة وصارت تتوارد

عليها الاغراب وتسكنها التحارث ثم تخلصت منهم ووقعت في يد ملك
فرس سنة ٦٤٨ من الهجرة حين كان الملك لويز التاسع اسيراً
بمصر وكان يتكلم مع سلطانها في تعيين ما يفدي به نفسه من
الاسر ويقال ان ملك فرس لما استولى عليها هدم مبانيها وسلب
اموالها ثم لم تقم من هذه الورطة حتى وقعت في ادهى منها واعظم
فان الفرنسيين اغاروا عليها في سنة ١٢٦٧ من الميلاد وهي سنة
٧٦٩ من الهجرة ثم خرجت من ايديهم ولكنها لم تخرج من سوء الحال
ونكد الدنيا وحوادث الدهر فانها كانت عرضة لظلم المالك
الذين كانوا حاكمين في مصر

فقال الشيخ ان كل ما حصل فيها من التقلبات الكثيرة
والاحوال العسيرة لا يصل الى ما اصابها في مدة المالك الذين
استولوا على الحكومة بعد انتضاء دولة الفاطميين ودولة صلاح الدين
وذريته فان بعض من ولي السلطنة من اعتاقبه اتخذوا منهم خدماً
وعسكراً وجعلوا منهم معظم رجالهم فكانوا يقدمونهم على غيرهم من
المستحقين حتى استخذوا على رتب عالية ومناصب جليلة ليسوا لها
باهل فمن شدة غيهم وسوء بغيهم داخلهم الطمع في ملك ساداتهم
فزاحوهم في حكومتهم واحتقروهم واخرجوهم عن سلطنة اجدادهم
واغضبوا لانفسهم فتأسست سلطنتهم وامتدت زماناً كثير فيها
الظلم والجور والفساد فكانت مصر في ايامهم كسفينة في طوفان
او جيش احاط به العدو من كل مكان وانقطع ذكر الاسكندرية

وشهرتها وتناقصت كثيراً عمارتها ولكنها لم تنقطع بالكلية تجارتها فكان يأتي من البلاد الافرنجية بعض بضائع إلا أنها كانت قليلة لعدم اعتناء الحكام بما يوجب الامن على التجارة وانضم الى ذلك ما ضرب عليها من المكوس والمجمارك على غير قاعدة مضبوطة ولا قانون منتظم فلم يزل يتناقص الوارد من البلاد الافرنجية ببحر الروم وهكذا كان الوارد من جهة البحر الاحمر يتناقص حتى يتنازل الى قدر يسير ولكنها مع كل ما ذكر كانت حين دخلها عبد اللطيف البغدادي المؤرخ الشهير في سنة ٧٨٥ من الهجرة قد بقيت فيها بقية ولم تضحل بالمرءة فرأى بها ما حكاها من اثار العمارات ووجد اهلها مشغولين بالاخذ والاعطاء والتجارة

وهذه كانت حالها حين استولى عليها السلطان سليم سنة ٩٢٢ من الهجرة ثم اخذت بعد ذلك تفقد بقايا ما كان لها من الصيت والشهرة والتجارة والعمارة بما كان يتوالى عليها من ظلم المالك واتباعهم واشياعهم فكانت تجارتها وعمارتها كل يوم تنقص عما قبله ولم تنزل تنقهر واحوالها تتغير الى ان جعلت كالسجن لمن يغضب عليهم الباشا بمدينة القاهرة ويرسلهم اليها

ثم اغار عليها نابليون بونابارت بمجنود الفرنسية سنة ١٢١٢ من الهجرة فدخلوها واستولوا عليها ولكنهم لم تطلب بها مدتهم فخرجت من يدهم ولكنها عادت لما كانت عليه من الظلم والشر وفساد الاحوال حتى اخذل امرها وضجر اهلها لكثرة تعدي حكامها

عليهم وظلمهم لم يتركوا اسباب الكسب والثروة والتقدم واعرضوا
عن العلوم والفنون فكثرت الخراب بمصر واعمالها وهاجر منها من
تخلص من ايديهم من اهلها ووقعت العداوة والبغضاء بين هؤلاء
المحكّام ايضاً كما وقعت بين الاهالي وبينهم وكثرت ما بينهم الفتن
والمحن والشور وكثرت قتلهم لبعضهم وعاد ذلك بزيادة الخراب
للبلاد والضرر لاهلها فما كان يرى السائر بها الا ما يسؤه ويجزئه
من سوء اثارهم وقبيح اطوارهم فكمن من اشر قديم اعدموه وقصر مشيد
هدموه وارض صالحة افسدوها وبلدة عامرة اصحبت خراباً وكانت
حارات القاهرة في ايامهم ميادين لقتلهم وقتالهم وصدور الاهالي
اغراضاً لنبلهم فعظم الشر واشتد الامر ولم يزل الحال على هذا
الموتوال الى ان قبض الله لهذه البلاد دولة افندينا الاكبر محمد علي
المرحوم اول هذه الدولة الخديوية فشرع عن ساعد الجهد والاهتمام في
عمارة ما خرب منها واعادة ما نزع من العلم والمعرفة عنها واخذت
الاسكندرية من ذلك قسطها كغيرها من البلاد فحسن اسرها وكثر
سكانها وزادت تجارتها زيادة عظيمة بعد ان كانت تلاشت
واضعلت فان التجارة ايضاً يعتريها ما يعتري السياسة والادارة
والعمارة من التقل والتبدل والتحول

فقال الانكليزي نعم هذا صحيح لا مرأى فيه فكل الناس الان
يشهدون لمحمد علي المرحوم بما ابداه من الهم العالية في اعادته
لمصر ما كانت فقدته قبيل ايامه من حركة التجارة فانها قبله كانت

كما ذكرتم قد اضمحلت تجارتها وتلاشت بالكلية وكادت تكون كما كانت عليه في الاعصار العتيقة المتقدمة العهد فانها في اوائل الزمان كانت تجارتها داخلية منحصرة بين اهلها لا حظ فيها للاجانب فكانت مسدودة عليهم لا يدخلونها بشي من التجارة واول فتح ابوابها لتعاطي التجارة الخارجية ودخول تجار الاجانب ومعاملتهم كان في عهد فرعونها المسمى ايسامايנקوس فانه اول من رخص للاغراب في دخول مصر والاختلاط باهلها وذلك قبل الميلاد بستمئة وست وخمسين سنة وكانوا من قبل لا يؤذن لهم بدخولها فلما فتح بابها للاجانب اخذوا يتواردون من كل جهة عليها وينسلون من كل حذب اليها فانتسعت بها دائرة التجارة وازدادت اسباب الثروة وكانت الامة الكنعانية هي المتسلطة على التجارة في تلك الحقبة كما هو شان الانكليز الان وبقي الامر على ذلك الى دخول الفرس مصر فدخل معهم الفقر والقلة وزال الامن لشدة الظلم والجور فاخذت التجارة في الانحطاط والتقهقر ولم تزل كذلك الى وقت البطالسة ففتحوا لها طرقاً جديدة وروابط متينة فانتسعت اتساعاً عظيماً امتدت شهرته في افاق البلاد فهرعت لها الناس من كل واد وصارت مينا الاسكندرية مركزاً عظيماً للتجارة يرد اليه فمحصول الجهات القريبة والبعيدة من كل جانب فزادت عمارتها بهذا السبب وكثر سكانها حتى بلغ عدد اهلها نحو ثلثائة الف نسمة ولا مبالغة في ذلك فقد نقل انه كان فيها حين افتتاحها

المسلمون اربعة الاف من الحمامات ونحو اثني عشر الف نفس من باعة الخضراوات ولم تزل يزداد حسن حالها وتثقل في درجات الثروة واليسار والعز والفخار الى سنة ١٤٩٢ من الميلاد وهي سنة ٩٠٢ من الهجرة

وفي التاريخ المذكور عرف الناس طريق راس العشم الصالح فسلكته السفن التجارية الى الهند بعد ان كانت تمر من مصر فاخذت التجارة بعد ذلك تتناقص في الاسكندرية وتناخر وصارت احوالها تتغير وتنتهر الى ان جاءت دولة محمد علي الاكبر فصارت تتراجع اليها التجارة وتزداد وتكثر وذلك بما حصل في مدته ومدة من خلفه من عائلته على الحكومة من تسهيل النقل وتأمين الطرق واستمالة قلوب الاجانب فاتسعت بها موارد الثروة واليسار وقصدتها التجار من جميع الاقطار فازدادت التجارة والعامة بها ازدياداً عظيماً وبلغت مبلغاً جسيماً حتى بلغ عدد سكانها الان نحو مائتي الف نفس فيهم نحو اربعين الفا من الافرنج وكان عدد سكانها حين استولى عليها نحو ثمانية الاف نفس

وقد بلغت قيمة الوارد والصادر من البضائع في ميناء الاسكندرية سنة ١٢٧٢ من الهجرة نحو ستة ملايين وسبع مائة وعشرين الف جنيه ومعظم ذلك مع الانكليز فان اكثر التجارة في مصر الان بيدهم وكانت قبلهم مع الجنويين في مدة المماليك وقبل ذلك مع الكنعانيين كما مر ذكره

ومما اوجب كثرة التجارة بمصر وازدياد المنافع لاهلها الاكثار فيها من زراعة القطن وقصب السكر ونحوهما وما وضع فيها من القوانين المفيدة والترتيبات السديدة وما حصل من ترتيب المعاملة وعلائق التجارة بين المصريين وغيرهم من الامم الاجنبية بما اوجب كثرة ورود الاجانب على ارض مصر للتجارة حتى وصلت الى ما وصلت اليه بحيث اذا وقف احد بساحل مينا الاسكندرية تاكد له ذلك بما يراه على السفن الراسية فيها من كثرة الاعلام المتنوعة للامم المختلفة ومما يدل على حالة التجارة بمصر في هذه الايام المحاضرة الاطلاع على مقدار ما يباع بها في السنة من اصناف البضاعة ففي سنة ١٨٥٤ للميلاد و ١٢٧١ للهجرة كان مقدار ما بيع فيها من صنف القطن خاصة اربعمائة وثمانية وسبعين الف قنطار بيعت بتسعة عشر مليوناً من الفرنكات ولكثرة الرغبة في تجارته لما فيه من زيادة الربح زاد المقدار بعد ذلك فبلغ في سنة ١٢٧٢ للهجرة مقدار ما بيع منه خمسمائة وتسعة وعشرين الف قنطار بثلاثة وعشرين مليوناً وخمسمائة الف من الفرنكات وثن ما ورد الى مصر من الاقمشة في تلك السنة من بلاد الانكليز خاصة نحو سبعة عشر مليوناً وخمسمائة الف من الفرنكات سوى ما ورد من سائر الجهات وكان مقدار السفن الواردة الى مينا الاسكندرية والصادرة عنها نحو اربعة الاف واربعمائة واربع وستين سفينة نحو ربعها

من سفن الانكليز والباقي من سفن غيرهم ولا شك ان كثرة
مقدار هذه السفن يدل على كثرة حركة التجارة

المعامرة الخامسة والثلاثون

كتاب علم الدين

قال ناقل الحديث فلما وصلا الى هذا الموضع من القول
كان قد انصرم جزء من الليل وطاب المنام فانتقطع الكلام
واستأذن الاكليري للقيام وانصرف الى حجته فقام الشيخ وتوضاء
وصلى ما عليه سنة وفرضا وشرع بحرر خطاباً لزوجته واهل بيته
هذه صورته بعد العنوان والسلام

اما بعد فقد قطعنا للحج البحر الاسكندري بحمد الله تعالى في
مدة خمسة ايام قضيناها في صحة ورفاهية وراحة ولم يشغلنا عن
ذكر الله شاغل بل شاهدنا فيها ما يدل على عظيم سلطانه فكنا
اناء الليل واطراف النهار نتضرع اليه وتامل في عجائب مخلوقاته

الدالة عليه ولم نر في اثناء السفر الا ما يسرنا ويصفويه سرنا وقد حصل لنا في السفينة من الاكرام شي زائد على المرام كل ذلك من فضل الله علينا ولطفه بنا واحسانه الينا واما ما كان من صاحبنا الانكليزي ولطفه فلا يستطيع القلم استيفاء وصفه وفي الجملة لم يكن منه الا ما يسر الخاطر ويقر الناظر وقد انقضت ايام السفر ونحن في سرور وانشراح وكأنها كانت بيننا ايام افراح وقد وصلنا نغر مرسليليا وهي اول مدينة لفرنسا وهي بالنسبة للاسكندرية واقعة في الساحل الغربي من البحر المتوسط (بحر الروم) فاقمنا بها يومين وعن قريب نرحل عنها قاصدين مدينة باريس تفت مملكتهم ومقر سلطنتهم وكان حصل لي امر بعض توعك خفيف وزال وعادت الصحة بمحمد الله الى احسن حال وقد طفت مع صاحبنا ونجلنا في البلد فراينا مبانيها القديمة كمصر واحسن منها ما استجد ورايناها مراسي عظيمة يحف بها ارضفة جسيمة فاعجبنى حسن احكامها ومزيد انتظامها ودهشت من كثرة سفن التجارة فيها واخلاف السنة ملاحيا ففهم من العرب والعجم وغيرهم من جميع الامم ومن كثرة السفن ميناها وانصامها لبعضها لا يكاد يرى الماء من خلالها واعجب من ذلك انهم لا يحتاجون في اخراج البضائع من السفن الكبيرة الى زوارق كالتي رايتها بالاسكندرية بل يقربون السفينة الى الرصيف حتى تتصل به بمجلفات مثبتة فيه رباطا محكما ويرفعون منها البضائع كما في مصر بواسطة

عيارات عظيمة ترفع بها الانتقال على غاية من السرعة والسهولة
 فلا يمضي على اكبر سفينة بعض دقائق او درجات الا وقد صار
 جميع ما بها على البر وقد اخبرني الانكليزي ان مساحة هذه المينا
 على وجه التقدير مائة وسبعة وعشرون فدانا من فدادين مصر
 وان نصف هذا القدر للمينا القديمة ونصفه للمينا الجديدة وان محيط
 الارصفة سبعة الاف متر وثمانمائة وخمسة عشر متراً وان التجارة
 تشغل منها نحو اربعة الاف وثمانمائة متر وهناك مينا ثلاثة أحدثت
 منذ عهد قريب سعتها قدر مجموع الاثنين وطول رصيفها ثلاثة
 الاف متر واربعائة وتسعون متراً فتكون سعة المينات الثلاث
 بمرسيليا نحو مائتين وخمسين فدانا تقريباً ورايت لهم لطيفة عند
 ارادة ارساء السفينة ذلك انها اذا قربت من البر يدخلونها في
 خليج يؤمن به عليها من تأثير الرياح عليها واصطدام السفن
 ببعضها وقد وضعوا للسفن في طريقها اربع منارات تهتدي بها وهي
 عبارة عن مبانٍ عالية في راس كل واحد منها فانويس عظيم
 يضيء في الليل وفي اسكندرية ايضاً منارة تعرف هناك بالفتار
 وقد عرفت ان احدى هذه المنارات الاربع وهي اكبرها يظهر نورها
 على بعد عشرين ميلاً من المينا وارتفاعها اربعون متراً وارتفاع
 الثانية خمسة وعشرون والثالثة اثني عشر والرابعة تسعة وهذه
 ترى على بعد تسعة اميال من المينا ورايت على الارصفة مخازن
 اخبرني صاحبنا انها قد بناها باذن الحكومة جماعة من مشاهير

القوم واغنيائهم اجتمعوا وعقدوا بينهم جمعية اشتراك على راس مال
قرروه للصرف على انشائها يدفع منه في كل سنة جزء على التدرج
الى اتمام تسع وتسعين سنة

واخبرت ان معظم اعمالهم الجسيمة تعمل بهذه الكيفية وان
اصل مال الشركة المذكورة عشرون مليوناً من الفرنكات تعدل
(٨٠٠.٠٠٠) جنيه انكليزي من النقود المصرية وانهم قسموا
ذلك المبلغ على اربعين الف سهم فخص كل سهم خمسمائة فرنك
وكذلك رأيت بمرسلياً معامل لاصناف متعددة كعامل الصابون
وتكرير السكر وطرق الحديد ودباغة الجلود وعمل الشمع واستخراج
النبيذ والزيت وقد ترتب على وجود هذه المعامل بعض معامل
اقل منها اهمية الا انها تابعة لها مثل معامل الصور الصناعية
اللازمة لعمل الصابون ونحو ذلك

وقد اخبرني صاحبنا ان عمل الصابون لم يحدث بهذه
المدينة الا في القرن السادس عشر من الميلاد الموافق للقرن
الحادي عشر من الهجرة وانه كان ياتي اليهم قبل ذلك من مدينة
يقال لها جنوا وفي سنة ١٧٨٩ من الميلاد وهي سنة ١٢٠٤ من
الهجرة بلغ الحاصل منه نحو مائتين وخمسة وعشرين الف قنطار
وقد بلغ الان نحو ثلاثة امثال هذا المقدار بسبب استعمال زيت
الابذار واكثر ما يصنع منه يستهلك في ارض فرنسا وقريب من
سدسه يرسل الى الخارج وعدد المعامل الموجودة الان لعمله نحو

خمسـة واربعين فيها نحو خمسمائة من العمال واما معامل تكرير السكر فخمسة وقد بلغ ما دخل مرسيليا من السكر الخام في سنة الف وثمانمئة وثلاث واربعين للميلاد وهي سنة ١٢٥٩ للهجرة نحو ستة وعشرين الف اوقية مصرية ثم زاد بازدياد التقدم في التمدن والرفاهية فباع ما يرد لها الان منه نحو خمسة وخمسين مليوناً

واما معامل الحديد فكان لا يوجد منها بمرسيليا قبل الان بنحو عشرين سنة الا معملان لسبك الحديد خاصة والان فيها معامل متعددة منها ما هو لازاته ومنها ما هو لعمل آلات الواورات البرية والبحرية وغير ذلك وفي هذه المعامل من العمال نحو الفين وخمسمائة والمنحصل منها يومياً نحو الف (نتو) وبها ايضاً معامل متعددة لعمل الرصاص وسكبه في اشكال مختلفة وكذا معامل النحاس والقصدير ويوجد بها من معامل الشمع ثلاثة عشر منها لعمل الشمع المعروف بمن السمك ثلاثة فيها مائتان وخمسون عاملاً ولعمل شمع الدهن عشرة فيها خمسمائة عامل

واما معامل الدباغة فقد ذكر لي ان عددها الان قل عما كان سابقاً وانها كانت في سنة ١٨٤٨ للميلاد اعني سنة ١٢٦٥ من الهجرة نحو الخمسين منها لدبغ الجلود الكبيرة اربعة عشر ولدبغ الجلود الصغيرة ستة وثلاثون وكان في كلا النوعين نحو الف وسبعين عاملاً واما الان فهي اربعة عشر معملًاً منها لدبغ الجلود الكبيرة تسعة ولدبغ الجلود الصغيرة خمسة وكذلك ذكر لي ان بها

من الطواحين ثلاثة واربعين خمسة منها تدور بالهواء والباقي منه ما يدور بالنجار ومنه ما يدور بالماء وبها نحو سبعمائة من العمال وفي هذه المدينة ايضاً سبعة معامل لعمل (الالوميت) وهي كلمة فرنساوية جعلت على ذلك الكبريت الذي يقال له في مصر كبريت بلا نار وفيها سبعة معامل لعمل الصوفان واثنتان وسبعون محلاً لعمل الحلي بأنواعه وبها غير ذلك كثير من المعامل كمعامل المشروبات بأنواعها والحلويات باشكالتها والمخللات باجاسها حتى ان بها معامل مختصة بما يرسل الى الجهات البعيدة من المواد القابلة للتعفن من الاطعمة كأنواع السمك واللحم والفاكهة فيحفظونها في ظروف محكمة بطرق مخصوصة تمنع عنها التلف والتعفن مدداً طويلة فلا يعتريها شيء من ذلك

وكذا معامل الفخار والطوب والخرز وغير ذلك مما يضيق عنه النطاق ولا تسعه الاوراق وما دعاني الى هذا التطويل والاكثار الا علمي برغبتك في الوقوف على ما شاهدناه لتلقيه بجاشية الكتاب الموسوم بغرائب الاخبار وعجائب الامصار ولا احب ان اطيل عليك بتفصيل ما هنا من محدثات البدع والفخور وما ارتكبه على خلاف امر الله سبحانه من مذموم الامور ولكن اذكر لك بعضه عموماً ليكون لما لم اذكره قانوناً وميزاناً وهو اني لم اسع احداً من جميع سكان هذه البقعة يذكر اسم الله تعالى بل اراهم في جميع نهارهم لا يتكلمون ولا يشتغلون الا بامورهم

الديوية وفي الليل لا يأوون إلا الى محلات الملاهي ومن الغريب
انهم مع اعتنائهم بنظافة ملابسهم وتزيين ظواهرهم لا يستعمل احد
منهم الماء في ازالة فضلاته ولا يستجمر ولا يغسل يده بعد الأكل
ومن عاداتهم انهم لا يلتزمون ابقاء لحامهم على حالة واحدة
فربما ارى الواحد منهم ذاحية طويلة عريضة ثم اراه قصرها كثيراً
او حلقها رأساً فلم يبق إلا شاربيه وتارة يبقى الشارب والعنفة وما
حاذها ويحلق ما عداها وتارة يحلق ما حاذى العنفة ويرسل ما
عدا ذلك حتى يكون قريباً من الصدر وتارة لا يبقى إلا شعر
العارضين وتارة يجعلها على شكل عريض من اصله ضيق من
نهايتها ومنهم من يتركها حتى تطول طويلاً مفرطاً ومنهم من يحلق
شعره بتمامه حتى يصير كالامرد واما ما يضعونه على رؤوسهم مما
يعرف عندنا بالبرنيطة فشيء يطول شرحه وقد نظرت بعضه في
مصر وله هنا انواع كثيرة فتارة يكون طويلاً مرتفعاً نحو نصف
ذراع وتارة يكون قليل الارتفاع وتارة يكون ضيقاً من اعلاه واسعاً
من اسفله نازلاً قريباً من الجبهة الى غير ذلك ومن عادات هذه
الجمهات ان نساءها يالفن الكلاب كثيراً ويستتبعنها حيث سرن
وتكون معهن حيث كن فهي لهن من اعز الاصحاب والاحباب
حتى ان الانسان في محلات الفسحة يرى في الجمعية كثيراً من
الكلاب وتحفل النساء بهذه الكلاب حباً منهن ويحفل بها
الرجال تقريباً اليهن واكراماً لهن لما يعلمونه من منزلتها عندهن

فحب المرأة منهم لصحبها ربما يعدل حبها اولدها فتجعلها جلسها
 وضجيعها وانسها ينام ويقوم معها لا تفارقه وتقبله فيه وتعانقه
 وانواع هذه الكلاب عندهم كثيرة منها ما هو قدر القط فأقل
 ومنها ما هو اكبر ومنها ما شعره طويل يقولون انه متولد بين الشياه
 والكلاب ومنها ما ابوه ذئب وغير ذلك وهناك نوع تقتنيه الرجال
 وتألفه يقولون انه يأتي اليهم من الارض الجديدة المسماة بالامريكا
 ولكن لا باس بهذا النوع لان فيه على ما يقال مزية عظيمة وهي
 اهتدائه لخراج الغريق من قاع البحر يقولون انه يشم رائحة الغريق
 فيغوص في الماء حتى يخرج به الى البر وقد رأيت رجلاً اعنى يسبحه
 كلب في رقبته مرجونة صغيرة فاذا رأى انساناً ترك صاحبه
 وذهب يستعطي له صدقة وقد صادفنا في مرورنا وحين رأنا ترك
 صاحبه واتانا فوقف امامنا وجعل يبصص بذنبه وينظر الينا
 ويحرك راسه كحالة غيره من الكلاب حين يرى من يأكل شيئاً
 فيقوم بين يديه طامعاً في ان يلقي اليه شيئاً ما يأكله ففهمنا الغرض
 ووضعنا له بعض دراهم في المرجونة التي في عنقه فذهب الى صاحبه
 وحرك يده فاخذها من المرجونة وكذلك رايت بمنزل قريب من
 منزلنا امرأة اشارت لكلب من الشباك فصعد اليها فاعطته دراهم
 فاخذها منها ونزل واعطاها لصاحبه والامور التي شاهدناها هنا
 كثيرة بطول سردها وتعدادها وقد قيدتها في اوراق عندي
 اتلوها عليك عند عودنا ان شاء الله تعالى وقد ذكرت ما ذكرت

انمودجا لما ادخرت وارجوان تبليغي سلامي لحضرة اخيك
ولحضرات من يسال عنا من المشايخ اخواتنا وقبلي لي الاولاد
والاخوات وارجومنك اتصال المكاتبة في كل بوسطة لاجل
الاطمئنان عليك وعلى كل من لديك ولا مشقة عليك في ذلك
اذ ما عليك الا تسليم خطابك لمن تستلمين منه خطايي او ارساله
مع الخادمة الى محل وكيل صاحبنا الانكليزي

المسامرة السادسة والثلاثون

الارق والصلاة

ثم ختم الخطاب ووضعه في ظرفه وقرأ على حسب العادة ما
تيسر من القرآن العظيم وتلا اوراده ثم اضطجع في سريره فلم يغمض
جفنه بنوم وذهب فكره نحو وطنه ومقر اهله وسكنه وتذكر الاحبة
والاولاد وما هو فيه من الغربة وبعد البلاد فضاع بتلك الخواطر
لذيذ نومه واشتغل قلبه باحوال اهله وقومه فقام من فراشه مكتئباً

حزينا وصار يتردد في حجرته شمالاً ويمينا وبقي على هذه الحال من
 الارق وهجم عليه جيش الخواطر والقلق ولما لم يجد للنوم طريقاً
 وصار في بحر افكاره غريقاً عمد الى شباك حجرته ففتح عساه يتسلى
 بروية المارة في الطرق وصار ينظر منه وينصت بسمعه ولكن كان
 انتضى جزء عظيم من الليل وانقطع المرور من الطرق ودخل
 كل احد مضجعه فلم يجد احداً يمر من الطريق الا القليل النادر
 وكانت تلك الليلة من اخر الشهر فلم تكن من ليالي القمر بل كانت
 سوداء الاهداب حالكة الجلباب قد ارخت على المدينة ذيول
 ظلماتها وغطت على جميع اطرافها وانحاءها ثم نظر الى السماء فلم ير
 الا الكواكب وكأنها تبعث اليه مع اشعتها سلام الحبايب وكأن
 النسيم يلاطفه ويسليه برقته ويذكره بليال مرت له مع احبته وايام
 نقضت باهل مودته فصار يستحمل النسيم اليم السلام ويجعله
 واسطة بينه وبينهم في الكلام فلما لم يسمع من يحبه زاد انينه ونحيبه
 ورفع للسماء اكف الدعاء وقال اللهم يا من تنزه عن المكان وابدع
 بقدرته عوالم الامكان الهى انت الذي رفعت السماوات وزينتها
 بنجوم تجري في بحار الظلمات فدهشت من نورها ابصارنا وتحيرت
 في ادراك حقيقتها افكارنا انت اعلم بحالي ونهاية امالي الهى انت
 الذي حولني من وطني وصيرتني بين اهل هذه الديار بعيداً عن
 سكي فلك الحمد على ما قدرت ولك الشكر على ما اردت اعوذ
 بك من زوال النعم وموجبات النقم انك على كل شي قدير الهى

اوزعني طرق الاستقامة واعذني من اسباب الخسران والتدامة الهلي
 يسر لي العود الى اهلي وعشيرتي ولا تمتني في غربتي واذا قدرت
 عليّ الاقامة في هذه البلاد فالهمني الصبر على ما قدرت والرضى
 بما قضيت وثبتني على ديني وقوّ في رجائك يقيني واجعلني وولدي
 واهلي ومن يلود بي في عيادك وجوارك وامنك وحفظك واحفظني
 من شياطين هذه البلاد واعني بفضلك على مناقشات اهل
 الضلال والفساد ولا تنزع قلبي وثبت عقيدتي حتى لا يكون لهجهم
 على عقلي سبيل ولا لظواهر ما ارى من الزخارف على قلبي تأثير
 واجعل عظمتك ملء قلوبنا ونور هدايتك جلاء عيوننا حتى لا
 نسمع الاّ ذكرك ولا نتمثل الاّ نهيك وامرك واهدنا الى صراطك
 المستقيم وثبتنا على دينك القويم بجاه نبيك الاعظم سيدنا محمد صلى
 الله عليه وسلم وبحق من اصطفته من عبادك الصالحين واصفيائك
 الطيبين الطاهرين (ثم شرع في ورد الاستغفار وصار يكرره الى
 الاسحار حتى ختمه بقوله) اللهم امرن روعاتنا واستر عوراتنا
 واهب غيظ قلوبنا وجبنا وساوس الشيطان واعذنا منه يا رحمن
 حتى لا يكون له على قلوبنا سلطان وادخلنا كف رحمتك حتى
 نفوز بنعيم جنتك ثم تزل بغطائه فنام وهو يكرر اخر البقرة واول
 سورة الانعام فحين اصبح قام يشكر نعم ربه لديه مؤدياً ما فرض
 عليه وندب اليه ثم جلس الى الاسفار بين ذكر واستغفار فعند
 ذلك دعا ولده برهان الدين فحضر وعلى اثره اتى الانكليزي

فجلسوا يتحدثون وتناولوا ما تبصر من الطعام وحكى الشيخ ما
اصابه في ليلته من الارق والقلق

المسامرة السابعة والثلاثون السكر

فقال الانكليزي ان استحسنتم قم بنا تمشي في البلدة ونطوف
في طرقاتها برهة ليزول الكسل والملل وينشط الخاطر وترتاح
النفس فوافقه الشيخ على ذلك وقاموا فطافوا في شوارع المدينة
يحمون خلال ديارها متاملين في محاسن الابنية وانتظام الطرقات
واحوال الامة حتى عدل بهم السير الى بعض المحلات المعدة
للاستراحة وانواع الملاهي والاشربة وغير ذلك فعزموا على الاستراحة
هناك ساعة فلما اخذوا مجلسهم وهدأت بهم راحتهم وشمل عيائهم
ما يحضرهم من الخلق المتخلفة حول دوائر الممر وعليها الاشربة
الملونة بالالوان المختلفة في الوان المصنوعة على الاشكال الغريبة

وللناس غوغاءً واصوات منكرة كما هو شان اهل المنادمة والمقامة
قال الشيخ عجبت من انهاك اهل هذه البلاد في استعمال هذه
الاشربة وما يتبعها من الملاهي والملاعب وتأثم في انواعها واوانبها
وقد نشاء من ذلك افناء كثير من الاموال وشغل معظم الاوقات
فيما يعود على الابدان بالمضار وعلى العقول بالاخلال وعلى الاعراض
بالاهال حتى ان ذلك كثيراً ما يكون سبباً لاتلاف النفس
والخروج من الشرف والعزة ولذة الحياة الى الخسة والذل والم
العيش مع ما هم عليه من توجه الافكار وانبعاث الغرائم من
رجالهم ونسائهم واطفالهم الى ما يعود على وطنهم وسكان ارضهم
والمحمنين بهم بالشرف الاكبر والمحظ الاوفر والافقة التامة والرئاسة
والمملك الثابت حتى انهم تخطوا ذلك الى ارادة تنبيه الامم لما تصلح
به احوالهم وتذاوموا على ذلك وظهرت مساعيهم فيه فلقد كانت
جاهلية العرب في ذلك اسد رأياً واحسن حالاً فان حكامهم
وكبراءهم لما ظهر لهم ما في استعمال تلك الاشربة والملاعب من
تهيج الشرور وافساد المعاملات واخراج الاموال عن صورة
الصالح تناهوا عن ذلك واخذوا على ايدي الشبان فيه فصاروا
ثلاث فرق الفرقة الاولى اولو الاحلام والنهي ومنهم الذي يقول
لا اشرب ما يشرب عقلي والذي يقول وقد قيل له الا تشرب ما
يزيد في جرأتك وسماحك لا اصبح سيد قومي وامسي سفيهم الفرقة
الثانية الشبان المقهورون وهؤلاء كانوا يتباعدون عن ابائهم وذوي

الولاية بعلّة الاصطياد والنظر في احوال الاموال العازية في مراعيها فيميلون الى بعض الغياض لتحصيل اهوائهم على وجه الاستخفاء الفرقة الثالثة الفتيان الذين وجدوا من انفسهم القوة والنخوة والنجدة فهولاء كانوا يتجاهرون. بذلك اعتماداً على قواهم واحتماء بشدتهم والالسة آخذة فيهم بالملامة وهم لا يعتبرون حتى جاء الاسلام ومضى شطر منه وهم على تلك الحال لم يزعمهم عنها حكم صريح بات حتى انزل قوله جل ذكره (ومن ثمرات النخيل والاعناب يتخذون منه سكراً ورزقاً حسناً) فاقصر بصفة الحسن على الرزق ليفهم السامعون قبح السكر ثم قال اناس منهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه يا رسول الله أفننا في الخمر المذهبة للعقول المتلفة للاموال فاوحى اليه صلى الله عليه وسلم (يسئلونك عن الخمر والميسر قل فيها اثم كبير ومنافع للناس فكف قوم وبقي اخرون حتى قام بعضهم يصلي اماماً في صلاة جهرية فقراً قل يا ايها الكافرون اعبد ما تعبدون فنزل قوله تعالى (يا ايها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وانتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون) فكانوا لا يشربون في وقت ثاني عليهم فيه صلاة وهم سكارى ثم نزل قوله تعالى بالحكم البات والتحريم الصريح يا ايها الذين آمنوا انما الخمر والميسر والانصاب والازلام رجس من عمل الشيطان (الايات) فانهى جميع المسلمين عن استعمال ما ذكر وشرعت فيه العقوبة المحذرة في الشرب والتعذير في غيره ثم اخلف المجتهدون في تقرير

الأحكام الشرعية في مسمى الخمر وأحكام الأشرية فقال قوم كلها
خامر العقل وخالطه وغيره عن حاله الأولى فهو خمر وحكمه حرمة
شرب قليلة وكثيره وفساد بيعه وشرائه وحرمتها وقال قوم مسمى
الخمر عصير العنب يترك في الأواني حتى يغلو ويشتد ويقذف
بالزبد وغيره يسمى سكرًا والحكم حرمة قليل الخمر وكثيرها نيئة
فإذا طيخت حتى ذهب ثلثها حل ما دون السكر منها كما هو
الحكم في بقية الأشرية فاتفقت كلمة المسلمين على حرمة السكر والحمد
عليه لما فيه من الفساد الذي لا يخفى دون ما فيه الاختلاف السابق
لرعاية مصالح العباد حسب اختلاف البلاد

فقال الإنكليزي أن ما قلته حق والنقد به حسن إذ لا مزية
لعقل أن كل ما يؤدي إلى فساد في الجمعية وخلل في نظامها
توجب السياسة والانظار الصحيحة المنع منه والأخذ على أيدي
الناس فيه فليت أهل بلادنا اقتصروا على موضع الحاجة منه ولم
يتجاوزوه إلى السرف هذا وإسأل حضرة الشيخ تفسير الميسر
والانصاب والأزلام والألام بما دار بين مقرري الشريعة المحمدية
من القول في أحكام ذلك والساع واستعمال آلات الملاهي

المسامرة الثامنة والثلاثون

الميسر والاصاب والازلام

قال الشيخ الميسر لعبة كانت لهم يلعبونها في مجلس الشراب صورتها انه يجتمع عشرة فتيان هم اللعبة ومعهم رجل يستامنونه يسمى الياسر في يده جراب يسمى الربابة قد وضع فيه قطعاً من الخشب مسواة تسمى القداح الواحد قدح على واحد نقطة وعلى اخر نقطتان وهكذا الى السابع ويغفلون ثلاثة منها ولكل قدح اسم يخصه وهي الفذ والثوم والرقيب والمجلس والنافس والمسبل والمعلى والمنج والسفيج والوعد وينحرون جزوراً ويمزئونها ثمانية وعشرين جزءاً بعدد النقط التي على القداح ثم يخرج الياسر القداح على اسماء الاشخاص قدحاً قدحاً فكل من خرج له قدح اخذ من الجزور بعدد ما على قدحه من النقط ومن خرجت لهم القداح الغفل يغرمون ثمن الجزور

ثم انهم يعطون اللحم لمن حضر من فقراء الحي لا ياكلون منها كان ذلك منهم على وجه التفتي والتكرم وكثيراً ما كان يتولد من ذلك شر بسبب ان الذين يغرمون ربما ادركهم الشح والندم

والاسف على عدم البخت ومجسدون من تخرج له الانصبه لكونهم
استاثروا بالمحظوظ والبخوت دونهم فهذا صنف من الميسر هو اكرم
الاصناف واخفها ضرراً

ثم ان العرب كانوا يلعبون بلعب كثيرة كشطرنج الهند وورد
الفرس والمسايقه على الخيل والابل والترامي بالنبال الى اغراض
وهو النضال في اشياء كثيرة وكانوا يتراهنون في ذلك باخطار
كبيرة كمائة من الابل مثلاً يجعلونها خطراً في الرهان فربما اصبح
الواحد صعلوكاً معسراً وامسى شريعاً ذا ثروة وافرة ولذلك كانوا
يسمونه الميسر لما فيه من يسر قوم وان كان فيه عسر اخرين

يحكى ان تماضر المشهورة بالخنساء اخت صخر دخلت يوماً على ام
المؤمنين عائشة رضي الله عنها وعلى صدرها منسوج من شعر صنعته
من شعر راسها عند فقد اخيها على عادة نساء الجاهلية اذ كانت المرأة اذا
فقدت عزيزاً لها حلفت شعرها ونسجه صدراً فقالت لها عائشة
رضي الله عنها الم ينهك الاسلام عن ذلك فقالت الخنساء يام
المؤمنين تزوجت فتى من فتيان قومي ذا يسار فقامر حتى اعسر
واملق فشكوت ذلك لصخر اخي فاخذ بيدي وقام الى ابله فصدعها
نصفين وخيرني فذهبت بنصف ماله فقامر به زوجي حتى انفده
فرجعت الى اخي ففعل فعلته الاولى وقامر زوجي حتى رجعت
الثالثة وانا فيما يعلم الله من الاستحياء فانا من وراء البيت وصخر
اخي مضطجع واضع راسه في حجر امراته فلحنني المرأة وسمعتها تقول

هذه اخلك وما اظنها تاركك حتى تملق فلم يجيبها وقام فاستقبلني
وحياي واخذ يصنع بي صنعه السابق وهو يقول
وكيف لا امنحها خياري * وهي فتاة قد كفتني عاري
وان امت تمزقن خمارها * وتجعلن من شعرها صدارها
فما عشت لانزعه كما لا يفارقني الحزن على صخر فحرم الشارع
المخاطرة بالاموال

واما نفس اللعب فقد ندب الى السباق والنضال وفعلا
بين يديه واناب الغالب لما في ذلك من الجد والمنفعة وقد عقد
لها في الفقه باب السبق والرمي

واختلف الائمة فبعض اجاز النرد وحرّم الشطرنج وبعض
اجاز الشطرنج وحرّم النرد واما الانصاب فهي حجارة او اشيا اخر
كالصفر يصورونها في اشكال مختلفة وبعضها كان مصورا قديما
موروثا للاخلاف عن الاسلاف كانوا ينصبونها ويتقربون عندها
بانواع عباداتهم ويقولون ان هذه الانصاب تشهد لنا باعمالنا عند
ربنا وتشفع لنا فحرم ذلك وكفر فاعله ومعتقده واما الازلام فهي
ثلاثون قطع من الخشب مكتوب على واحد امر وعلى واحد ناه
والثالث عطل لا كتابة عليه فكان الرجل اذا عزم عزمًا خلط
تلك القداح في جراب ثم اخرج منها واحدا فان كان الامر فعل
وان كان الناهي ترك وان كان العطل اعاد العمل فنهى عنه ذلك
في اشياء كثيرة من جنسه كزجر الطير والحیوانات والاحوال

التي يشاهدها العازم عقب عزمه فيستشثمون ببعض ويتمنون
ببعض فقال عليه الصلاة والسلام اذا تطيرت فامض وقبل ذلك
تنبه كثير من العرب لبطلان تلك الاشياء فان بعض الناس
كان يرى المشائم فيقدم فيصيب ما اراد على اتم وجه حتى قال شاعرهم
لعمرك ما تدري الصوارب بالحصى

ولا زاجرات الطير ما الله صانع

وقال اخر

على المرء ان يسعى لما فيه نفعه

ويقضي اله المخلق ما كان قاضيا

واما السماع واستعمال آلات الملاهي فاجازها بعض بشرط
امن الفتنة بالوقوع في محظورات الشرع وعدم اللهو والاشتغال عن
الواجبات في اوقاتها ومنعها بعض لما يغلب فيها من السهو والغفل
عن اداء الواجبات والنظر في المصالح والسعي لها في اوقاتها
قال الانكليزي ان ميل الانسان بطبعه الى ما يجد نشاطه
ويعود على فكره بالراحة من الاشتغال بما يكدر قواه من استماع
الاصوات المحسنة والنظر الى المناظر الجميلة والاشتغال بالامور
الملهية هو الذي بعث الافكار على اصطناع الات الطرب وتحسينها
واتقان ما يناسبها وكان ذلك من الاعمال العائدة على كثير من
اهل هذه البلاد بالثروة حتى نظمت في الاعمال التي يبنى الناس
عليها امور معاشهم ولا غرو ان يشتغل الانسان بما فيه كسبه

وارتياح اهل ارضه ونزھتهم وتسليمهم عن كثير من الهموم المكدة
والاعمال المتعبة فلذلك ترى اطباق اهل هذه الارض ولا سيما
النساء على تلك الاشياء حيث وجد فيها الكبار واهل العجز والهرم
تعويض ما فقدوه من ملاذ الشباب وهي من تحائف الشباب
وجملة آلاته التي يحصل بها على تمام ملاذها الداخلة تحت قدرته
الحاضرة بين يديه

المسامرة التاسعة والثلاثون
حكاية المصري الغريب

قال الناقل وبينما هم كذلك اذا بانسان هرم دخل عليهم فسلم
بلسان عربي فصيح فرد عليه الشيخ وولده وحياه الانكليزي على
حسب العادة واذنوا له بالجلوس فجلس ثم تأملوا في هيأته ولغته
فعرفوا انه ليس من اهل البلدة فقال الشيخ لعلكم من اهل مرسيليا
قال لا وانما انا ساكن بها منذ مدة طويلة وانا من جهة مصر

ومستط راسي القاهرة ولي بها اقارب ولا اعلم الان ما فعل الله بهم
وكانت اقامتي معهم بمصر في خط الازبكية ولي حكاية غريبة في
سبب مفارقتي لهم فقال الانكليزي اظنك ممن كان حضر مع نابليون
بونابرت حين خرج من مصر فقال نعم فقال له كيف تبعته وتركت
عائلتك واهل بيتك قال الرجل في مدة اقامة الفرنسيات بمصر
كان قد اخلط بهم بعض اهلها حتى دخلوا تحت طاعة الفرنسيين
وانضموا اليهم فثمنهم من كان في خدمتهم ومنهم من دخل في عسكرهم
وقليل منهم شاركهم في التجارة فكنت ممن دخل في العسكرية
فاثمت فيها مدة الى ان حصل الصلح بينهم وبين المصريين وكان
في من كتب اسمهم في العسكرية كثير من القبط المصريين ونصارى
الشام ومن بقي من المالك الذين كانوا بها قبل دخول
الفرنسيين اليها ولما وقع الصلح وتأهب جيش الفرنسيين للرحيل
خرج من العسكرية من خرج وبقي من بقي فكنت ممن بقي وكان
عمري اذ ذاك قريباً من ثلاثين سنة وكان السبب في بقاء من
بقي مع الفرنسيات ان اهل مصر كانوا يتوعدون كل من دخل
في زمرة الفرنسيات بالقتل وبغيره فلذلك اختيرت البقاء معهم
والمهاجرة الى بلادهم وعلى اي حال فالتسمة غلبت وخرج معهم
من خرج الى ان وصلنا مرسيليا فما من اقام بها ومنا من بقي في
العسكرية وسار مع نابليون فكنت ممن اقام بمرسيليا فرتب لنا من
جانب الحكومة مرتبات لكنها لم تكن كافية فاخذنا في الاسباب

كل على حسب اقتداره وتزوجنا من نسائهم وتخلطنا باخلاقهم
وتهبأنا هياتهم واكتسب كل منا على حسب سعيه وكده واعاننا
على الكسب في هذه المدينة انها مينا واشغالها كثيرة وامور السعي
والعمل والكسب فيها متيسرة وبهذه الكيفية تسرت معيشتنا
ورضينا بقضاء الله وقدره وان كان حب الوطن لا يبرح من
بالنا وافكارنا لا تفر عن ذكر اهلنا وبقينا على هذه الحال الى ان
تعصبت الدول على دولة فرنسا واتقوا على خلع الامبراطور
واشخاصه الى جزيرة الب للاقامة بها ورد الحكومة الى الملك لويز
الثامن عشر من ملوكهم فعند ذلك حصل لنا ولكل من كان قد
اتى اليه من الذل والاهانة ما كان سبباً في مفارقتنا لمرسيليا ولو
كنا نعلم الغيب لكنا جميعاً هاجرنا من هذه البلاد قبل ان ينزل
بها ما نزل من المقدور وما هو في علم الله مستور ومسطور فكنا
نحوار بعائلة نفس بعيالنا وكانوا يسوموننا كل يوم من العذاب ما
لا اقدر على وصفه الى ان حصلت الحادثة التي رجع فيها بونايرت
الى السلطنة مدته الاخيرة المعروفة عند اهل هذه البلاد بمحكمة
مائة يوم لانه لم يقم بها الا هذه المدة فلما انتقضت حصل لنا والجميع
من انتسب اليه غريباً كان او غير غريب ما يعجز عن استيفائه
اللسان ويكل في حصه البيان وحاصل الامر ان جميع المالك
والمهاجرين الذين كانوا معنا وعايهم واولادهم قتلوا في وسط
حارات مرسيليا وشوارعها بكيفيات يشمئز منها الطبع ويحبها السمع

ولولا اني كنت غائباً في ذلك الوقت لقتلت فيمن قتل ولما عدت وجدت عيالي جميعاً قتلوا مع والدتهم وشرح ما حصل في تلك الايام طويل ولو مكثت طول عمري اذكر لك من اخبارها لكان ما اذكره بالنسبة لما اتركه اقل من القليل

فقال الشيخ اودان اعلم كيف كان قتل المساكين الاغراب وكيف سلمت الحكومة في ذلك فان مثل هذا لم يسمع به في بلاد البربر ولا بين سكان البادية فكيف يكون في الملل المتمدنة ام كيف يحصل من ملة يقال فيها انها بلغت من التمدن غايته

فقال ذلك الرجل ان طباع هذه البلاد غريبة جداً لانهم دائماً في فتن ومحن ويودون دائماً تغير صورة حكومتهم وديانتهم كما يغيرون ملابسهم فان شئت وتفضلت عليّ انت ومن تحب بالزيارة في منزلي فهناك تروح بذكر البلاد وتلو عليك شيئاً مما وقع في هذه الحادثة من الصلاح والفساد فسكت الشيخ فنظر ذلك الرجل الى الانكليزي فقال اما انا فقد دعيت عند بعض الاحباب ووعدته في هذا اليوم بالذهاب واود ان اخذ معي برهان الدين وان اراد حضرة الشيخ ان يتوجه معك ويصطحب يعقوب معه فالزاي له فانتقلوا على ذلك وقاموا جميعاً فذهب الشيخ ويعقوب مع الرجل الى منزله فقابلتهم زوجته احسن المقابلة وحيثهم تحية الاكرام والمجاملة واجلستهم في المكان المعد للضيوف وامرت باحضار القهوة والدخان فشربوا ثم شرعوا في التبسط بانواع الكلام الى ان

وصلوا الى ذكر حوادث الايام فقال الشيخ للرجل ارجوك ان تفي بما وعدت به انفاً من حكاية ما حصل في قتل اولئك المساكين الاغراب وما حصل بهم من انواع العذاب والعقاب فتنفس الرجل الصعداء وقال ان اهل مرسيليا وما جاورها من البلاد بل اهل فرنسا على الاطلاق منقسمون فرقاً فمنهم في السلطنة الملوكية ومنهم من يميل الى الامبراطورية ومنهم من يحب الجمهورية ولكل قوم كلام في ترجيح رايهم ليس هذا محله وكل فرقة من هذه الفرق مع الاخرى في فرنسا كسعد وحرام في مصر والقيسية واليانية في بلاد الشام فتى كانت الحكومة امبراطورية كانت الغلبة لمن يتبعها والعكس بالعكس فمن ذلك لا ينقطع من بينهم عرق الشقاق ولا تزال الدماء بينهم تراق في الحارات والاسواق ومن ذلك مسألة الاغراب التي سمعتها فانها انما نشأت من تلك التعصبات وذلك ان اهل مرسيليا كانوا اول من نصب لواء العصيان في القومة الاولى على بونابرت فلحقها مدة حكومته ما لحقها من الذل وضياح المزاي التي كانت يبينها زمن الحكومة الملوكية لانها كانت وقت ذاك معافاة من الكمارك والعوائد وكان ذلك من اقوى اسباب ثروتهم وسعة تجارتهم فلذلك كانوا يتمنون عود الحكومة الملوكية حتى انهم من شدة كراحتهم له ولبن اتبعه لما شاع الخبر بانخطاطه في سنة الف وثمانائة واربعة عشر للميلاد وهي سنة ١٢٢٠ للهجرة قاموا جميعاً وقام معهم اهل البلاد والمديريات التابعة لها ففعلوا باتباعه افعالاً

شنيعة وقتلوا كل من كان له ميل اليه بالقوة وشاع ذلك حتى كان امراً مشهوراً وتاريخاً على طول الزمن مذكوراً وهجموا على محلات رجال الحكومة وقتلوه وقاتلوا اتباعهم ولم ينح مدير المديرية من ايديهم الا بالفرار الى ميدان الفسحة وهجموا على هيكل الامبرور الذي كان منصوباً في ميدان المدينة فكسروه ورموه واقتلعوا جميع ما كان في ذلك الميدان من الاشجار والنبات والازهار وحرقوا ما كان به من انواع الزينة والزخرفة وبالجحمة فلم يحترموا تربة كانت هناك وان كانت لاحد مشاهير رجالهم بل حفروها ودمروها حتى لم يبق لها اثر هذا والسبب في تغالي اهل هذه المدينة في الميل الى الملك ان عائلته كانت دائماً تعدهم برد المزايا التي فقدوها وتشوقهم برجوع مزايا اخرى كانت لهم من قبل وسلبتها منهم حكومة بونايرت فلما خلع من الملك اول مرة جمعوا من رجالهم حزباً عظيماً عينوه لترغيب من يريد الدخول في العسكرية فانضم اليهم اهل الشقاوة والمفسدون واخلاط من العملة والفعلة واستمروا على ذلك نحو احد عشر شهراً من خلعه ولهذا لما بلغ هؤلاء الاشرار خروجه من جزيرة الب ودخوله ثانياً ارض فرنسا خافوا على انفسهم من عاقبة فسادهم وايقنوا بحلول العقاب بهم دفعة واحدة ورفعوا لواء العصيان ورجبوا اهالي المدينة ومن حولها وخصوصاً العمال في المعامل وفي المخازن العسكرية وكذلك كل من وجدوه من الفقراء والمساكين فجمع

من هذه المجموع المختلفة الاف مؤلفة وانتشروا في المدينة وشبوا في طرقاتها نار الفتن التي احلت بهم القضاء وهجموا على فريق العسكر واكرهوه على ان يقوم معهم لمنع الامبرور من دخول ارض فرنسا فخرج معهم بعسكره وساروا لتعطيل الامبرور عن الخروج من البحر لكن الله قدر خروجه من البحر قبل وصولهم اليه فلم يبلغوا مقصدهم ورجعوا الى المدينة خائبين فصاروا يقوون جموعهم فعظمت قوتهم وازداد كرب الاهالي المتقطعين لاشغالهم من تعددهم وظلمهم لم وكانوا يزعمون ان الملك اذا قام بجيوشه يقاوم حزب الامبرور نابليون ولم يخطر ببالهم ان الامبرور متى وضع قدمه بارض فرنسا اجتمع حوله خلائق كثيرة من عساكره القديمة والجديدة وغيرهم استمالهم اليه ما كان له من الشهرة وكثرة الفتوح والنصرة فكان الامر على خلاف ما زعموا ولم يقاومه حزب الملك بل فرّ بعائلته ودخل نابليون ارض فرنسا واخذ بعنان الحكومة كما كان فتضعضع راي هولاء الاشرار وتفرق شملهم وترتب على نزول الملك عن سرير الملك وخروجه من باريس تغيير جميع حكام الجهات والمديرين ومن جملتهم حكام المديرية التي مركزها مرسيليا فتغير حاكمها وحضر لقيادة العساكر بها رئيس غير الاول وكان يجب الصلح والاصلاح فاحتهد في منع اسباب الفساد وقع اربابه بطريق الانصاف والمساواة وتسكين الفتن حتى انحسرت الامور ومع هذا كان المفسدون كلما وجدوا للفتنة فرجة اوسعوها او فرصة للشر

ابتدروها فكانوا يوقدون نيران الفتن خفية ويلقنون كل من
وجدوه كراهة الحكومة الامبراطورية واتباعها حتى انهم اكثروا من
الطعن في حق راس العساكر المحافظين بمرسيليا حيث كان هو
المانع لما يقصدونه من الفساد وكثيراً ما اخبر باقوالهم ومقاصدهم
وانهم يتمنون حيلة لسفك دمه وهو مع ذلك لا يخرج عن الطريق
الذي الزم نفسه بسلوكه من الرفق في المعاملة وحسن الخلق والمجاملة
بل استمر على استعمال ما يوجب الصلح والاصلاح لاطفاء الفتن
وحصول الامن بين الرعية وكثيراً ما رأى بعينه تعدي بعض
هؤلاء الاحزاب وفطم ابواب الشر بالنزاع والمخاصمة مع عساكره
من غير مقتضى لذلك فكان لا يستفز الغضب ولا يغير طبعه
معهم ما يقع منهم ظناً منه انه على طول الايام اذا تمهدت قواعد
الحكومة على اصول من العدل متينة تنجلي قلوب الاحزاب ويزول
ما في نفوسها من الضغينة فانهم جميعاً امة واحدة وابناء وطن واحد
فلا بد ان يصفوا الببال وتحسن الاحوال قال ولم يعلم بما خفي
في خبايا الغيب فاختطأ ظنه وخاب امله وضاع عليه تديره وعمله
وذلك انه لما وقعت الواقعة المشهورة بجهة (واترلوا) انهزم فيها
جيش نابليون فانتشرت الاخبار في جميع نواحي المملكة ومن الجملة
جهة مرسيليا فشاع فيها الخبر يوم الاحد لعشر بقيت من شهر جوني
سنة ١٨١٥ للميلاد وهي سنة ١٢٣١ للهجرة وذلك بعد ستة ايام من
تاريخ الواقعة فخاض في حديثها الناس واشتغلوا بها فكنت لا تجد

احداً منهم الا رايته مهتماً بهذا الامر مشغولاً به فلا يجتمع منهم
 اثنان فاكثراً الا على الخوض في حديث هذه الحادثة سواء كان
 ذلك في محلات النزهة والفسحة ومواضع التهوّة او الكنائس والدور
 والازقة والميادين بحيث لم يبق فيما اظنه احد من الفرنساوية الا
 تكلم في هذه المادّة وما يترتب عليها من النتائج المؤلمة والعواقب
 الوخيمة فغلب الوهم على قلوبهم لاعتقادهم جميعاً انه لا بد من
 دخول العدو باريس وتصرفه في اهلها بالغلبة والتهر وهذا
 الخوف كان عامّاً لجميعهم ما عدا حزب الملك ومن اتبعه فانهم
 وجدوا فرصة لاطهار ما في نفوسهم وبأباً للوصول الى اغراضهم فهبوا
 من نومهم وقاموا من مهد خمولهم واجتمع عليهم كل من اراد الانتماء
 والانضمام اليهم او رغب في السلب والنهب معهم فاجتمع بهم اهل
 الشر والفساد جميعاً فلم يبق قاتل ولا لص ولا قاطع طريق الا
 انضموا اليهم واخيلط بهم وانتشروا في ارجاء المدينة فكان اول
 ما فعلوه انهم هجموا على العساكر ورموهم بالرصاص وقابلهم العسكر
 ببثل ذلك بحكم الضرورة فقتل من الفريقين خلق كثير واخر
 الامر انهزمت شزيمة العسكر فخلا الجو لاولئك النافرين ولم يبق
 لهم مانع وهجموا على البيوت وعلى الدائرة البلدية فجري منهم من
 الرذائل والمفاسد ما لا يدخل تحت حصر واخذوا يبرق الجمهورية
 وحرقوه في ميدان كان منصوباً به هيكل نابليون الاول ثم سطوا
 على ذلك الهيكل فكسروه وداسوه تحت ارجلهم ثم داروا في الازقة

متجاهرين بالاقوال الفظيعة والتحريض على قتل كل من يتي الى نابليون او عائلته او يميل للجمهوريه وهجموا على مواضع كثيرة من جملتها محل كان به نحو ثلثائة من الضباط الضعفاء المعروفين بالاستقط اصحاب المعاش فاخذوهم عن اخرهم وذبحوهم ذبح البقر وكذلك فعلوا بنحو اربعمائة من طائفة المالك فقتلوهم عن اخرهم ولم يرقوا لاطفالهم ونسائهم بل الحقوهم برجالهم وابائهم ولم يكن لذلك من سبب سوى ان هؤلاء المساكين كانوا اظهروا الفرح عند عودة نابليون فبقي ذلك في نفوس القوم وحتدوه عليهم حتى بطشوا بهم في هذه الواقعة وفعلوا معهم اموراً شنيعة واحوالاً فظيعة فتشعر منها الجلود ويكاد يرق عندها الجلود فمن ذلك انهم كانوا عند قتلهم للواحد منهم يقطعونه ارباً يلقونها في الطريق وكانوا ياخذون الواحد فيوثقونه بالحبال ويضربونه بالعصي والحناجر فلا يموت حتى يذوق انواع العذاب واسد العقاب

ثم قال ذلك الرجل وكان في جملة من مات الاولاد (يعني اولاده) وامهم قال وكان من يمر في اي طريق من طرق المدينة وما حولها حينئذ انما يمر بين رماة القتلى ويخوض في دماء المجرى حتى اخلطت رماة الرجال برماة النساء وكان اولئك المفسدون في خلال ذلك يتكلمون بكل ما تشتمز منه النفوس وفعلوا ما لم يفعله المحبوس فكانوا يطوفون حول القتلى راقصين مسرورين فرحين مستبشرين رافعين اصواتهم بالاغاني والاشعار

المتضمنة للمباهاة والافتخار بما فعلوه من القبائح وارتكبه من الفضائح ومع ذلك لم تكن هذه الاهوال خاصة بمرسليا واهلها بل كانت في جميع جهات المملكة باسرها فكم من بلدة حرقت وضيعة خربت وقرية نهبت قال فما كان احد يسمع في تلك الاوقات عن جهة من الجهات الا ما يسوء الفؤاد ويمحق الاكباد

فلما وصل الرجل من حكاية حديثهم الى هذا المحل قال يعقوب (وكان مع الشيخ) سبحان الله العظيم قد قدر الله على طائفة الممالك بهذا العقاب فاصابهم في كل جهة من الارض فان ما حصل لهؤلاء بمرسليا حصل مثله لآخوانهم بمصر واثامهم البتجربة بالقسطنطينية سواء بسواء وكان ذلك في اوقات متقاربة فان ما وقع بمصر كان في سنة ١٢٢٦ من الهجرة وما حصل بمرسليا كان في سنة ١٢٢١ منها كما مر والذي حصل في القسطنطينية كان سنة ١٢٤١

فعند ذلك قال الشيخ هذا ما وعد الله ورسوله وصدق الله ورسوله قال الله تعالى (ذلك بان الله لم يك مغيراً نعمة انعمها على قوم حتى يغيروا ما بانفسهم) وقال (وسيعلم الذين ظلموا اي منقلب ينقلبون) قال بعض الحكماء من سلب نعمة غيره سلب غيره نعمته والحجر في البنيان من غير حلة عربون على خرابه والله لو ان الجنة وهي دار البقاء اسست على حجر من الظلم لاوشك ان تخرب حكى ان بعض الوزراء جلس يوماً للمظالم فلما انتضى

المجلس رأى رجلاً جالساً فقال له ألك حاجة قال نعم ادنني اليك فاني مظلوم وقد اعوزني العدل والانصاف قال ومن ظلمك قال انت ولست اصل اليك فاذا ذكر حاجتي قال وما يحجيك وتد ترى مجلسي مبذولاً قال يحجبني عنك هيبتك وفصاحتك قال ففيم ظلمتك قال في ضيعتي الفلانية اخذها مني وكيلك غصباً بغير ثمن فاذا وجب عليها خراج ادنيه باسي لثلا يثبت لك اسم في ملكها فيعطل ملكي فوكيلك ياخذ غلتها وانا اوذي خراجها وهذا لم يسمع بمثله في المظالم فقال هذا كلام تحتاج معه الى بينة وشهود واشياء فقال ذلك الرجل أيؤمنني الوزير من غضبه حتى اجيب قال نعم قد امتك قال البينة هم الشهود واذا شهدوا فليس يحتاج معهم الى شي اخر فاما معنى قولك بينة وشهود واشياء واي شي هذه الاشياء ان هي الا الجور وعدوك عن الحق فضحك الوزير وقال صدقت والبلاء موكل بالمتطرق واني لا ارى فيك مصطنعاً ثم وقع له برد ضيعته وان يطلق له مائة دينار يستعين بها على عمارة ضيعته وصيره من اصحابه وكان من امر ذلك الرجل قبل ان يتوصل الى الانصاف واعادة ضيعته له اذا قيل له يا فلان كيف الناس يقول بشر بين مظلوم لا ينصر وظالم لا يتصرف لما صار من اصحاب الوزير وردت عليه ضيعته وانصفه قال له الوزير ليلة كيف الناس الان قال بخير قد اعتمدت معهم الانصاف ورفعت عنهم الاحجاف ورددت عليهم

المغصوب وكشفت عنهم الكروب وانا ارجو لم يبقائك نيل كل
مرغوب والفوز بكل مطلوب

المسامرة الاربعون

المحار

قال ناقل الحديث وبينما هم في هذا الكلام از حضرت
صاحبة المنزل اشارت بالقيام للطعام وكان الاتفاق على ان
يكون الاكل على عادة المشرقين فوضعت الاطعمة دفعة واحدة
واكلوا جميعاً بايديهم من كل صحفة ولم يخصص احد دون اخر
بشيء الا انهم وضعوا امام الشيخ طبقاً فيه محار من المعروف بالمدينة
فعافته نفسه والي ان يتعاطى منه لعدم تعوده على تعاطيه فاكلوا
وشربوا ثم ارادوا ان يتحدثوا فيما بقي من اخبار تلك الحوادث لكن
لضييق الوقت تعجل الشيخ بالانصراف فاستأذن وقام وتبعه يعقوب
فركبا العربية وسارت بهما .

فقال الشيخ يعقوب لقد عجبت من تقديم ذلك المحاربين
يدي مع وجود غيره من الماكل الشبهة فلم اعرف لذلك من مزية
فقال يعقوب انما فعل الرجل ذلك تطيباً لحاطرك
واخفلاً بامرك ودلالة على العناية بشانك فان الافرنج قاطبة
يحجون اكل هذا المحارب حبا زائداً واكثر من يتعاطاه الامراء
والاكابر من اهل المدن الاوروباوية

فقال الشيخ كنت اسمع ان اهل اسكندرية ياكلون شيئاً يشبهه
يسمونه بام الخلول وانهم يصنعونه بالتوابل والافاويه والبهارات
ويجعلون منه الملحقات وكذلك بلغني انهم يتعاطون نوعاً يسمونه
بلج البحر يطبخونه مع الارز فيكون عندهم لذيذاً ولكني لم ادق شيئاً
من ذلك فلا اعلم طعمه وهل هو ماخوذ من هذه البحار او غيرها
وما كيفية صيده

فقال يعقوب ان الصيادين يصطادونه من البحر الملح بشباك
مخصوصة وطرق معروفة لم غير الطرق المعتادة في صيد السمك
وفي كثير من جهات اوروبا ترى اقواماً من الاهلين يشتغلون
بتربيته وتربيته في معامل مخصوصة قد اصطنعوها بسواحل البحر
يربونه فيها كترية المصريين للفراريج في معاملها وان كانت الكيفية
مختلفة فان المعامل التي نحن بصددنا عبارة عن احواض واسعة
مصنوعة بالقرب من ساحل البحر ينالها الماء في وقت المد وينحسر
عنها في وقت الجزر وقد جعلت لها ابواب تقفل وتفتح لاسماك الماء

في الاحواض وصرفه عند الحاجة بالاخيار وفي قاع الحوض احجار
من الصخر موزعة في جهاته وحول كل من الاحجار قطع من
الخشب مثبتة حوله ثم حول كل جملة من الصخر خشب غيرها
وكلها متصلة ببعضها بواسطة حبل مربوط فيها محيط بجميعها
ويربط في هذا الحبل حزم من الحطب وفروع الشجر تدلى في الماء
فعند حصول القس يجتمع البيض على الصخور وعلى الاخشاب
ويتعلق بالحزم المدلاة في الماء ويبقى كذلك الى ان يكبر وعند
ذلك يكون اخذه باليد سهلاً فيأخذون منه ما ارادوا مما يجدونه
قد بلغ حد الانتفاع به وما وجدوه لم يصل الى تلك الغاية ابقوه
حتى يصل اليها

فقال الشيخ اريد ان اعرف تفصيل احوال هذا الحيوان بقدر
الامكان وكيف اهتدى الانسان الى معرفة ما ذكرت من طريقة
تكاثره وهل هذه الطريقة حادثة ام قديمة

فقال يعقوب هذه الطرق كانت معلومة من قديم الزمان
وكان الرومانيون وغيرهم يستعملونها وقد عرفها المتأخرون منهم
ولكثرة سفري في البحار صار بيني وبين اربابها الفة وبعض
حيواناتها معرفة حتى عرفت هذا الحيوان وكنت اظن قبل ان
اعرفه انه لا شي في جوفه وان كان فيه شي فانما هو خرف او مواد
صلبة المحاقا لما بطن منه بما ظهر هذا ما كنت اظنه فيه الى ان اتفق
لي في بعض الاسفار ان اجتمعت باحد الطبيعيين وكنت اذ ذاك

بجبهة الامريكا فرأيت يومًا وقد جمع من هذا النوع شيئًا كثيرًا
فسألته عن فائدته وعما في جوفه وأصل مادته فأخذ منه واحدة
ففتحها وصار يريني ما في جوفها ثم قال لي اعلم ان الله سبحانه وتعالى
قد اتقن كل شي خلقه لا فرق بين كبير الحيوان وصغيره حتى
المضغة والعلقة وأودع فيه ما يلزم لبقاء شخصه ونفسه وخص كل
نوع بمزايا تميز بها عن غيره من انواع جنسه ومن ذلك حيوان
الحار فان لحمه بارد رطب مخاطي ليس فيه عظام من الداخل
ولكونه على هذه الحالة جعل الله له وقاية نقيه من جميع العوارض
وتحفظه من آفات البحر وحيواناته وهذه الوقاية وهي المحارة او
الصدفة تارة تكون شكلًا مخروطيًا على هيئة البرج وتارة تكون
شكلًا مستديرًا كالدرقة وتارة تكون كدرع الحرب وغير ذلك وتارة
تكون قطعة واحدة كما في الحلزون وتارة تكون قطعتين فاكثر
وهي الميديا وبحسب هذه العقود في القطع وعدمه انقسمت الى
ثلاث رتب اصلية

الاولى ذات الصدفة

الثانية ذات الصدفتين

الثالثة كثيرة الصدف

وهذا الذي وضع بين يديك على المائدة يعرف بالميديا وهي
في الرتبة الثانية ومسكنه في الغالب قاع البحر في مواضع يتخذها على
صورة الجزائر والتلال واذا نظرت الى الواحدة منها وجدت

محاربتها مركبة من فلتتين احدهما كبيرة وهي التي يلتصق بها ما في
الباطن والغالب فيها ان تكون محدبة ذات سمك وهي السفلى
والثانية العليا وهي اصغر وارق سمكاً من اختها واقل تحدباً وهما
ملتصقتان ببعضهما بعصب متصل بالحيوان فيه مرونة تيسر معها
للحيوان فتحها وإطباقها باختياره فيرى في وسط المحارة من الداخل
بقرب اتصال الفلتتين ببعضهما نقرة بيضاء فيها عصب سميك ابيض
اللون متصل بالحيوان هو الآلة له في تحريكها كما مرو باطن المحارة
املس ذو لمعان كالعان اللؤلؤ واما ظاهره فذو طبقات او ثنيات
متراكبة بعضها فوق بعض وهذا الحيوان مجبول على السكون
والاستقرار وعدم الانتقال عن محله بالاختيار فينشأ من صغره على
الصخور في قاع البحر ويثبت عليها حتى يرى كأنه قطعة منها وإذا
تاملت في هذا الحيوان عند فتح محارته وجدته قطعة لحم متجمعة
قليلة الشفافية سنجابية اللون بيضية الشكل مظلوفة في غشاء رقيق
ناعم قابل للانقباض والانبساط ذي طبقات متعددة وله فلتتان
مفتوحتان في معظمه وهو شبيه برأس البرنس ينتهي دقيقه عند
مجمع فلتتي المحارة وفي دائر كل فلتة من هذا الغشاء زوائد فيها
شعور يدها الحيوان ويقبضها باختياره ويظهران بها نوع احساس
وبواسطة هذا الغشاء يمتص الحيوان بعض المواد الجيرية من المحارة
وفي مجمع طرفي الغشاء من جهة افتتاح المحارة يوجد فم الحيوان
مستعرضاً وهو فم كبير قابل للتمدد عديم الفكين أي عد

الاعضاء المضغية له شفتان غشائيتان رقيقتان وفيه اربع زوائد كل واحدة منها مثلثة الشكل ذات ثلاثة اسطحة مستوية وهي بمنزلة الخرطوم يتناول بها غذاءه ويدخله في فمه فينحدر منه الى معدته وهذه المعدة على شكل الكمثرى ويتصل بها معاء رفيع معوّج يتجه بالليل الى جهة الامام ثم ينخفض قليلاً ثم يرتفع ويمر بعد ذلك خلف المعدة بحيث يكون قريباً من الفم ويتعطف الى الخلف في طريق تقاطع طريقه الاولى حتى يكون في الجهة الخلفية من العصب المتصل به الحيوان بالمحارة كما مر وهناك ينتهي ذلك المعاء بفتحة في ظهر الحيوان يقال لها الخاتم ويحيط بالمعاء وبالمعدة ايضاً الكبد وهو اكبر اعضائه كلها حتى انه وحده يعدل معظمها ولونه مسود وفيه مائع مصفر اللون هو البلغم وفم هذا الحيوان ينطبق على معدته وقلبه لحمي مغزالي الشكل موضوع تحت كبده محيط بجزء من اخر المعاء احاطة تامة وهو كما في الحيوانات الكبيرة مركب من جزئين احدهما الاذين والاخر البطين ومن البطين يخرج عرق يتفرع ثلاثة افرع احدها يوجه الدم الى الجزء العلوي من الحيوان اي الى الفم وما به من الزوائد المتقدم ذكرها والثاني يوجهه الى الكبد والثالث يوجه السائل الغذائي الى سائر الجسد وليس الدم في هذا الحيوان احمر كما في غيره من الحيوانات الصغيرة بل هو شفاف عديم اللون وهو يمر من اذين القلب الى البطين ومنه الى العرق الغليظ الذي تنفرع منه الفروع الثلاثة التي قدمنا

الكلام عليها ثم منها توزع في جسم الحيوان
ومن هذا يعلم ان هذا الحيوان له دورة دموية لكنها ليست
كالدورة في الحيوانات الكبيرة وانما هي كالدورة في السمك
وبعض حيوانات غيره

وهذا الحيوان يستنشق في الماء ما يحتاج اليه من الهواء كالسمك
فله خياشيم يفصل بها من الهواء الذائب في الماء ما يلزم له من
الأكسجين ومحل هذه الخياشيم تحت الغشاء وهي ذات طيتين
فيهما شعوب شعرية رقيقة اشبه باسنان المشط وتجرد هذا الحيوان
عن الراس لا يوجد له مخ كما في غيره من الحيوان وانما يكون اول
عصبه بقرب الفم فيرى هناك عصب غليظ يتفرع منه فرعان
احدهما يتجه الى المعدة والاخر الى الكبد وينتهيان بعصب واحد
يكون خلف الكبد فالفرع الاول يوجه الاحساس الى الفم وما فيه
والثاني الى الخياشيم

ويظهر ان لهذا الحيوان حاسة اللمس ومستقرها الفم وليس له
سمع ولا بصر

ومن غريب خواص هذا الحيوان انه يجتمع في الواحد منه
اعضاء التناسل الذكورية والانثوية فيكون الواحد لنسله ابا واماً
مما ونسله في اول اطواره بيض مصفر اللون كثير العدد الى الغاية
حتى ان اهل الفن توصلوا بكثرة البحث ودقة التحقيق الى ان
قدروا للحيوان الواحد منه نحو الف بيضة ومدة تربية هذا الحيوان

في البيضة كثرية الدجاج في البيض الى ان يتم تخلق الحيوان ويستقل بنفسه ثلاثة اشهر من بؤنه الى اخر مسري وفي هذه المدة يكون البيض في طبقات الغشاء المتقدم ذكره مغموراً بمادة لزجة تفرزها الام فيتغذى منها ويكون في طبقات هذا الغشاء بمنزلة البيض تحت الدجاجة حين ترقد عليه وتحضنه وحيثئذ يكون كل من البيض وهذه المادة في قوام القشطة ولا ترى افراده از ذاك بالعين لفرط صغره ودقته وكثرة تراكمه على بعضه ويكون في اول اطواره مصفراً كما مر ثم يتغير بعد ذلك فيسمر ثم يكون اخر الامر بنفسجي اللون وعند ذلك يتخلق فيه الحيوان ويخرج منه وهو في طبقات الغشاء المذكور كما ذكر وعند ذلك تذفه الام في الماء متتابعاً متعاقباً على صورة خيط ابيض يشاهد بالبصر فيخرج من كل محارة خيط ويتكون من المجموع طبقة عظيمة الاتساع بالنسبة لاتساع الصخور الموجود عليها المحار يتميز لونها عن لون الماء وحيثئذ يكون لها منظر عجيب ولكن لا يلتفت اليها الا المشتغلون بامرها المعانون لتربيتها ومن الغريب ان هذا الحيوان الذي تنقضي مدة حياته في حالة السكون وعدم الحركة يكون عند ولادته وانفصاله عن اصله محاطاً بمادة تتكون منها محارته التي جعلها الله سبحانه وقاية له ويكون اذ ذاك في غاية الصغر والدقة بحيث لا يتميز افراده الا بالنظارة المعظمة ويكون له حيثئذ شعور بها يسبح في الماء ويسرح حول اصله ويفزع اليه متى

دهنه اي حادثة تهوله فاذا كبر الحيوان زالت عنه هذه الشعور التي هي له كالارجل فيتعلق ببعض الصخور والاحجار فيستقر بمكانه ويثبت فيه ولا يتحول عنه وحجمه اذ ذاك لا يكون الا قدر خمس ميلي متر واحد اي بقدر جزء واحد من خمسة الاف جزء من المتر وبعد ثمانية اشهر يصل طوله الى نحو ثمانية ميلي مترات او عشرة وبعد سنة يكون قدر خمسة سنتيمترات ولا يتم صلاحه ويكمل الانتفاع به ويباع في الاسواق الا اذا بلغ ثلاث سنين وهذا هو الاعتبارين ارباب المعامل فانهم لا يخرجونه منها الا اذا بلغ هذا السن

وعالم المحار غالم كبير وعدده كثير حتى قيل انه اكثر الملكة الحيوانية عدداً وقد اختلفت اقوال الناس في ظاهره وباطنه فزعم بعضهم ان هذه المحارة او الصدفة الظاهرية التي تشاهد من الخارج هي عظم الحيوان والذي في داخله لحمه يعني ان هذا الحيوان يكون عظمه خارجاً وقد جعل وقاية للحمه ولحمه من الداخل على خلاف باقي الحيوان وقال اخرون وهو المرجح عند الاكثرين ان الحيوان انما هو اللحم وليس هذا المحار جزءاً من جسمه وانما يتكون من فضلات يبرزها الحيوان فتتراكم على بعضها وتختلف في الكبر والصغر بحسب كبره وصغره ومن النعم الالهية والاحسانات الربانية عموم وجوده في بحار الدنيا وانهارها ومحار كل جهة اوصاف وخصائص تميزها تخالف صفات ما يوجد في غيرها من الجهات

كما ان الذي ينشأ منه في البحار يخالف ما ينشأ منه في المياه العذبة
والانهار وقد صار هذا الحيوان مما يستدل به على عمر الارض وما
مضى عليها من الزمن بحسما يوجد في طباقها واعماقها من اثاره

المسامرة الحادية والاربعون الودع

فقال الشيخ كم لله في الكون من اسرار عظيمة وبدائع غريبة
لا يفقهها كثير من العالم فهذا المحار يراه كثير من الناس من غير
ان يتأملوا فيما فيه من عظيم صنع الصانع الحكيم وحسن تدبيره
وعجيب حكمته وانما يشتغلون بما يقع تحت نظرهم من شكله ولونه
وهيئته من غير ان يعرفوا فيه حيوان ام لا وان كان فيه حيوان
فما حاله وما كيفية معيشته فعادة عامة الناس ان لا يوجهوا افكارهم

الاً لما يظهر لهم فيه فائدة خصوصية او تضطرهم اليه حاجة وقتية ولا يلتفتون الى ما ذكر ومن ذلك مسألة الودع مثلاً فان كثيراً من العالم يتخذونه زينة ويضعونه على رؤس اولادهم زعماً منهم ان في ذلك حفظاً لهم من بعض الامراض فتراهم يميزون بعض انواعه على بعض وبهذا التمييز تعلوا القيمة وترخص من غير ان يلتفت البائع ولا الشاري لحاله وخلقته وكيفية معيشته وما فيه من عظيم الخلقة وعجيب الصنع وبعض الناس يزعم ان فيه سرّاً وان به يمكن ان يطلع على ما في الغيب بواسطة جمعه بين الكفين ونثره والتأمل في اوضاعه عند وقوعه على الارض ويستنبطون من ذلك بزعمهم اموراً من الغيبات يعتقدون صحتها ويصدق العامة بعضهم بعضاً في ذلك بل كثير من ضعفاء من يدعي العلم وبعض اصحاب المظاهر يتوهمون صدق ذلك وهذا كله ما لا يعلم له اصل ولا يعرف له وجه فان الله سبحانه وتعالى كما خلق عالم البر وجعله انواعاً كذلك خلق عالم البحر وجعله انواعاً ومن عالم البحر نوع هذا المحار ومن هذا النوع الودع كل ذلك لحكم ازالة واسرار على عوام الخلق خفية فحق على كل ذي نظر سليم وعقل مستقيم ان ينعم نظره ويمعن فكره فيما يراه من مصنوعات الله ليعرف مزيته وسره ويطلب من خالقه الهداية الى الوقوف على سر ما اودع فيه من الحكمة الباهرة والصنعة الزاهرة ليزيد علمه ومعرفته ويكمل به منفعته ولا يغتر بما علمه وحصله لانه كالعدم بالنسبة

لما جهله ولا يقف عند علم الظواهر فانه حجاب يمنع من معرفة
 السرائر كغائص البحر لاخراج الدر يكتفي بمعرفة نفاسه وغلو ثمنه
 وعزته ويغفل عن معرفة اصل خلقتة والاسباب التي نشأ عنها
 والمواد التي تولد منها مع ان معرفة ذلك ربما ادت الى معرفة
 امور يقوى بها ايماننا ويتسع بها معاشنا

المسامرة الثانية والاربعون اللؤلؤ

فقال له يعقوب ان ما ذكرته حق ومعرفة الاصل في كل
 شي احق ولذلك لما وقف الهنود واهل الصين على كيفية تكوين
 اللؤلؤ في بطن المحار تحايلوا في تكثيره بكل حيلة حتى كثرت
 التجارة فيه عندهم وزادت عما كانت عليه في الازمان السابقة

فحصل لهم بسببه فوائد عظيمة حصلوا منها أموالاً جسيمة حتى كانت اعظم اسباب غناهم وكان السبب في ذلك أنهم رأوا في داخل بعض اللؤلؤ اشياء دقيقة مثل رملة او بيضة سمكة فاستنبطوا من ذلك ان اللؤلؤ يتكون في داخل المحارة من حدوث عارض خارجي مثل ما ذكر فتحملوا على ادخال شي من هذه الاجسام واشباهها بين فلتقي بعض محار لم يكن حدث فيه لؤلؤ ثم نظروا فيه بعد ذلك فراه قد صار فيه لؤلؤا فعملوا صحة ما ذهبوا اليه واستعملوا ذلك في كثير من انواع المحار فنجحت اعمالهم وكثر اللؤلؤ عندهم وعظمت تجارتهم وزاد انتفاعهم وقد حقق اهل الفن ان اللؤلؤ يحدث في المحار من مرض يعرض لحيوانه عند دخول جسم غريب في جوفه فيضر بصحنه ويتراكم حول هذا الجسم الغريب في كل سنة مواد صدفية يتكون منها اللؤلؤ فتارة يكون كبيراً وتارة صغيراً ومنه ما يوجد ملتصقاً بالمحارة وما يوجد في داخل غشاء الحيوان نفسه

فقال الشيخ رأيت في بعض الكتب ان هذا اللؤلؤ يتكون من مطر ينزل في شهر نيسان فتتلقى بعض قطراته الحيات ويقع بعضها في الاصداف فما وقع في افواه الحيات صار سماً نافعاً وما وقع في الاصداف تبلور وصار لؤلؤاً وعلى هذا قول الشاعر
ارى المعروف عند الحرّ ديناً * وعند النذل منقصة وزما

كقطر الماء في الاصداف در * وفي جوف الافاعي صار سما
وقيل غير ذلك

فقال يعقوب الصحيح المحقق الان هو ما ذكرته لحضرتكم
ويوجد محاره في عدة بحار في جهات مختلفة مثل البحر الاحمر في
سواحل العرب وفي سواحل مملكة بابونيه بجز الهند وفي سواحل
الكاليفورنيه بامريكا ومعرفة كيفية استخراجها من الامور المهمة في
جهات وجوده

وهذا الصدف في العادة يوجد على الصخور في المحلات العميقة
من البحر بعيداً عن الشاطئ والعادة في استخراجها بجهة سيلان ان
تجتمع المراكب المعدة لذلك وتسير الى ان تقرب من موضعه ويكون
في كل مركب عشرون رجلاً عشرة لخدمة المركب وعشرة
يتناوبون في الغوص عليه خمسة فخمسة وكيفية ذلك ان يشد
كل منهم في احدى رجليه حبلاً فيه حجر لسهولة نزوله الى قاع
البحر بسرعة ويجعل في رجله الاخرى حبلاً اخر فيه شبكة كالمخلاة
وياخذ بيده البنى حبلاً ثالثاً قد شد طرفه الاخر بالمركب ليصعد
به بعد انتهاء عمله ويسد انفه بيده اليسرى حين يلقي نفسه في
البحر فاذا وصل الى قاع البحر حوّل المخلاة التي في احدى رجليه
الى عنقه ثم يجمع ما يجده من المحار ويضعه في تلك المخلاة فاذا
ضاق نفس الواحد منهم في اثناء الغوص هزّ الحبل الذي بيده
فبشدونه الى سطح الماء وغاية ما يمكن للغطاس ان يمكث تحت الماء

نصف دقيقة فيغطس الواحد منهم بهذه الكيفية ثلاث مرات متوالية وان كان الجوموافقاً ربما غطس الواحد منهم نحو خمسة عشر مرة على التوالي وكثيراً ما يخرج من انوف الغطاسين وافواهم واذاهم بعد خروجهم من البحر ماء مختلط بدم وربما تغنلهم حيوانات الماء خصوصاً الحيوان المسمى بكلب البحر فانه يتربص نزولهم ليفترسهم

فانظر كيف يجعل الانسان نفسه عرضة للتهلكة لاجل الحصول على معيشته ويرى النساء والبنات يجملن بهذا اللؤلؤ ويتحلىن به ولا يبالين بان الحبة الواحدة منه ربما قد يسببها واحد من الناس فهذه كيفية استخراج المحار من البحر فقال الشيخ ذكرت بما حكيت من صفة استخراج هذا المحار قصيدة للاعشى ميمون مدح بها قيس بن معدي كرب الكندي تغزل في اولها بمحبوبته الى ان شبهها بالدرة ثم استطرد فوصف الدرة وحسنها ومن استخرجها من محلها وكيف عانى الشدائد في تحصيلها فقال وقد ذكر محبوبته

كجمانة البحريّ جاء بها * غواصها من لجة البحر
صلب الفواد رئيس اربعة * متخافي الالوان والبحر
فتنازعوا حتى اذا اجتمعوا * القوا اليه مقالداً الامر
وعلت بهم سمجاء خادمة * تهوي بهم في لجة البحر
حتى اذا ما ساء ظنهم * ومضى بهم شهر الى شهر

التي مراسيه بتهلكة * ثبتت مراسيها فماتجري
فانصب استف راسه لبد * نزع ربا عيناه للصبر
اشفى يمح الزيت ملتمس * ظمأن ملتهب من الفقر
قتلت اباه فقال اتبعه * واستفد رغبة الدهر
نصف النهار الماء غامره * وشريكه بالغيب ما يدري
فاصاب منيته فجاء بها * صدف كفضة الجهر
يعطى بها ثمنا وينعمها * ويقول صاحبها الاتشري
وترى الصواري يسجدون لها * ويضمها بيديه للتجر
فلتلك شبه الماء لكنها * طلعت بيهجتها من الخدر

قال يعقوب لقد اجاد هذا الشاعر في حسن اسلوبه ولكني
قد استعجم علي فهم بعض هذه الايات فارجوان تم فضلك علي
بشرح ما يحتاج الى الشرح منها

قال الشيخ نعم قوله كجمانة البحري الخ اراد به تشبيه محبوبته
بالجمانة التي استطرد في صفتها والجمانة بضم الجيم واحدة الجمال
وهو اللؤلؤ وقيل حبات تصاغ على شكله من الفضة والمراد هنا
الاول وقوله جاء بها غواصها من لجة البحر يوافق ما مر في كلامكم
من ان صدف الدر يوجد في المحلات العميقة من البحر بعيداً عن
الشاطئ وصلب الفواد بضم الصاد اي قوته وشديده وهو صفة
الغواص وقوله رئيس اربعة يوافق ما ذكرته في صفة الغواصين
من انهم يتأوبون الغوص خمسة فخمسة وقوله متخالفي الالوان

صفة الاربعة والاضافة لفظية والجبر بفتح النون وسكون الجيم
الاصل يعني ان هؤلاء الاربعة اصلهم مختلف والوانهم مختلفة وقوله
القوا اليه مقالدا الامر اي ملكوه زمام امرهم والمقالد جمع مقلد وهو
المتفاح وكذلك يجمع على مقاليد والاقليد المتفاح ايضا معرب
ككيد الفارسي وجمعه مقاليد على غير قياس والاقليد ايضا برة
الباقة وهي حلقة تحبل في انفها والسجاء بتقديم الجيم على الحاء هي
الطويلة الظهر واراد بها السفينة وقوله فانصب اسقف الخ اراد به
انه التي نفسه في البحر غائصة ليستخرج الدر والاسقف بفتح الالف
والقاف من السقف بنحنيين وهي طول في انحاء ولبد بكسر الباء
اي متلبد وقوله اشفى فعل ماض يقال اشفى على الشي اذا اشرف
عليه ويح الزيت يقذفه من فيه كما هي عادة الغائص قال
المسعودي غاصة هذا البحر (يعني البحر الذي فيه صدف الدر)
يكون معهم دهن له في الماء بريق فاذا راوا حيوانا مؤذيا ارسلوا منه
شيئا فارتج في البحر صاعدا فتراه تلك الحيوانات فتفزع منه وتنفر
عنه وكل من قوله اشفى وقوله يبع فاعلمها ضمير اسقف وملتمس
وما بعده من الوصفين نعوت لاسقف وقوله قتلت اباه الخ اي ان
اباه هلك في حب هذه الدرة او في تحصيلها فتال هذا الغائص
اتبعه في الهلاك او استفيد مالا كثيرا والرغبة ما يرغب فيه وقوله
نصف النهار روي بفتح النون والصاد والفاء ونصب النهار من
قولهم نصفت الشي اذا بلغت نصفه وهو بهذه الرواية يذكر في النخوت

هذا على محبي ضمير صاحب الحال في اخر الجملة الحالية فان الماء مبتدا وغامره خبره والجملة حال من ضمير نصف العائد الى الغائص وهذا ضعيف قليل وروي برفع النهار والجملة حال منه ولا رابط فتقدر الواو وقوله وشريكه بالغيب ما يدري وفي رواية رفيقه اي لا يعرف رفيق هذا الغائص حاله لكونه يغيب تحت الماء ومنيته هي ما يتمناه وصدفية حال من الضمير في قوله بها وقوله الا تشري اي الا تبيعها والصواري الملاحون وسجودهم لها لعزتها ونفاستها والتجر مصدر تجر يتجر تجراً وتجارة من باب نصر فهذا بعض ما يتعلق بهذه الايات من الشرح اما ما ذكرت من كيفية استخراج الصدف من البحر فقد رايت في بعض الكتب العربية ككتاب التيفاشي في الاحجار نحواً منه ولكني لم اجد فيما رأيت منها كيفية استخراج اللؤلؤ من ذلك الصدف بعد اخراجه من البحر

قال يعقوب العادة في ذلك ان يفرز ما استخرجه كل واحد منهم على حدته ويترك حتى يموت الحيوان ويتعفن فيفتحون الصدف ويخرجون اللؤلؤ من جوفه وبعد ذلك يضعون اللحم في قدر ويوقدون عليه بالنار لتذوب مواده فيخرجون ما يجدونه في داخله من اللؤلؤ وجميع ما يؤخذ قبل الغلي له اناس ينظّمونه في سمط او اكثر ثم يجلونه بترابه او بتراب الصدف ولاجل ترتيب اللؤلؤ على حسب تفاوت درجاته ينزلونه من غرايل مرّ نحاس

عيونها متفاوتة في القلة والكثرة والضيق والسعة وقد جعل لكل واحد من هذه الغرايل نمرة على حسب ما فيه من العيون فما كانت عيونه عشرين كانت نمرته عشرين وما كانت عيونه ثلاثين كانت نمرته ثلاثين وهكذا

فاللؤلؤ الكبير الحبات الذي لا يمر من شي من هذه الغرايل يتال له من الدرجة الاولى والذي يمر من غربال نمرته مائة فاكثر الى ثمانمائة يطلق عليه اسم الدرجة الثانية والذي يمر من نمره الف يطلق عليه اسم الدرجة الثالثة

واما الصدف الذي يخرج من محار اللؤلؤ فهو الطبقة الباطنة للحجارة لا الظاهرة وهو ثلاثة انواع فصي وابيض واسود فالاول يجلب من الهند والصين والبيرو والثاني يكون من صخور مخضرة او حمراء والثالث من صخور زرقاء مشوبة بسواد ويكون فيه عروق حمراء او زرق او خضر

واوان استخراجها من البحر في جهة سيلان شهر فبراير او شهر مارث ومدة استخراجها شهر واحد والمشتغلون باستخراجها بهذه الجهة قريب من مائتي مركب وقد تحصل منه في سنة ١٧٩٧ من الميلاد وهي سنة ١٢١٢ من الهجرة ثلاثة الاف الف وستمائة الف من الفرنكات وزاد في السنة التي بعدها نحو ثمانمائة الف فرنك ثم في ابتداء سنة ١٨٠٢ للميلاد الموافقة لسنة ١٢١٧ من الهجرة اعطي من قبل الحكومة الانكليزية لمن تعهد به في مقابلة ثلاثة

الاف الف فرنك التزاماً

وليس هذا النوع مختصاً بجزيرة سيلان بل يستخرج ايضاً في جهات متعددة مثل جهة بنجال وبحر الصين والهند والبابونيا وغيرها وبلغ مقدار ما يتحصل في الجهات الهندية في السنة الواحدة من اللولو والصدف نحو العشرين الف الف فرنك

ومن يتجر في اللولو والصدف اهل السواحل المقابلة للعجم اعني سواحل بلاد العرب قال بعضهم ان الذي يتحصل من جهة البحرين خاصة في كل سنة يقرب من ستة الاف الف فرنك وان اخراجه في هذه الجهات في شهر يولييه وشهر اغسطس وما زال اللولو في جميع الازمان عند جميع الامم مستعملاً في حلي النساء وزينتهن وكان الرومانيون يكللون به بعض ملابسهم وتيجانهم وبعض فرشهم ويقال ان كلوباتره وضعت مرة في قدح الشراب لولو قيمتها الف الف فرنك وخمسمائة الف فرنك

ثم سرى اتخاذه والافتخار به من الرومانيين الى المشرقيين ثم الى الاوروبيين وفي كتب التاريخ انه في سنة ١٥٧٢ للميلاد وسنة ٩٨٧ للهجرة اهدي الى فيليب ملك اسبانيا لولو في حجم الكمثرى وانه وجد سنة ١٦٠٥ من الميلاد وهي سنة ١٠١٤ من الهجرة عند امرأة من اسبانيا لولو بلغت قيمتها احدى وثلاثين الف بندي وان البابا ليون العاشر اشترى من بعض جوهريه البنادقة لولو بلغت ثمنها ثلاثمائة الف وخمسين الف فرنك وفي

القرن السابع عشر للميلاد والحادي عشر للهجرة اشترى ملك العجم
لولوة بالفي الف وسبعمائة الف فرنك ويوجد عند ملك العجم
الان سبعة كل حبة منها قدر حبة الجوز لا يقدر لها قيمة وكذلك
عند امير مسقط لولوة لا نظير لها على وجه الارض والذي يوجب
للولوة ارتفاع قيمته وزيادة ثمنه كبر حجمه وحسن لونه وقد كنت
سمعت في ما يسمى به الكبير والصغير منه تفصيلاً لا يحضرني
الان

قال الشيخ يطلق على الكبير والصغير منه اسم الجوهر ومخصص
الكبير باسم الدر والصغير باسم اللؤلؤ ويسى ايضاً الحب واللؤلؤ
الدق ولولو النظم

قال يعقوب فهل للكبر والصغرفيه حد معين
قال الشيخ نعم قال التيفاشي في كتاب الاحجار كل ما زاد
عن ورن درهين ولو حبة واحدة في الجوهرة المفردة سمي في
اصطلاح الجوهرين دراً فاذا نقصت في الوزن عن درهين ولو
حبة ايضاً سميت في اصطلاحهم حبة بشرط اجتماع سائر الاوصاف
الجيدة في الدرة فان كانت زنتها اكثر من درهين ولو ثلاثة مثلاً
او اكثر الا ان فيها عيباً من عيوب الجوهر فانها تسمى ايضاً في
اصطلاحهم حبة ولا يعتبر وزنها مع عدم اجتماع الاوصاف الجيدة
فيها والجودة في الجوهر تكون استكمال خواصه المطلوبة فيه اما من
حيث الكمية فبالعظم وكثرة الوزن واما من حيث الكيفية فبشدة

البياض وكثرة الماء والاشراق واستواء اللون واستواء استدارته
وشكله واكتنازه وما لم يكن كذلك فالآفات افسدته منها انه
ربما كانت الدرة لم تتم تربيتها وربما لصق بها شي من لحم الحيوان
فصار كالصدى والوسخ فافسد لونها وربما كانت كدرة او كان
فيها ماء او دودة او كانت مجوفة غير مصمتة وكل هذا من آفات
دخلت على الدرة في مقر التربية لها واما فساد شكلها فمن قبل ان
الحبة تقع في موضع من اللحم الذي في الصدفة غير مستو فتتجسد
الدرة على صورة الموضع الذي ضمها فحيد الجوهر في الجملة هو
المدحرج اي المستدير من جميع جهاته الصافي الشفاف الكبير الحجم
الكثير الوزن النقه اللون الضيق الثقب وجيد اللولو الدق هو
الابيض النقي من الوسخ ثم ذكر تفصيل اثنائه على حسب ما كان
قبل فقال اذا كان وزن الجوهرة مثقالاً وهي مستوفية لشرائط
الجودة كانت قيمتها ثلاثمائة دينار فاذا كانت جوهرتين كل واحدة
منها زنتها مثقال وهما بهذه الصفة وبشكل واحد لا يفرق بينهما
في الشكل والصورة كانت قيمتها اكثر من سبعمائة دينار لاجتماعهما
وتناسبهما في النظم واذا كان وزن الاثنتين مثقالاً وهما بهذه الصفة
كانت قيمتها مائة دينار واذا كان وزنها ثلثي مثقال كانت قيمتهما
خمسین ديناراً ورأيت في بعض النسخ نيفاً وعشرين ديناراً واذا
كان وزنها نصف مثقال كانت قيمتهما عشرين ديناراً فاذا كان
وزنها ثلث مثقال كانت قيمتهما خمسة دنائير والدرة وهي التي

وزنها درهان و حبة مثلاً او حبتان كما مر اذا اجتمع فيها شرائط
 الجودة كانت قيمتها سبعمائة دينار فان كانتا اثنتين على الصفة
 المذكورة كانت قيمتهما ألفي دينار كل واحدة منهما بألف دينار
 بشرط اجتماعها بالآخرى والعقد المتعارف عند اهل بغداد خمس
 وثلاثون حبة اقل ما يكون وزنه سدس مثقال وهي اربعة
 قراريط قيمة عشرة عقود من هذا العقد ثلاثة ارباع دينار عقد
 ربع مثقال عشرة عقود بدینار عقد ثلث مثقال عشرة عقود بدینار
 وربع عقد نصف مثقال عشرة عقود بدینارين عقد ثلاثة ارباع
 مثقال عشرة عقود باربعة دنانير عقد مثقال عشرة عقود بعشرة
 دنانير عقد مثقال وربع بخمسة عشر العشرة عقد مثقال ونصف
 بعشرين العشرة عقد مثقال ونصف وربع بخمسة وعشرين العشرة
 عقد مثقالين بخمسة وثلاثين العشرة عقد مثقالين وربع باربعين
 ديناراً العشرة عقد مثقالين ونصف بخمسين العشرة عقد مثقالين
 ونصف وربع بسبعين العشرة عقد ثلاثة مثاقيل بثمانين العشرة
 عقد ثلاثة وربع بتسعين العشرة عقد ثلاثة ونصف بمائة وعشرة
 العشرة عقد ثلاثة ونصف وربع بمائة وخمسين العشرة عقد اربعة
 مثاقيل بمائتي دينار العشرة فان كان نهاية في الجودة والصفاء
 والمائة كانت قيمة العقد الذي زنته اربعة مثاقيل كل عشرة عقود
 ثلاثمائة دينار لكل عقد ثلاثون ديناراً ويخرج بعقوده حينئذ من
 باب العشرات الى باب الاحاد فتكون قيمة العقد الواحد الذي

زنته أربعة مثاقيل ونصف أربعين دينارا وعقد أربعة ونصف
وربع بخمسة وخمسين دينارا وعقد خمسة مثاقيل بخمسة وستين
دينارا وعقد خمسة ورابع بخمسة وسبعين دينارا وعقد خمسة
ونصف ورابع بتسعين دينارا وعقد ستة بمائة دينار وعقد سبعة
بمائة وخمسين دينارا

ويتضاعف بهذه النسبة الى اعظم ما يوجد منه في الوزن
والغبطة فيه بحسب جودة اوصافه التي تقدم ذكرها وخلوه من
العيوب وعيوبه التصديف وعدم الاستقرار (اي عدم الاستدارة)
والصفرة والانبراص وهو فتح البياض وحصبته وعدم رونقه وسعة
الثقب وصغر الحزم وقلة الوزن (اه مع تصرف واختصار)

وقد سمعنا بكثير من هذه الاحجار الثمينة كانت للموك في
الازمان الخالية قومت باموال كثيرة على نحو ما ذكرت وقد اورد
الشيخ محمد بن ابي طالب الانصاري الصوفي اشياء من ذلك في
كتابه نخبة الدهر في عجائب البر والبحر فمنها درة حملها مسلم بن
عبد الله العراقي الى الرشيد فابتاعها منه بتسعين الف دينار
وعرفت بالدرة اليتيمة لانها لم يوجد لها اذ ذاك في الدنيا نظير
وكان للتوكل سجة فيها مائة حبة اشترت كل حبة منها بالف
مثقال قال وكان فيما اهدى ملك الهند الى كسرى جام ياقوت
احمر فتحه شبر مملوء دراً قيمة كل درة الف وخمسمائة مثقال وكان
لأنوشروان. بساط الشتاء مرصع بازرق الجواهر واحمره واصفره

وابيضه واخضره وانواع الجواهر فلما اخذ في زمن عمر بن الخطاب رضي الله عنه في وقعة الفارسية حمل اليه في الفئ فلما رآه قال ان امة ادت هذا الى اميرها لاماء ثم فرقه فوق منه لعلي بن ابي طالب رضي الله عنه قطعة في قسمة مقدارها شبر في شبر باعها بخمسة عشر الف دينار

المسامرة الثالثة والاربعون

الدينار

فقال يعقوب الحديث شجون ارجوك ايها الاستاذ ان تمنّ بشرح لفظ الدينار ومعناه فكثيراً ما اسمعه في العربية ولا اعرفه قال الشيخ لفظ الدينار قال صاحب القاموس وغيره انه معرب اصله دينار بتشديد النون فابدل من احدى النونين ياء

لئلا يلتبس بالمصادر ككذاب وها هنا مباحث

الاول قد ذكروا انه معرب ولم يذكروا من اي لغة عرب وقد وقع في البرهان وغيره من كتب اللغة الفارسية بالياء كما هو في العربية فيظهر كما في الاوقيانوس انه مركب من لفظتين احدها (دين) والثانية (آر) الاولى بمعنى الطاعة والمحشمة والاسلوب والدولة والسلطنة والثانية بمعنى المحضر والحصل بصيغة اسم الفاعل من احضر وحصل فيكون معنى دينار محصل ما ذكر لانه سبب تحصل ذلك

الثاني قالوا ان اصله دنار ثم قلبت النون ياء والذي في الكتب الفارسية دينار بالياء كما مر على انه فارسي وقد وجد في كتب العربية بالياء ايضاً فالظاهر انهم توهوا فيه انه عرب على دنار بابدال الياء نوناً ثم استعملوه بقلب نونه ياء للتخفيف او اصله عربي برأسه اصله دنار ثم خفف بالابدال المذكور

الثالث الدينار قطعة مضروبة من الذهب للتعامل بها والمعتبر في مقداره شرعاً مثقال من الذهب كما هو مذكور في الكتب الفقهية في باب الزكاة وغيره وترى الفقهاء تارة يقولون في نصاب زكاة المال انه عشرون مثقالاً وتارة يعبرون بالدينار ومرادهم بالدينار والمثقال شي واحد والمثقال المعتد شرعاً درهم وثلاثة اسباع درهم قال الطحطاوي في حاشية على شرح الدراعم ان الدراهم كانت في عهد عمر رضي الله تعالى عنه مختلفة

فمنها عشرة دراهم على وزن عشرة مثاقيل وعشرة على ستة مثاقيل وعشرة على خمسة مثاقيل فاخذ عمر رضي الله عنه ثلثاً كيلا تظهر الخصومة في الاخذ والاعطاء فثلث عشرة ثلاث وثلث ستة اثنان وثلث خمسة واحد وثلثان فالمجموع سبعة وان شئت فاجمع المجموع فيكون واحداً وعشرين فثلث المجموع سبعة ولذا كانت الدراهم العشرة وزن سبعة وهذا يجري في كل شي حتى في الزكاة ونصاب السرقة والمهر وتقدير الديات (انتهى)

ورأيت للشيخ مصطفى الذهبي الشافعي المصري رسالة في تحرير الدرهم والمتمقال حررها سنة ١٢٧٣ من الهجرة قال فيها اما الدرهم والمتمقال فقد بصوا على اهمهما لم يختلفا جاهلية واسلاماً يعني ان مقدارهما في الاسلام لم يتغير عما كان في الجاهلية مما حرره اليونان فقد تعامل الناس به حين ورود الاسلام مع سكوت السارع على ذلك فالدرهم والمثاقيل الواردة في الزكاة وغيره محمولة على ذلك وليست مهمة خلافاً لما توهمه بعضهم ونقل ابن الرفعة في التبيان والسروجي في شرح الهداية والسيوطي في قطع المجادلة والمقرئزي وعبد القادر الصوفي وغيرهم ان اليونان قدروا الدرهم باربعة الاف ومائتي حبة من حب الخردل البري وقدروا المتمقال بستة الاف حبة من ذلك فالدرهم سبعة اعشار المتمقال اي نصفه وخمسه والمتمقال درهم وتلاثة اسباع درهم فالعشرة دراهم سبعة مثاقيل وذلك على قياس نسبة الذهب الصافي لمثل مساحته

من الفضة الصافية فان الذهب حيثئذ يكون اثقل من الفضة بثلاثة اسباعها كما هو معلوم . هذا كلامه والذي اعلمه من كلام ما قدمنا ذكره ان الثقل النوعي للذهب الصافي بالنسبة للماء المقطر تسعة عشر وربع وثقل الفضة الصافية ايضاً عشرة ونصف وعلى هذا يزيد وزن الذهب عن مثل مساحته من الفضة ثلثي مرة وثلث مرة تقريباً لا ثلاثة اسباع فلو اخذنا كرة من الفضة الصافية ووجدنا وزنها مثقالاً مثلاً ثم اخذنا كرة من الذهب الصافي مثل مساحتها ووزنها لوجدنا وزنها مثقالاً وثلثي مثقال وثلث مثقال تقريباً لا مثقالاً وثلاثة اسباع فلينظر

ثم قال الذهبي وانما قاسوا على هذه النسبة لغلبة استعمال الدرهم والمثقال في التقدين مع استتار المثقال في الذهب والدرهم في الفضة وانما قدروا بالخرذل البري لكونه نوعاً واحداً لا يختلف خفة ووزانة كما نقله الميريزي وغيره فالتقدير به منسوق مطرد بخلاف باقي المحبوب فانه مختلف فلا يصح التقدير به نعم اذا كان الحب متوسطاً في نوعه خفة ووزانة صح التقدير به كما صنع المتأخرون روماً لقلّة العدد حيث قدروا الدرهم من الخرذل البستاني الاحمر المعتدل المتساوي بالف حبة ومن الششم الهندي الاسود البالغ المعتدل المتساوي بمائة واربع واربعين حبة ومن الشعير اعزل الملائن المعتدل بخمسين شعيرة وخمسين ومن حب الخرنوب الاصم المعتدل المتساوي بستة عشر حبة واربعة

اخماس وقاسوا المئقال على الدرهم بالنسبة السابقة وجعلوا ذلك
 على وزن ما قدر به اليونان لكن لا يخفى ان المتوسط في الخفة
 والرزانة انما يعلم بمراعاة اوقات الاستنبات من الفصول الاربعة
 الزمنية واما كنهه كما افاده ابن ابي الفتح الصوفي في رسالته تحفة المنظار
 في انشاء العيار وذلك قد لا يتيسر فالاقرب بل العدة على
 التحرير بالخردل البري فيؤخذ منه خمسون خردلة ويحرر بها
 صنجة لخمس حبة الخرنوب ويحرر بالمجموع صنجة للخمسين وبالمجموع
 صنجة لاربعة اخماس وبالصنجة الاولى والثالثة صنجة للحبة وتسمى
 قيراطاً فمجموع الصنجة الاربعة قيراطان وخمسان وذلك سبع درهم
 وعشر مئقال فيركبان على هذه النسبة كما مر فالمئقال اربعة
 وعشرون قيراطاً والدرهم ستة عشر قيراطاً واربعة اخماس قيراط
 والقيراط مقدار مائتين وخمسين خردلة وجعله السادة الخنفية
 مقدار ثلثائة خردلة حيث قالوا المئقال عشرون قيراطاً والدرهم
 اربعة عشر قيراطاً وهو اصطلاح روعي فيه النسبة بدون كسر
 فتدبر وقد حدث في عرف مصر جعل الدرهم الشرعي ستة عشر
 قيراطاً والمئقال درهما ونصف درهم فيكون القيراط المصري مقدار
 مائتين واثنين وستين خردلة ونصف خردلة ويكون المئقال
 مقدار ستة آلاف خردلة وثلثائة فيزيد عن المئقال الشرعي قيراطاً
 مصرياً وسبع قيراط فالمئقال الشرعي من القيراط المصرية اثنان
 وعشرون قيراطاً وستة اسباع قيراط كما هو مقتضى النسبة الشرعية

ويوجد في بعض البنادقة ما هو بهذا المقدار وبسبب الشخص وقالوا انه معيار للمنتال الشرعي كما افاده الشيخ الصوفي فالمنتال المصري منتال شرعي ورربع خمسة فالعشرون من المائات المصرية واحد وعشرون بالمنتال الشرعي واما الدرهم فقد علمت انه شرعي وقد حررناه على درهم الملك الاشرف المكنوم بختمه المحرر على الدرهم الشرعي فوجدناه مثله (اه المراد منه)

واما عيار الدينار وقيمه فقد كنت تكلمت في ذلك مع رجل من نهباء الصيارفة وكان يعرف باثقان لغة الفرنسيين وكثرة الاطلاع على كتبهم فقال لي نقلاً عن بعض مؤلفهم كان عيار الدينار في الاصل عند جميع الامم عالياً جداً يكاد يكون ذهباً خالصاً فقد عثر على دينار مضروب في مدينة دمشق سنة ٩٧٠ من الهجرة وحرر عياره في دار الضرب بمدينة باريس فوجد في عيار ٩٩٧ بالنسبة للالف يعني $\frac{2}{3}$ قيراط ٢٢ ويقرب منه الدينار الذي ضرب في زمن ابن طولون فانه كان عياره ٩٩٦ وكان يعرف بالاحمدي فين هذا العيار وعيار صنف المحبوب الذي كان يضرب بمصر مدة استيلاء الفرنسيين عليها تفاوت كبير وفرق ظاهر لانه كان عياره $\frac{2}{3}$ قيراط ١٦ يعني ٦٩٨ بالنسبة للالف وقيمة الدينار الذي كان التعامل جاريًا به الى القرن الثالث من الهجرة اربعة عشر فرنكاً وواحد وخمسون سنتياً وذلك يساوي بالعملة الديوانية الميرية المعروفة بالصاغ (وهذا باعتبار

عبارة في تلك الاوقات وهو ٩٨٧ بالنسبة للالف ووزنه بالجرام ٤٢٨٢ جراماً وهو اصغر من المئقال الشرعي بجزء من سبعة وثلاثين تقريباً فان وزن المئقال الشرعي الذي هو درهم وثلاثة اسباع درهم يساوي علي حسب ذلك ١٦ باره و٥٧ غرشاً بالعملة الديوانية المذكورة (اه)

وقد وجدت هذه القيمة قريبة مما يستنبط من رسالة الشيخ الذهبي المتقدم ذكرها فانه بين فيها مقدار نصاب الزكاة من كل نوع من انواع النقود المتداولة في مصر فقدر النصاب من الجنيهات المصرية باحد عشر ونصف وربع وهي بمبلغ ١١٧٥ غرشاً والنصاب عشرون مثقالاً من الذهب فيخص كل مثقال باره ٢٠ وغروش ٥٨ وكذلك من العملة الفرنسية المعروفة (بالبنتو) فان النصاب منها بمقتضى الرسالة المذكورة خمسة عشر وثلث فالمئقال فيها يساوي نحو ٨٩ غرشاً وكلاهما قريب مما مر ذكره وفس عليهما غيرها قال وقيمة المئقال من ذهب البنتو بما فيه من الاضافة تساوي الان في مدينة باريس خمسة عشر مثقالاً ونصف مثقال من فضة الريال المعروف بالشنكوبما فيها من الاضافة ايضاً والاضافة عندهم في كل من الذهب والفضة تكون بقدر العشر وقد صدر منشور من جانب الحكومة المصرية في اوائل شهر ربيع الاخر سنة ١٢٧٥ في تعيين مقدار الدية الشرعية فقدر فيه للدينار وهو المئقال اربعون غرشاً وثلثون فضة وخمسة جدد

وللدرهم قرش وتسع وعشرون فضة باعتبار الدرهم وهو قيراط ١٦
 يزيد قيراطين عن الدرهم الشرعي وذكر فيه ان حضرات العلماء
 المنوطين بالافتاء في مجلس الاحكام المصرية قرروا بعد المخاطبة مع
 ناظر دار الضرب وتحقيق الاسعار والاوزان بحسب اسعار الذهب
 والفضة الغالبن على المضاف ان الواجب في الدية الشرعية
 باعتبار الاسعار الجارية وقتئذ بالنظر لقيمة الغالب في الفضة اي
 باعتبار الثلثين من الفضة والثلث من المضاف خمسة عشر الف
 قرش وثلاثة وتسعون غرشاً وثلاثون فضة بالعملة المعروفة بالصاغ
 الديواني وذلك قيمة عشرة الاف درهم شرعي وإذا اعتبرت الدية
 من الذهب الغالب على غيره بالمعنى المذكور في الفضة تبلغ اربعين
 الف قرش وسبعائة واثنين وستين غرشاً وعشرين فضة بالعملة
 المذكورة وذلك قيمة الف دينار والدينار هو المثلث كما مر
 (اه المراد منه)

وذكر المقرضي ان قيمة النقود في السبعة القرون الاول من
 الهجرة اعترتها تغيرات كثيرة ومنها الدينار فكان في سنة ٣٦٢ من
 الهجرة يساوي خمسة عشر درهما ونصف درهم وفي زمن الحاكم بامر
 الله ابي علي المنصور بن العزيز كثرت الدراهم كثرة عظيمة وكثر
 فيها الغش فصار الدينار يبادل باربعة وثلاثين درهما وعلت
 اسعار الاشياء وضجر الناس من ذلك فامر بجمع الدراهم الموجودة
 فجمعت وضربت جديداً بغير اعلى مما كانت عليه وتقل من دار

الضرب ٢٠ صندوقاً مملوءة دراهم جديدة ومنعت المعاملة بالتقدمة
وامر بردها في ثلاثة ايام فكان الناس يستبدلون الدرهم الجديد
باربعة قديمة وجعلت قديمة الدينار ١٨ درهما من الدراهم الجديدة
قال ولم يزل التعامل بالدينار مستمراً بمصر وسائر البلاد الاسلامية
الى مدة السلطان صلاح الدين فكانت اجرة الاجير وثن البضائع
وخراج الارض تقدر بالدينانير وكانت الدينانير المتداولة بمصر
مختلفة فمنها ما كان من ضرب مصر ومنها ما كان وارداً من بلاد
الروم وكانت الدينانير الواردة من الروم تعرف بالهرقلية
وكان يتعامل الناس ايضاً بالعملة المعروفة بالبندقي نسبة الى
مدينة البنادقة (ونديك) من بلاد ايطاليا

وقد وجدت دينانير مضروبة في مصر باسم احمد بن طولون
سنة ٢٥٤ من الهجرة وضرب القائد ابو الحسن جوهر الصقلي بمصر
في زمن المعز لدين الله سنة ٣٥٨ دينانير كانت تسمى المعزية نسبة
الى المعز

وضرب السلطان الناصر فرج بن برقوق سنة ٨٠٨ من
الهجرة دينانير بعبارة اقل مما قبله كانت تعرف بالناصرية
وكانت العرب في الاصل تتعامل بقطع من الذهب والفضة
غير منتظمة الشكل بين مربع ومستدير وغيرها ثم اخضعت بالشكل
المستدير في زمن عبد الله بن الزبير ايام خلافته بمكة وذلك سنة
٦٤ من الهجرة

وكان قطر الدينار القديم قدر ١٩ من الميللي متر وهو مساوٍ
قطر البندقي القديم الوارد من بلاد البنادقة والروم وبلاد
الفلنك ويساوي ايضاً قطر الفندقلي والزر محبوب

وكان يوجد على النقود من قديم الزمان صور مرسومة عليها
وقيل انها بقيت كذلك في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم
والي بكر وعمر ثم الى سنة ١٨ من الهجرة بدون ان يحصل فيها
تغير ما وكانت تشابه النقود الكسروية على ما ذكره المقرئ ثم
اضاف اليها عمر لفظ الحمد لله في بعضها ولا اله الا الله في البعض
ومحمد رسول الله في البعض واثبت اسمه في بعضها ايضاً

وضرب في زمن معاوية دنانير فيها رسم انسان متقلد سيفاً
وكذلك ضرب في زمن عبد الملك بن مروان دنانير مؤرخة في
سنة ٧٦ عليها صورة ورسم عليها في مدة الظاهر ركن الدين
بيبرس في سنة ٦٥٨ من الهجرة صورة سبع وكانت تعرف
بالظاهرة

ويقال ان اول من استحدث المعاملة الخالية عن الصور عبد
الملك بن مروان وان الذي اشار عليه بذلك خالد بن يزيد ابن
معاوية وقال له ان الملوك الذين عظموا اسم الله جل ذكره على
النقود متعم الله بطول الحياة وقال بعضهم كان السبب في ذلك
ان عبد الملك المذكور كتب اسم رسول الله صلى الله عليه وسلم
في كتاب ارسله الى ملك الروم فاغناظ ملك الروم من ذلك

وارسل يلومه ويقول له ان لم ترجع عن مثل هذا كتبت اسم
 نبيكم على النقود بصورة تغتاظ منها فغضب لذلك عبد الملك
 واستشار خالد ابن يزيد فاشار عليه باستحداث نقود اسلامية
 للتعامل بها بدل نقود الروم (٥)

وقال في حياة الحيوان في ترجمة عبد الملك بن مروان وهو
 اول من ضرب الدراهم والدنانير بسكة الاسلام وكان على الدينار
 نقش بالرومية وعلى الدراهم نقش بالفارسية قال ولهذا سبب وهو اني
 رأيت في كتاب المحاسن والمساوي للامام ابراهيم بن محمد البيهقي
 ما نصه قال الكسائي دخلت على الرشيد ذات يوم وهو في ايوانه
 وبين يديه مال كثير قد شق عنه البدر شقاً وامر بتفريقه في
 خدمه الخاصة وبيده درهم تلوح كتابته وهو يتامله وكان كثيراً
 ما يحدثني فقال هل علمت اول من سن هذه الكتابة في الذهب
 والفضة قلت ياسيدي هو عبد الملك بن مروان قال فما كان
 السبب في ذلك قلت لا علم لي غير انه اول من احدث هذه
 الكتابة فقال سأخبرك كانت القراطيس للروم وكان اكثر من
 بمصر نصراً على دين ملك الروم وكانت تطرز بالرومية وكان
 طرازها ابا وابناً وروحاً فلم يزل ذلك كذلك صدر الاسلام كله
 يضي على ما كان عليه الى ان ملك عبد الملك بن مروان فتنبه
 له وكان فطناً فبينما هو ذات يوم ازمر به قرطاس فتظر الى طرازه
 فامر ان يترجم بالعربية ففعل ذلك فانكره وامر بالكتاب الى عبد

العزیز بن مروان وكان عامله بمصر بابطال ذلك الطراز على ما كان يطرز به من ثوب وقرطاس وستر وغير ذلك وان يامر صناع القراطيس ان يطرزوها بصورة التوحيد شهد الله انه لا اله الا هو قال وهذا طراز القراطيس خاصة الى وقتنا هذا لم ينقص ولم يزد ولم يتغير وكتب الى عمال الافاق جميعاً بابطال ما في اعمالهم من القراطيس المطرزة بطراز الروم ومعاقبة من وجد عنده بعد هذا النهي شي منها بالضرب الوجيع والحبس الطويل فلما ثبتت القراطيس بالطراز المحدث بالتوحيد وحل الى بلاد الروم منها اتشر خبرها ووصل الى ملكهم وترجم له ذلك الطراز فانكره وغاظ عليه واستشاط غيظاً فكتب الى عبد الملك ان عمل القراطيس بمصر وسائر ما يطرز هناك للروم ولم يزل يطرز بطراز الروم الى ان ابطلته فان كان من تقدمك من الخلفاء اصاب فقد اخطأت وان كنت قد اصبحت فقد اخطأت فاختر من هاتين الحالتين ايتما شئت واحببت وقد بعثت اليك بهدية تشبه محلك واحببت ان تجعل رد ذلك الطراز الى ما كان عليه في جميع ما كان يطرز من اصناف الاعلاق حاجة اشكرك عليها وتأمر بقبض الهدية وكانت عظيمة الاقدر فلما قرأ عبد الملك كتابه رد الرسول واعلمه انه لا جواب له ورد الهدية فانصرف بها الى صاحبه فلما وافاه ضعف الهدية ورد الرسول الى عبد الملك وقال اني ظننتك استقلت الهدية فلم تقبلها ولم تحبني على كتابي فاضعفت الهدية واني

ارغب اليك الى مثل ما رغبت فيه من رد الطراز الى ما كان عليه اولاً فقراء عبد الملك الكتاب ولم يجبه ورد الهدية فكتب اليه ملك الروم يقتضي اجوبة كتبه ويقول انك قد استغنيت بجوابي وهديتي ولم تسعفني بحاجتي فتوهنتك استقلت الهدية فاضعفتها فحررت على سبيلك الاول وقد اضعفتها ثالثة وانا احلف بالمسيح لتأمرن برد الطراز الى ما كان عليه او لا أمرن بنقش الدنانير والدرهم فانك تعلم انه لا ينقش شي منها الا ما ينقش في بلادني ولم تكن الدرهم والدنانير نقشت في الاسلام فينقش عليها شتم نبيك فاذا قرأته ارفض جبينك عرقاً فاحب ان تقبل هديتي وترد الطراز الى ما كان عليه ويكون فعل ذلك هدية تودني بها وتبقى على الحال بيني وبينك فلما قرأ عبد الملك الكتاب صعب عليه الامر وغلظ وضافت به الارض وقال احسبني اسأماً مولود ولد في الاسلام لاني جنيت على رسول الله صلى الله عليه وسلم من شتم هذا الكافر ما يبقى غابر الدهر ولا يمكس محوه من جميع مملكة العرب اذ كانت المعاملة تدور بين الناس بدنانير الروم ودرهمهم فجمع اهل الاسلام واستشارهم فلم يجد عند احد منهم رأياً يعمل به فقال له روح بن زنباع انك لتعلم المخرج من هذا الامر ولكلكت تتعد تركه فقال ويحك من فقال عليك بالباقر من اهل بيت النبي صلى الله عليه وسلم قال صدقت ولكن ارتج علي الرأي فيه فكتب الى عامله بالمدينة ان اشخص الي محمد بن علي ابن الحسين

مكسراً ومنعه بمائة ألف درهم لجهازه وبثلثمائة ألف درهم لنفقته
وحبس الرسول عنده الى موافاة محمد بن علي فلما وافاه اخبره
الخبر فقال له محمد رضي الله عنه لا يعظم هذا عليك فانه ليس
بشي من جهتين احداها ان الله عز وجل لم يكن ليطلق ما تهدد
به صاحب الروم في رسول الله صلى الله عليه وسلم والاخرى وجود
الحيلة فيه قال وما هي قال تدعو في هذه الساعة بصناع فيضربون
بين يديك سككاً للدرهم والدنانير وتجعل النقش عليها صورة
التوحيد وذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم احدهما في وجه
الدرهم والدينار والاخر في الوجه الثاني وتجعل في مدار الدرهم
والدينار ذكر البلد الذي يضرب فيه والسنة التي تضرب فيها تلك
الدرهم والدنانير وتعد الى وزن ثلاثين درهماً عدداً من الاصناف
الثلاثة التي العشرة منها وزن عشرة مثاقيل وعشرة منها وزن
سنة مثاقيل وعشرة منها وزن خمسة مثاقيل فتكون اوزانها جميعاً
واحداً وعشرين مثقالاً فتجزئها من الثلاثين فتصير العدة من
الجميع وزن سبعة مثاقيل وتنصب صنجات من قوارير لا تستحيل
الى زيادة ولا نقصان فتضرب الدرهم على وزن عشرة والدنانير
على وزن سبعة مثاقيل وكانت الدراهم في ذلك الوقت اثنا هي
الكسروية التي يقال لها اليوم البغلية لان راس البغل ضربها لعمري
رضي الله عنه بسكة كسروية في الاسلام مكتوب عليها صورة
الملك ونحت الكرسي مكتوب بالفارسية (نوس خور) اي كل

واشرب وكان وزن الدرهم منها قبل الاسلام مثقالاً والدرهم التي
 كان وزن العشرة منها ستة مثاقيل والعشرة وزن خمسة مثاقيل
 هي السمة الخفاف والثقال وتقسها نقش فارس ففعل ذلك عبد
 الملك وامره محمد بن علي بن الحسين رضي الله عنه ان يكتب
 السكك في جميع بلدان الاسلام وان يتقدم الى الناس في التعامل
 بها وان يتهدد بقتل من يتعامل بغير هذه السكة من الدراهم
 والدنانير وغيرها وان تبطل وترد الى مواضع العمل حتى تعاد
 الى السكك الاسلامية ففعل عبد الملك ورد رسول ملك الروم
 اليه بذلك يقول انه عزوجل مانعك مما اردت ان تفعله وقد
 تقدمت الى اعالي في انطار البلاد بكذا وكذا وباطال السكك
 والطرور الرومية فقبل لملك الروم افعل ما كنت تهددت به
 ملك العرب فقال لا انما اردت ان اغيظه بما كتبت اليه لاني
 كنت قادراً عليه والمال وغيره برسوم الروم فاما الان فلا افعل
 لان ذلك لا يتعامل به اهل الاسلام وامتنع من الذي قال وثبت
 ما اشار به محمد بن علي بن الحسين رضي الله عنه الى اليوم ثم
 رمى يعني الرشيد الدرهم الى بعض الخدم (اه مع يسير تصرف) |
 قال وفي مرة الزمان وجد عبد الملك بن مروان في سنة
 ٧٥ من الهجرة دنانير مضروبة من مدة اربعمائة سنة من قبله
 مكتوب عليها اسم الاب والابن والروح فضر بها دنانير جديدة
 ضرب عليها اسم الله ورسوله وبعض ايات من القرآن ومن ذلك

الوقت صار الذي يكتب على النقود عبارات من القرآن او الحديث
او غيرها من العبارات الاسلامية وقد وجد دينار اسلامي قديم
فوجد في احد وجهيه ثلاثة اسطر تحت بعضها هذه صورتها



وعلى الوجه الاخر هكذا



ولم يذكر اسم البلدة التي ضرب فيها ولا الملك الذي ضرب

في مدته وذلك التاريخ يوافق مدة سليمان بن عبد الملك ابن مروان وهكذا كانت الدنانير المضروبة في مصر الى القرن الثالث من الهجرة ولم يزل ينقش على الدنانير اسم الله ورسوله صلى الله عليه وسلم الى القرن السابع من الهجرة ثم بطل ذلك وصار لا يرسم الا اسماء الملوك والقباهم واسماء البلاد ويقال ان ذلك كان في زمن السلطان مراد بن اورخان سنة ٧٦١ من الهجرة ولعل هذا كان بالنظر الى ان الدينار او الدرهم ربما يقع على الارض او يقع في يد من يتهاون بصيانة ما عليه من الاسماء الشريفة والآيات القرآنية فاخير تنزيها عن نقشها على النقود ويقال ان اول من وضع اسمه على النقود هو ابو جعفر المنصور العباسي في سنة ١٥٣ من الهجرة

فهذا ما حضرني الان مما يتعلق بالدينار الذي حرنا اليه مجت اللؤلؤ والمحار وهو مجت ظريف قطعنا به معظم الطريق من غير سامة ولا ملل فان كان عندك فيه مزيد فاتحفنا به لنقطع فيه ما بقي من مسافة الطريق



المسامرة الرائعة والاربعون

دود الحشيش وغيره

فقال يعقوب الكلام على المحار طويل حتى انه افرد بالتأليف
وانواعه كثيرة جداً وقد رأيت ذات يوم بساحل البحر شيئاً مغروراً
في الرمل على هيئة الثبر الذي تضع فيه النساء الابرفسالت عنه رجلاً
من اهل تلك الجهة فاخبرني انه نوع من المحار من عادته ان
يحفر حجره في الرمل ويعمقه بقدر مترين فاكثر وله رجل مخروطية
غليظة في اخرها استطالة يتيسر له بواسطتها ان يرتفع الى قم حجره
مع كمال السهولة فاذا احس بادنى شي رجع في الحال وكمن في
حجره بحيث لا يظهر منه شي البته

ومن غريب امره انه عند جزر البحر (اي انخساره) عن
الشاطئ يعرف حجره بخروق صغيرة في الرمل يخرج منها فتاقيع
من الماء فاذا نزل في البحر واراد العود الى حجره اهتدى اليه بها
واذا اراد الصيادون ان يخرجوه من حجره ليصطادوه وضعوا فوق

فم الحجر قبضة من الملح فيخبرق ذلك الحيوان الرمل ويخرج من محل آخر فيسارعون الى القبض عليه فانه ان اقلت منهم وفاتهم لا يقدرّون عليه بهذه الحيلة مرة ثانية وشكل هذا الحيوان كشكل محار اصطواني وله في نهاية غشائه فتخان احداها يتمص بها الماء اللازم لاستخراج ما فيه من اكسجين الهواء المتخلل بين جواهره والثانية يقذف بها ذلك الماء بعد استخلاص الاكسجين منه ومن هذا الجنس من المحار نوع يحفر حجره في الارض في اي موضع اراد منها سواء كان في الطين او الحجر او الصوان او الرخام لا يبالي بصلابة الارض مهما كانت ولهذا يسمونه لغوي الاحجار تشبيهاً له بمن يقطع الاحجار بالبارود بالكيفية المعروفة بالغم وهذا الحيوان يمكث طول حياته في ظلمة حجره ولم يعلم احد كيفية حفره ولا رضاه بهذا الحبس مدة حياته

وفي هذا النوع بعض طول وغلظ وله في غشائه فتخان ايضاً احداها دقيقة يخرج منها قضيب ذو شعبتين احداها يتمص بها الماء اللازم لاستخراج اكسجين الهواء المتخلل بين جواهره وهي مادة غذائه والثانية يقذف بها هذا الماء بعد اخذ خواصه كالذي قبله واما الفتحة الثانية وهي اعظم من الاولى فيخرج منها رجله وهي قصيرة غليظة واهل تلك الجهات ياكلونه نيئاً من غير كراهية ويعدونّه من مستلذات ماكلهم ولهذا النوع في الظلمة لمعان وضوء كهربائي يشاهد في الليل حتى اذا اكله احد من الناس ليلا شوهد

على فمه هذا الضوء الكهربائي وبالجملية فحيوانات البحر تجل عن المحصر فمنها نوع يعرف عند البحارة بدود الخشب لانه يالف الخشب الذي يكون في الماء فيأكله كما يأكل دود البر خشب البر وقد شوهد هذا الحيوان يحرق الخشب المغطى بالماء ايا كان لا يبالي بصلابته بالغة ما بلغت ويسلك في داخل هذه الاخشاب في طرق مختلفة فتارة تكمن تابعة لاتجاه الياف الخشب وتارة تكون مقاطعة لها على انحاء مختلفة ومع كل ذلك لا يرى على ظاهر الخشب ادنى تلف ولا تغيير

وقد شوهد ان الواحد من هذا الحيوان متى عارضه في طريقه مانع يمنع من التماذي والاستمرار فيه عدل الى غيره بحيث لا يختلط طريقه بطريق غيره وبهذه الكيفية يتلف باطن الخشب ويفرغ جوفه بالكلية مع بقاء سطحه الظاهري سليماً لا يرى فيه اثر فان كان ذلك الخشب حاملاً لشيء من الاثقال كالعمد والخوازيق التي توضع في اس المواني المائية كالقناطر والارصفة ضعف بحكم الضرورة عن حملها ومقاومة ثقلها فيندق ويستط بما عليه وقد شوهد تلف كثير من السفن بسبب هذا الحيوان

وفي القرن العاشر من الميلاذ كادت مملكة الفلمنك تتلف بسبب فعل هذا الدود فانه اكل الخشب الموضوع في الجسور المعمولة لمنع ماء البحر الملح عن ارض الزراعة حتى كادت تضج وتزول بالكلية ويحل بالبلاد واهلها الحرَب والويل والعطب

فترتب على ذلك صرف اموال كثيرة في تقوية الجسور وتجديد الخشب

وقد راوا في هذا النوع كراهة طبيعية لصداء المعادن كالحديد والنحاس فمتى كان في الخشب شي ما ذكر لم يؤثر فيه فلما علم الناس ذلك منه صاروا يضعون في الخشب الذي يكون في الماء مسامير غليظة ويكسون السفن بالنحاس احتراسا منه وهذا الحيوان ايضا من جملة انواع المحار وهو كدودة طويلة في داخل محارة ذات فلتتين تكسو جميع بدنه ويتناسل هذا النوع بالبيض كباقي المحار وبيضه كروي الشكل ولونه اصفر يضرب الى الخضرة ويكون في اول امره كديدان صغيرة وبعد قليل من الزمن يظهر له شعر دقيق يسبح به في الماء فاذا عثر بخشبة تعلق بها وتقبها ودخل في جوفها فيكبر فيها شيئا فشيئا ويكسى بالمحار فبلوغه الى غايته واستكمال آلاته يكون في داخل الخشب لا خارجه ولهذا النوع كغيره خصائص وكيفيات يطول شرحها ويتسع القول في عدها وهناك نوع من الحيوان المائي غريب له عادة عجيبة وذلك انه يتحایل على المحار بكل حيلة حتى ياكل ما في جوف المحارة من الحيوان ثم يسكن فيها ويسير بها الى حيث يشاء ويتقي بها شر عدوه كما يتقي المقاتل بدرعه ويتحصن بمحصنه وهناك نوع اخر كالودود ايضا لطيف الطبع ذوا احساس ومن شأنه ان يجعل لنفسه وقاية تقيه عوارض الجو فيعمد الى الاقشة فيجعل له في

سمكها مسكناً يحيط به مع كمال الاحكام والضبط وكلما كبر وسع
في مسكنه وستر جسمه من غير ان يشعر احد به فاذا اراد احد
كشفها وازال عنها ما صنعت من بيتها صنعت غيره في الحال مع
كمال السرعة

ومن عجيب امر هذا النوع انه لو وضع على قطعة من التماس
ذات اللون مختلفة عمل بيته بلونها فيكون مركباً من قطع ذات
اللون كاللون اصله وهذه الدودة هي المعروفة بارضة الجوخ واذا
ماتت خرج منها حيوان ظريف الشكل بهيئ المنظر ذو جناحين
يطير بها وهو من انواع الحيوان الذي يقال له عند العامة ابو
دقيق وهناك ديدان مائية لا تكفي بثوب رقيق كما اكتفت الارضة
بل تعمل لها مسكناً من مواد صلبة كالرمل والحزف وتبنيه بمواد
معروفة لها وقد تبنيه من صغير الحار او من بعض حشائش تقطع
اطرافها وتلفها على نفسها لثاً محكمًا وتسير بها في قاع مجاري المياه
العذبة

واغرب من هذا كله دودة الرصاص وهي دودة صغيرة تنقب
الرصاص حتى اذا وصلت من عمقه الى ما يكفي لسكنها سكنت
وسكنت وكثيراً ما وجدت هذه الدودة ساكنة في الرصاص
الموضوع في خراطيس البارود العسكرية وقد تاكل الصفائح المعدنية
التي توضع على السقف في البلاد الباردة
وبالجملة فانواع الحشرات الصغيرة واصنافها وطبائعها

واشكالها شي كثير وشرحه يطول

وكان قد وصلا الى محلها فقال يعقوب وها نحن قد وصلنا
واظنك تريد ان تستريح فان شئت اخرا الكلام في هذا المقام الى
وقت اخر فقام الشيخ الى محله فرأى ان الانكليزي وولده لم يحضرا
بعد فجلس برهة ثم قال ليعقوب لقد قطعنا المسافة في عجائب
درسناها وغرائب سردناها وهو اولى من التكلم في ما لا يعني من
امر زيد وعمر و قد اتحفتني بما شرح خاطري وسرني كثير السرور
فاني اميل بجماع قلبي الى النظر في مخلوقات الله سبحانه وبدائع
قدرته الباهرة وعجائب صنعته الزاهرة اذ بذلك يعيش الانسان
عارفاً بربه مفوضاً اليه جميع اموره بقلبه وقلبه فيرضى عنه ربه
ويعطف عليه قلب كل من رآه فيحبه وقد تذكرت بما ذكرت لي
من دود الخشب دابة الارض التي اكلت منساة نبي الله سليمان عليه
السلام فانه حين توفاه الله كان متوكئاً عليها فبقي كذلك حتى
اكلت هذه الدابة منساته فسقط على الارض فعلم موته

فقال يعقوب ما معنى المنساة وما هذه الدابة وما فعلها

فقال الشيخ المنساة العصا والدابة في الاصل كل ما دب على
الارض ولكن لما كان فعل هذه كله في الارض اضيف اليها فقبل
دابة الارض والمراد بها الارضة وهي دويبة صغيرة قدر نصف
العدسة تاكل الخشب والورق فاذا مضى لها من العمر سنة نبت
لها جناحان تطير بهما والنمل عدوها وهو اصغر منها فيأتيها من

خلفها فيحملها ويمشي بها الى حجره وإذا اتاها مستقبلاً لا يقاومها لانها تغلبه ومن شأن هذه الدابة انها تبني لنفسها بيتاً حسناً من عيدان تجمعها مثل بيت العنكبوت مخروطاً من اسفله الى اعلاه وله في احدى جهاته باب مربع ومنه تعلمت الاوائل وضع النواويس لموتاهم

المعامرة الخامسة والاربعون

دود القز

ومن عجيب هذه الحيوانات الصغيرة دودة القز وهي ايضاً في اخر عمرها تصير طائراً اذا جناحين على نحو ما ذكرت في ارضة الجوخ ويقال لدودة القز المذكورة الدودة الهندية ايضاً ومن بديع امرها انها تكون اولاً مثل بزر التين ثم تكون دوداً والظاهر ان هذا البزر يبض في داخله هذا الحيوان فاذا جاء ابانه تحرك وخرج

من البيض ودب على الأرض وذلك في أوائل فصل الربيع ويكون هذا الدود عند خروجه شبيه الذر في قدره ولونه ويخرج في الأماكن الدفينة إذا كان مصوراً في حق بغير حزن وربما تأخر خروجه فتجعله النساء تحت ثديهن فيخرج فإذا أخرج اطعم ورق التوت ويقال أنه أحسن غذاء له وأحسنه ورق التوت الأبيض وقد عرف بالتجربة أن مقدار عشرة دراهم من البذر يحوي على أربعين ألف دودة وعند أول خروجه من البذر يكفيه من ورق التوت من ١٦ درهما إلى ٢٠٠ درهم ثم أنه ينمو جسمه ويعظم بالتدريج حتى يصير قدر الأصبع وكلما كبرت الدودة وازداد حجمها زاد أكلها حتى يصل ما يأكله في آخر الأمر إلى نحو مائة وسبعين أقة في اليوم الواحد وفي أثناء ذلك يغير هذا الحيوان جلده أربع مرات في نحو أربعين يوماً وعند تغيير جلده في كل مرة منها يمرض ويقل أكله ويكون في حالة خدر وضنك وضجر وكأنما ضاق عليه جلده وصار لا يسعه فإذا أراد نزعه أخرج من جوفه طرف خيط من الحرير يثبت في شيء مما بجانبه ويتمسك به فينزع جلده ويخرج منه كما يخرج الإنسان من ثوب ضيق عليه وحينئذ يبق ويسترى ويعود لحالة النماء والاستكثار من الغذاء حتى يأتي وقت نزع الجلد الثاني بعد نحو أربعة أيام فيعاوده الضعف ويفعل فعله السابق حتى ينزع ويخرج منه وهكذا حتى ينزع جلده الرابع وحينئذ يكون قد بلغ أشده وأمتلا جوفه من

مادة الحرير فيأخذ في النسج على نفسه بما يخرج منه من فيه وفي هذا الوقت يكون لونه ابيض وجسمه عبارة عن عدة حلقات يرى في الاخيرة منها شي يشبه القرون ولا يزال يلف خيطه على نفسه في نحو ثلاثة ايام او اربعة الى ان ينفذ ما في جوفه ويكمل عليه ما بينه حتى يصير كهيئة الجوزة ويتقى فيه محبوساً قريباً من عشرة ايام ثم يثقب عن نفسه تلك الجوزة بواسطة مائع يخرج منه ويصيب به طرف الخيط من الداخل فيلين ويسهل عليه قطعه فيقطعه ويخرج من الجوزة في صورة فراش ابيض او ازرق له جناحان لا يسكنان من الاضطراب وقد يكون ما ينسجه على نفسه نحو ثلثائة متر وعند خروجه يهجم الى السفاد فيبحث الذكر على الانثى ويسافدها فيلصق موخره بموخرها ويلتصمان مدة ثم يفترقان وعند ذلك يكون قد فرش له خرقة بيضاء فتتشر الانثى عليها البذر الذي تقدم ذكره وهو بيضها وتبيض منه الواحدة نحو خمسمائة بيضة وفي عقب ذلك يموت كل من الذكر والانثى ويفعل بالبذر كما تقدم وهكذا

هذا اذا اريد البذر فان اريد الحرير ترك في الشمس يوماً او بعض يوم وذلك بعد فراغه من النسج بعشرة ايام فيموت وهو سريع العطب ويقال انه يخشى عليه من الفار والعصفور والتمل والوزع وكثرة الحر والبرد وقد الغز فيه بعض الشعراء فقال
وبيضة تحضن في يومين * حتى اذا دب على رجلين

واستبدلت بلونها لونين * حاكت لها خبا بلا نيرين
 بلا سماء وبلا بابين * نثقه من بعد ليلتين
 فخرجت مكحولة العينين * قد صبغت بالنقش حاجبين
 قصيرة ضئيلة الجنيين * كأنها قد قطعت نصفين
 لها جناح سابغ البردين * ما نبأ إلا لقرب الحين
 ان الردى كحل لكل عين

قال ابو طالب المكي في كتابه قوت القلوب وقد مثل
 بعض الحكماء ابن آدم بدود القز لا يزال ينسج على نفسه من جهله
 حتى لا يكون له مخلص فيقتل نفسه ويصير القز لغيره وربما
 قتلوه اذا فرغ من نسجه لان القز يلتف عليه فيريد الخروج منه
 فيشمس وربما غمز بالايدي حتى يموت لئلا يقطع القز ليخرج القز
 صحيحاً فهذه صورة المكتسب الجاهل الذي اهلكه اهله وماله وتعم
 ورثته بما شقي هو به وقد اشار الى ذلك ابو الفتح البستي بقوله
 ألم تر ان المرء طول حياته

معنى بامر لا يزال يعالج
 كدود كدود القز ينسج دائماً

ويهلك غما وسط ما هو ناسجه

وقال آخر

يفني الحريص بجمع المال مدته

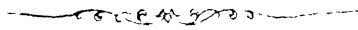
وللحوادث ما يبقى وما يدع

كدودة القز ما بنيه يهلكها

وغيرها بالذئب تنبيهه يتنفع

قال ناقل الحديث فاطهر يعقوب علامة الاستحسان لما سمعه
ثم قال قد انتشر في اقطار الارض مادة تربية هذه الدودة وصارت
متداولة عند كثير من الامم وان كانت كيفياتها مختلفة وقد اشتهرت
صناعة الحرير في بلاد اوروبا اشتهاراً كبيراً واتسعت اتساعاً وصل
الى غاية عظيمة وتنوعت كيفية عمله تنوعاً كثيراً وصار يصنع خالصاً
ومخلوطاً بغيره من القطن والصوف وغيرها ومطرزاً بالقصب
والفضة والذهب في انواع من التحسين والنقش والتزيين وكثرت
الانوال لعمله كثرة مفرطة حتى انه يوجد في مملكة فرانس من
الانوال مقدار مائتين وخمسين الفا ويبلغ قيمة المتحصل فيها من
الحرير منسوجاً وغير منسوج نحو (٦٤٠) مليون من الفرنكات
ويبلغ في بلاد الانكليز نحو مائتين وخمسين مليوناً فاذا اضيف الى
متحصل بلاد الانكليز ما يتحصل في غيرها من مالِك اوروبا كان
مجموع ذلك قريباً مما يتحصل في مملكة فرانس من هذا الصنف
فهي اعظم الممالك في صناعته وان كانت لوندرة اكثر منها في تجارتها
واول تربية هذه الدودة كان عند اهل الصين قبل ميلاد
المسيح بنحو الف سنة وعندهم اخذ غيرهم من سائر الناس واول من
اخذ عنهم اهل الهند ومنهم انتشر ولعل هذا هو السبب فيما ذكرت
من تسميتها بالدودة الهندية ثم اخذها العجم عن اهل الهند فحسنوها

وائقنوا صناعتهما ووسعوا دائرتها ثم تعلمها اهل التسطنطينية وذلك
في اواسط القرن السادس من الميلاد ثم اهل ايطاليا في القرن
الثاني عشر منه ولم تعلم كيفيتها لاهل فرنسا الا في القرن الثالث
عشر



المسامرة السادسة والاربعون

ابودقيق

قال الشيخ قد بلغني ان في حشرات الارض غير ما خضنا في
حديثه من دودة القز وارضدة الجوخ حيوانات اخر تتقل من
صورة الى صورة وبودي لو عرفت كيفية ذلك فان كان عندك
في هذا المعنى مزيد شرح فهاته غير مامور فاني كثير الشغف بمعرفة
امثال هذه الامور

فقال يعقوب اني مثل حضرتكم اميل بكليتي لمعرفة احوال افراد المخلوقات ولذلك قضيت اكثر عمري في قراة كتب التاريخ الطبيعي ورسائل كثيرة من هذا القيل لاستفيد نتائج مشاهداتهم واجني من ثمرات معلوماتهم فوجدت في ذلك فوائد كثيرة وتخلصت به من ضياع الوقت في الكسل والبطالة والقيل والقال والنزاع والجidal

وغاية العلم في هذه المادة ان الحيوان يخلق اولاً في صورة ثم يتغير وينقلب الى صورة ثانية ثم الى ثالثة وليس التغير خاصاً بالصورة بل يعتري الطباع والاحوال ايضاً حتي لا يبقى فيه شي من احواله وطباعه الاولى فتراه يكون في اول مرة كدودة قذرة قبيحة المنظر راسية في قاع البحر مستورة بما في قراره من الوحل والطين فاذا انقضى الوقت المعين لهذه الحالة واراد الانخراط في سلك الحيوانات الهوائية علا على سطح الماء وتعلق بغصن من نباته فعند ذلك يتخلى عن ثوب الديدان ويتخلى بكسوة ظريفة الشكل وصورة بهية المنظر كثيرة الالوان ذات اجنحة كاللؤلؤ والمرجان فيطير بها في الهواء الى حيث يشاء فانظر كيف خرجت هذه الدودة المائبة عن ذاتها الاولى الى صفة الحيوانات الهوائية وتغير صورتها كما ذكر تغير جميع طباعها واحوال معيشتها واحنياجاتها وسائر حالاتها وبعد ان كان غذاؤها ما في قاع البحر من الحشيش ترعاه دائماً ولا تمله ولا تستغني عنه صارت لا تهواه

ولا تقربه كما انها بعد ان قضت مدة حياتها الاولى تحت الماء في الطين صارت لا تحب الا فضاء الجو ونسيم الهواء ترح فيه وتعيش به ولا تالف المكث تحت الماء بل لا تطيقه ولا تقدر عليه حتى لو كلمت ان تقيم تحنه لحظة لهلكت في الحال فلا مناسبة بين حالتها الثانية وحالتها الاولى وكذلك امثالها من الحيوانات التي تتغير طباعها واشكالها فان الحيوان ذا الاجنحة الزمرذية الذي تسميه العوام بالجعران وكان المصريون يعظمونه اصله من دودة تدب في بطن الارض لا نسبة بينه وبينها بوجه من الوجوه

وكان الاقدمون يجهلون ذلك الى زمن ارسطو وهو اول من فتح باب البحث في هذه المسالة الا انه تكلم فيها بالظن والحدس واستمر الامر على ذلك الى هذه القرون الاخيرة فنظر فيها كثير من الحكماء ومشاهير الطبيعيين فظهر ان الحيوان من هذا القبيل حين تخلقه يكون مجردا عن الاجنحة في هيئة دودة صغيرة ثم ياخذ في الكبر وازدياد الحجم ياكل بعض الحشيش وغيره من المواد الارضية حتى اذا بلغ درجة معلومة من العمر لبس غير ثوبه وعدم الحركة بالكلية وصار في مقره كانه قد مات ودفن في قبره فيبقى كذلك مدة تتعدم فيها جميع الاحوال الدودية بتدبير الهي لا علم لاحد به ثم يظهر بعد ذلك في صورة اخرى ذات جناحين كالحيوان المعروف عند العامة بفرقع لوز وقد شوهد ان الدودة في حال انتطاع حركتها ولبثها بمقرها تكون كقطعة عجين ملتفة

في مادة زرقاء تكون لها كالكفن لرم الموتى التي ترى في قبور
الاقدمين من المصريين فاذا جاء الوقت المعين خرقت هذا
الكفن وخرجت منه وصارت في الصورة الجديدة ومن الغريب
ان هذا الحيوان يخرج من بيته الضيق الذي صار قبراً له من غير
ان يحصل لاعضائه الدقيقة ادنى خلل

وكثيرا ما يكون هذا التبر مركباً من ثلاث طبقات الاولى
مركبة من مواد موضوعة بحيث ينزل المطر من فوقها والثانية من
مواد الطف من الاولى شديدة الامتزاج ببعضها وهي لوقاية الجسم
من العوارض الجوية والثالثة هي الثوب از الكفن الذي تقدم
ذكره

ومن نظر في الحيوان المعروف بالي دقيق وتبع احواله
واشكاله وجده يتغير ثلاث مرات ينقلب فيها الى ثلاث حالات
ليس بين واحدة منها وبين الاخرى مشابهة البتة حتى يظن انه
يموت ويحيى ثلاث مرات مع انه في الواقع ونفس الامر ليس كذلك
وانما يعتره سكون تام يتعطل فيه عن الحركة الظاهرة مدة من
الزمن تشتغل فيها القوة الحيوانية بواسطة آلتها الخفية بالانتقال
من الصورة الحالية الى الصورة الجديدة فالدودة من اصل خلقها
مشملة على جميع ما يلزم للصور التي تتحول لها وتنقلب اليها فكأنما
هي في ثلاثة اثواب مختلفة الهيئات بعضها فوق بعض فتشق
الواحد منها وتخرج منه فتظهر بهيئة ما تحب فتنقب فيه ما شاء الله ثم

تخرج منه وهكذا حتى تظهر في الهيئة الاخيرة فتبقى عليها الى ان تموت بها وبعض الحشرات لا يظهر عليه عند تغيير صورته ما قدمنا ذكره من السكون وترك الحركة ولا تعتريه كل هذه التغيرات والتبديلات وانما ينتقل من صورة الى غيرها بتمدد اعضائه وكبرها مع التقدم في السن وبعضها ينتقل الى عدة صور يدخل فيها على التوالي من غير ان تظهر عليه حالة السكون المذكورة وانما تعلم صورته الدودية بعدم وجود الاجنحة وذلك كالحبوان المعروف بالبق

ومن الديدان المائية ما يبقى سنين عديدة على حالة واحدة ويتغذى بما في مستقر المياه من القاذورات ورم الاسماك فاذا تحول الى الصورة الاخيرة وظهر في تلك الهيئة اللطيفة لا يعيش الاّ زمناً قليلاً لا يزيد عن نصف ساعة ثم يموت بعد ان تبيض الانثى منه بيضها

فمن تأمل في هذه الحيوانات وهي في مستقرها او رآها وهي مستورة بكفنها في قبرها ونظر تعدد اشكالها والوانها وصورها واخلافها في كبرها وصغرها وانعم النظر فيما تظهر به وتجلي فيه من المنظر البهيج والكسوة الفاخرة المطرزة بما يفوق وصف الواصف ويستوقف نظر الناظر ويزدري برونق الدرر والجواهر من النقوش الغريبة بالالوان العجيبة اذعن بالربوبية لحالتها ومبدعها القادر العظيم المدير الحكيم وخضع لجلال عزه وعظمته وتبرأ من علمه

وحوله وقوته فما معلومات الانسان ولو امتد به الزمان بالنسبة
 لمعلومات الله سبحانه الا كسبة المعدوم الى الموجود فكيف يطلع
 على كنه هذه الاسرار او يستخرج جوهر هاتيك التجار الا ان امده
 الله باعانه وشمله بحسن عنايته

المسامرة السابعة والاربعون

الحل.

ومن قبيل ما نحن بصدده من الحيوانات المذكورة النحل
 الذي نشاهده ونحبي منه الشهد فانه كذلك في اول مرة يكون
 دودة صغيرة ثم يكبر وبعد ذلك يتقلب الى الصورة المعلومة وله
 في ترتيب بيته وتدير معيشته ونظام اموره ما يقضي بالعجب العجائب
 وهو انواع منها ما يالف الاجتماع على بعضه فيتألف منه جموع

كثيرة تشترك في المأوى والمعيشة وقد يجتمع في الخلية الواحدة نحو ثلاثين أو أربعين ألفاً ولا يزيد عن ذلك إلا نادراً ومنها ما يالف الانفراد والاعتزال فيكون متفرقاً منعزلاً بعضه عن بعض ونحلة العسل يكون جسمها ازرق اللون كأنه مركب من ست حلقات أو عقد في الأخيرة منها حمتها (وهي الابرة التي تلسع بها المعروفة في لسان العامة بالزبان) وفي فمها خرطوم طويل تمتص به من الأزهار ما تحتاجه لعمل العسل وعند سكونها تغطيه براسها وفي رجلها شي يشبه الفرشة تأخذ به من نبات الأرض ما يلزم لبناء بيت العسل وهو الشمع

وإذا نظرت إلى النحل في تدبير أحواله المنزلية وإحكامه السياسية تراه كرعية سلطنة تامة النظام كاملة السياسة نافذة الأحكام

فمنها واحدة من الإناث هي أكبر الجميع وأعظمها جثة وهي لها كالمملكة المحاكمة ويقال لها العسوب وعليها مدار عمارة الخلية وإكثار النسل بكثرة بيضها وبقية الإناث لا تطلب السفاد ولا تبيض وإنما هي عملة عليها العمل والخدمة والمدافعة عن الوطن والمسكن وسلاحها حمتها المركبة في ذنبها تناضل وتقاتل بها وليس للام ولا للذكور حمة كما سيذكر وطائفة الذكور عليها تلقيح الأمر ووطؤها

فوجود هذه الأصناف الثلاثة أي الأم الملكة والإناث العملة

والذكور لازم ضرورة في بقاء هذا النوع وتناسله وتربيته فلو فقد احد هذه الثلاثة لخربت الخلية وفي ما فيها بخلاف غيره من انواع الحيوان فانه يكفي فيه ذكر وانثى

وسبب لزوم هذه الثلاثة في هذا النوع ان الام التي هي كالملكة لا ياتى لها تحصيل قوتها وقوت ما يتناسل منها من الذرية الكثيرة ولا يمكن لها عمل ما ياويها جميعاً من المساكن ولا شغل لها سوى انها تبيض بيضها وتلزم خليتها مدة عمرها وهي نحو خمس سنين فاحتاجت الى عمال وخدم تحصل لها رزقها ورزق ذريتها وتبني المساكن لها ولذريتها وكذلك ليس لها حمة تدافع بها عن نفسها فهي كثيرة الخوف قليلة الجرأة بحيث لو وقع بها نحلة غريبة لجينت عن ملاقاتها وهربت منها داخل الخلية فراراً من سطوتها فلا يقىها ويدافع عنها سوى بقية الاناث فهي لها من جهة بمنزلة الخدم والعمال ومن جهة بمنزلة الجنود والابطال ومع كونها مع الغريب الاجنبي بتلك المثابة تراها بين قومها في غاية العظم والمهابة واما احتياجها للذكور فهو من اجل السفاد لحصول النسل وتكثير الاولاد فهذا وجه الضرورة في وجود الاصناف الثلاثة المذكورة

ويتميز الذكر عن الانثى من هذا النوع بكبر عينيه وتقاربها وليس له فرشة في رجليه لجمع الشمع ولا له حمة يلسع بها ولهذا يكون لبن العريكة حسن الاخلاق كحال غيره من ضعاف الخلق ومن شأن النحل انه اذا كان الوقت غير موافق والهواء غير معتدل

لشدة البرد في الشتاء مثلاً فلا يخرج من خليته بل يلزمها ويقم
 فيها ويأكل من العسل الذي بها فاذا اتى فصل الربيع واكتسى
 وجه الارض بالخضرة والزهور خرج للمرعى واكثر من الدوي
 والطين حول خليته وقد قالوا ان الذكر منه لا يعيش زيادة عن
 ثلاثة اشهر وان الانثى قد تعيش الى ثمانية عشر شهراً وهي اصغر
 من الذكر وقد اعتبرت بالوزن فوجد ان كل عشرة الاف منها
 تزن اربعة اخماس افة مصرية وطائفة الاناث هي العملة والخدم
 كما مر وعملها كثير فنه جمع العسل والشع من النبات والازهار
 وجلبه الى الخلية وتوزيعه على عيون الاقراص وادخاره فيها
 وتعد البيض الذي تبيضه الام وتوزيعه على تلك العيون
 ووضع كل واحدة منه في محل يليق بها وتربية ما يخرج من ذلك
 البيض من صغار النحل حين تخرج في هيئة الدود الصغير فتغذيها
 وتعتدها حتى تكبر وتقوى على الخروج من الخلية للرعي بنفسها
 فاذا وجدت درجة الحرارة قد تغيرت واشتدت بحيث صارت
 ربما تضر بهذه الصغار اقبلت عليها ترفرف باجنحتها حولها وتروح
 لها بها لتعديل درجة الهواء بتحريكه في الخلية وتجديده ومن هذه
 العمال طائفة تقوم بامر الحراسة والحفارة وقت سكون باقي الجماعة
 في الخلية فان رأت ما لا قبل لها به من العدو نهبت الجماعة
 فيستعد الجميع لقتاله وصدده وردده ومنها طائفة تلتزم بعمل الاقراص
 وما فيها من العيون وهي البيوت من مادة لزجة هي مادة الشع

تستحضرها لذلك فانها حين تخرج المرعى تحضر معها من تلك
المادة ما يلزم لعمل الاقراص والبيوت ومن مادة العسل ما يلزم
للغذاء والقوت فتضع أولاً الشمع وتصنع البيوت منه لتكون كالوعاء
للعسل وتجعل بعض تلك البيوت كبيراً ومعظمها صغيراً وجميعها
مبنية على الشكل المسدس وهو انفع الاشكال في عدم ضياع شي
من الفضاء الذي يتخذ فيه اذا انضم الى امثاله فألم الله سبحانه
وتعالى النحل ان يحناره لبناء بينه فلا يبنيه مستديراً ولا مربعاً ولا
مخمساً بل مسدساً لخاصية في هذا الشكل لا توجد في غيره وذلك
ان اوسع الاشياء واحواها المستدير وما يقرب منه فان المربع تخرج
منه زوايا ضائعة وشكل النحل مستدير مستطيل فترك المربع حتى
لا تبقى الزوايا فارغة ثم لو بناها مستديرة لبقيت خارج البيوت
فرج ضائعة فان الاشكال المستديرة اذا اجتمعت لم تجمع متراسة
وليس في الاشكال ذوات الزوايا شكل سوى المسدس يقرب
من المستدير في الاحشاء ثم تتراس الجماعات منه بحيث لا يبقى بعد
اجتماعها فرجة وهذه خاصية هذا الشكل الذي ألم النحل ان يحناره
فهو يبنى بيوته عليه ويضعه تماماً محكمًا لا ينحرف كأنما استنبط
بقياس هندسي

ويوجد في كل قرص طيفتان متلاصقتان من البيوت
وبعض هذه البيوت خازن للعسل يدخر فيها الى وقت الحاجة
ويسد عليه بسداة من الشمع وباقيها التربة البيض فيجعل في

كل بيت منها بيضه على انفرادها تضعها فيه طائفة العمال من النحل كما مروتكون البيوت التي يوضع فيها البيض المشتل على الذكور اكبر من التي يوضع فيها المشتل على الاناث لما علمت من ان ذكران النحل اكبر من اناته ويوجد في اطراف الاقراص بعض عيون كبيرة نسع الواحدة منها من العسل قدر ما يسع غيرها مائة وخمسين مرة الا انها قليلة وهي التي اعدت للبيض الذي يخرج منها اليعسرب

ومن اللطائف ان العمال تعلم عدد البيض وكيفية توزيعه بقوة ادراك غريزية اودعها الله فيها فتبني البيوت على حسبه من قبل ان تراه وعمل العمال يختلف باختلاف الاوقات قوة وضعفاً فيضعف في الصيف ويقل فاذا جاء فصل الخريف ازداد شغلها وكثر اجتهادها فتملأ البيوت بيضاً وتعهده الى ان يخرج كما مر وتخرج منه ذكور كثيرة في وقت معين فان ظهر فيه ام جديدة اجتهدت الام الاصلية في قتلها والا خرجت وتبعها كثير من العمال حتى اذا وجدت غصناً او خامة ررع تعلقت به واحنف بها ما خرج معها من جماعتها فان اخذت حينئذٍ ووضعت في خلية استوطنتها وعمرتها والا ذهبت الى فجوة في شجرة او حائط او جبل فاقامت بها مع تواعها

واما الام التي بفت في الخلية الاصلية فبعد ثمانية ايام من ظهورها تخرج وتدور حول الخلية كأنها تكشف امرها وتنظر ما

حولها ثم تعلو فوق طبقات الجو ذاهبة وعائدة في الهواء برهة من الزمن وبعد ذلك تعود الى الخلية وتمكث فيها طول عمرها الى ان تطردها منها احدى اولادها كما طردت هي امها وتبتديء في البيض من ثاني يوم من ظهورها فيخرج من بعضه ذكور ومن بعضه اناث ولكنه في وقت الشتاء اذا كان الهواء لطيفاً لا يخرج منه الا اناث

وفي مدة البيض يحف العمال بالام فيلحسونها بالسنتهم ويجعلون في فمها ما يلزم لغذاءها من العسل ويرتبون البيض ويوزعون على البيوت في كل طاقة بيضة ويخرجون ما زاد او فسد ويرمونه خارج البيوت وكلما وضعوا بيضة في طاقة سدوا عليها بمادة لزجة فاذا مضى عليها ثلاثة ايام صارت دودة فيفتح لها حينئذ العمال السدادة ويغذونها مدة ستة ايام في كل يوم عدة مرات ومادة الغذاء وان كانت عسلية الا ان درجة حلاوتها تدبر بالنقص والزيادة على حسب تقدم الدودة في العمر وما يناسبها في كل سن وبعد تلك المدة يسد على كل دودة بغطاء فيه تحديق ليس كغطاء العيون المعدة لادخار العسل فانه مستور وعند ذلك تقوم الدودة في بيتها وتعمل لنفسها ثوباً كالحرير تحيط به حروف البيت وقاية لجسمها من خشونة مادته ويتم هذا العمل في يوم ونصف ثم بعد ثلاثة ايام تنقلب الدودة ذبابة صغيرة ملتفة في ثوب ابيض شفاف يرى منه ارجلها واجنحتها وباقي اعضائها فتبقى في هذه الصورة

سبعة ايام في هءء وسكون بلا حركة ثم تمزق ثوبها وتخرج منه فعند ذلك تخنط بها العمال وتمسح جسدها وتمد جناحيها وتاخذها معها الى حيث شاءت من اعمالها تمرنها على العمل معها والمساعدة لها في اشغالها

ولكثره مادة الغذاء في الصيف يكون بين الذكور والاناث صلح فيغدون ويروحون سواء فاذا قرب الشتاء وقلت المراعي تحرك من العمال عرق الغضب على الذكور لعدم الفائدة فيهم فيبتقون على قتلهم فعند ذلك تنف طائفة من العمال امام الخلية تقتل كل من مر بهم من الذكور وليس لذكور هذه الطائفة حمة تلسع بها وتدافع عن نفسها فتبطش بها العمال كما شاءت فتتلفها وتنفى عداها وهكذا تفعل بالذكور التي تحدث فتقتلها وترميها خارج الخلية وعند حلول فصل الشتاء يقل البيض ويتقطع المرعى فياكلون ما في الخلية فاذا حل فصل الربيع وتفتحت الازهار ابتداءً البيض والتناسل كما مر والعادة في البيض الذي يخرج منه الذكور ان يكون فقسه وتفريخه في مدة ثلاثة ايام ثم بعد ذلك يكون دودة فتغذيها العمال ستة ايام بمثل ما مر وتضع الغطاء عليها وبعد وضع الغطاء تنسج ثوبها في ثلاثة ايام اخر وتقلب ذبابة وتقيم على ذلك اثنا عشر يوماً ثم تخرج فبكون خروج الذكر في اربعة وعشرين يوماً بخلاف الانثى فانها يكون خروجها في اثنين وعشرين يوماً والبيض الذي يخرج منه اليعسوب يكون

ففسه وتفرجحه بعد ثلاثة ايام فيخرج من الواحدة منه دودة كسائر
الاناث التي هي العمال الا ان لها في الغذاء كيفية مخصوصة
تعرفها العمال فيكون غذاؤها في اول الامر حامضاً ثم يزداد في
حلاوته بالتدرج ويجعل يقرها منه في بيتها اكثر مما يعطى
لغيرها فتعظم وتكبر عن غيرها ويوجد فيها خاصة التناسل وتكون
اما ويعسوباً ولا تمكث في عمل ثوبها الا يوماً واحداً وذلك لما
اكتسبته من القوة بسبب جودة غذائها وكثرته وخاصة مادته ثم
تقيم بعد ذلك في الراحة والهدوء والسكون مدة يومين ونصف يوم
ثم تكون ذبابة وتقيم على تلك الحالة خمسة ايام فقط وتخرج من
ثوبها بعد ستة عشر يوماً فقط هذا اذا اراد العمال ذلك والا
زادوا في سمك الغطاء وحسبوها مدة من اربعة ايام الى ثمانية على
حسب مقتضيات الاحوال وفي هذه المدة يرسل لها الغذاء من
ثقب يجعل في الغطاء المذكور فاذا انفتح الغطاء خرجت يعسوباً
واماً تتميز عن غيرها بخاصية البيض والنسل وعظم الجسم وذلك
بخاصية هذا الغذاء المخصوص بالام وهذه الخاصية في ذلك الغذاء
ثابتة محققة حتى انه اذا وقع منه في بعض الاحيان جزء في بيت
واحدة من العملة واطعمت منه نما جسمها وزاد حجمها وحصل لها
خاصية البيض والنسل وحصل منها البيض بالفعل وربما وصلت
الى نصف درجة الام وحينئذ تكون معرضة لاذى الام الاصلية
وطائفة العمال تعلم ما في ذلك الغذاء من هذه الخاصية ولذا

إذا ماتت الأم اخثاروا في الحال دودة من الدود الذي يكون منه العمال فيغدقون عليها بالغذاء المذكور حتى تصير أمًا ويعسوبًا وذلك لما ثبت عندهم من أن الخلية لا تعمر بدونها وإنهم إن خرجوا من الخلية قبل أن يتخذوا لهم أمًا بدلها بدد الدهر شملهم واحناط بهم نخل الخليات الأخر وقتلهم

وقد قدمنا أن أنواع النحل كثيرة لكن ليس منه في بلاد الأور وباوين إلا نوعان أحدهما أزرق البطون وهو ما يوجد بالبلاد المركزية وإثاني نيل بطونه إلى الصفرة وهو ما يوجد بجهات سيسليا وإيتاليا وجزيرتي كريد والروم ويوجد منه في باقي بلاد الدنيا القديمة اثنا عشر نوعًا وأما الدنيا الجديدة وهي أمريكا فلم يوجد بها إلا في زمن قريب وأصله من نحل أوروبا نقل إليها فكثرت بها إلا أنه توحش وصار يهوى الجبال والغابات مع أن ذلك لا يحصل بأوروبا وقد شوهد هذا التوحش كذلك في غير النحل من سائر الحيوانات التي نقلت إلى تلك الجهة

وقد كان العسل معلومًا عند سكان أمريكا من قبل ورود الأور وباوين عليهم إلا أنه كان أقل حلاوة وأزكى نكهة وأصفى لونًا وأكثر ميوعة ولما دخل الأسبانيول هذه الأرض وجدوا فيها نحلًا صغير الجنة قد اتخذ له بيوتًا في فجوات الأشجار ومغارات يصنع فيها أقراصه ويجمع بها عسله وكله ليس له حمة يلسع بها سواء في ذلك ذكره وإناؤه ويعسوبه ولذلك يمضي إليه الناس

ويجمعون عسله من محاله بالسهولة وبغير احتراس وبيوته مسدسة
كثيره من النحل ومنغطة بطبقات من الشمع وبعضها للذكور
وبعضها للاناث وحول هذه البيوت بيوت اخر اكبر منها قد اعدت
للعسل شكلها غير شكل بيوت الذرية وديدان هذا النوع من النحل
تصنع ثوبها بالطريقة التي قدمنا ذكرها ومن الخنمل ان يتخذ
ذكوره واناثه في العمل ولا مانع من ذلك حيث كانت كلها
مجردة عن الذبان والحمة كما ذكر فيها السبب يكون الجميع
بعضها مع بعض في الثام وراحة وإطئنان ويخمل ان يكون
العمل على حسب راي الامهات

وتكثر هذا النوع سهل لا صعوبة به اذ يكفي فيه ان يؤخذ
قرص او بعض قرص من اقراصه ويوضع في فجوة من شجرة او
نحوها فعند ذلك يتولد منه عدد كثير ويزايد على طول الايام
وفي كثير من جهات الامريكا امكن للاهالي تأليف هذا النحل
وجعله في حقائق من فئار وصناديق من خشب وقطع مجوفة من
جذوع الاشجار فنجح الا ان ما تقل منه الى بلاد اوروبا لم ينجح في
تلك البلاد لانه في فصل الشتاء يمتنع عن الزاد

وهناك نوع منه لا يعيش الا سنة واحدة ثم يموت ولا يبقى
منه الا بعض اناث تخمد في فصل الشتاء فاذا انتهى البرد
وانتشرت حرارة الشمس في طبقات الجو تنبهت من سكرتها وقامت
من رقدتها ودارت في الغيطان والفلوات لترى محلاً لا تقاً لبناء

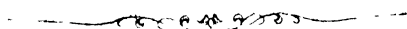
بيتها فاذا عثرت به ذهبت من عروق النبات ومواد الارض الطينية بما تحتاج اليه وبنت لها بيتاً وفرشته بجرير تخرجه من جوفها ثم تسكنه ووضعت فيه من الشمع والعسل ما يلزم لحاجتها وغذاءها وغذاء اولادها ثم تجعل فيه ثقباً صغيراً لتبيض فيها فتجعل فيه كل ثقب بيضة ومن هذا البيض يخرج دود صغير يتغذى بما ادخرته الام في تلك الثقوب من المادة الغذائية ولا تزال الام تستكثر من تلك المادة وتزيد فيها وتجلب لاولادها ما يلزم للغذاء منها ثم تنسج كل واحدة من هذا الدود لنفسها ثوباً كالذي مر ذكره تقيم به المدة المعينة وتخرج منه لمساعدة امها في جمع المونة وتوسع القرص باستحداث بيوت جديدة فيه وتوزع ما يلزم من العسل في البيوت للمونة واكثر ببيض الام يخرج منه اناث وقليل منه يخرج منه الذكور ويوجد في قليل من الاناث خاصية البيض والنسل كالام ولكن لا بقدر الام بل على قدر النصف منها وانما تخرج في الاخر ثمانية مثلها تشابهها في الكيفية والجسم والخاصية وفي اخر السنة يخرجون ولا يقن مع الام بل يتفرقون في سائر الجهات ومنهن يحصل البيض والنسل كما حصل من الام الاولى ثم تموت ملك الام الاولى والذكور وباقي الاناث

قال ناقل الحديث فلما انتهى يعقوب من الكلام الى هذا الموضع قال الشيخ كانه يريد ان يري يعقوب ويستخرج ما عنده كما هو عادة المسامرة اذكر اني كنت مرة افاض بعض الاخوان

الحديث في امر النخل واحواله وبحضرتنا رجل من الحبشة يسمع فلما انتهينا الى ذكر انواعه وحكينا ما اطلعنا عليه قال ذلك الحبشي ان انواع النخل في بلادنا كثيرة والطفها نوع في حجم الذباب يسكن في الارض المنبسطة من الصحاري يصنع له بيتاً اجوف على هيئة الكرة املس كالنحاس قد فتح منه ثقبه صغيرة يدخل منها ويخرج فاذا خرج خرج متتابعاً واحدة اثر واحدة كانه حب نظم في خيط الا ان الواحدة السابقة والواحدة الاخيرة اكبر حجماً من البقية فكانها الامر والاب فاذا حصل في الهواء تلوى ذلك الخيط حتى يرسم اشكالا كثيرة فتارة يكون دائرة وتارة يكون قنطرة وتارة يكون عموداً متصباً الى غير ذلك وعسل هذا النوع ليس له شمع بل يكون في ذلك البيت كالماء في الصهرج ولونه اصفر احمر وطعمه كطعم مربى الزنجبيل كانه لم يتخذ الا حكاية له وذلك النوع قليل يخرج الناس في طلبه فرما غابوا في البحث عنه اياماً ولم يعثروا به ويعثرون به عند شروق الشمس حال خروجه فيقصدون الجهة التي راوه فيها فيفتشون حتى يعثروا بالثقب فيخنفرون منه فتارة يجدون العسل قدر نصف البيت او زاد وربما وجدوه قريب الامتلاء وذلك البيت قدر قعدة انسان صغير ثم اطرق الشيخ اطراق من اخذ الفكر بجواسه برهة واتبه فراى يعقوب كالتعجب من حاله فقال كانك عجيت من اطراقي فاشاران نعم فقال ذكرت اية من كتاب الله تعالى فقلت في

نفسى لا والله لا يقدر كتاب الله قدره الا من اطال البحث
 بالنظر في اسرار مخلوقاته وعلمت ان الله جل ذكره قد ارشد عباده
 الى ذلك حيث جعل الكلام في بعض المحشرات قرآنا يتلى
 ويدرس فقال يعقوب اسالك تلاوة تلك الاية وتفسيرها وكان
 الشيخ مضطجعا فاستوى جالسا واخذ هيئة وقاره وتلا (واوحى
 ربك الى النخل ان اتخذى من الجبال بيوتا ومن الشجر وما
 يعرشون ثم كلي من كل الثمرات فاسلكي سبل ربك ذللا يخرج
 من بطونها شراب مختلف الوانه فيه شفاء للناس) واتبع التلاوة
 بالتفسير فقال (اوحى ربك الى النخل) اعطاها الهداية لاعمالها
 المختلفة والهمها اسبابها واختر لفظة الرب من بين اسمائه و اضافها
 لكل من يخاطب لان هداية النخل من وظائف التربية واسارة الى
 ان تربية الانسان بجهة تربيته لسائر الاشياء لا تفاوت في ذلك
 فلا فضل لشي على شي فيه ومنه يقول الله تعالى (ان الله لا يستحي
 ان يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها) فسبة العالم لما اشتمل عليه
 من صغير وكبير في فعله كنسبة البعوضة فالبعوضة وحدها عالم
 يعلم المتأمل فيه عظمة قدرة صانعه سبحانه ما اعظم شأنه ثم فسر
 تعالى الموحى بقوله (ان اتخذى من الجبال بيوتا ومن الشجر وما
 يعرشون ثم كلي من كل الثمرات فاسلكي سبل ربك ذللا) السبل
 الطرق الواحد سبيل والذل جمع ذلول وهو السهل اللين الذي
 لا صعوبة فيه واراد بالطرق مسالكها التي تسرح فيها بابدانها

والوسائل المرتبة التي تحصل بها على مقاصدها ثم نبيه على منافع
 الغسل فقال (يخرج من بطونها شراب مختلف الوانه فيه شفاء
 للناس) وكأنه ارشد باختلاف الالوان الى اختلاف الخواص فعلى
 من اراد استعماله في الادوية ان يدقق النظر في طلب خاصة كل
 منها وقوله (فيه شفاء للناس) معناه نوع من الشفا فعلى العقلا
 ان ينتبهوا لذلك ايضاً



المسامرة الثامنة والأربعون

الحشرات

وكل خلق الله سبحانه عجائب وغرائب شاهدة بعظمته وكمال قدرته وحكمته ونحن لو نظرنا الى اصغر ما خلق الله كالنمل مثلاً كيف احكم خلقه واثقن تركيبه ويسر له رزقه وشق له السمع والبصر وسوى له العظم والبشر وكيف دب على الارض وسعى في مناكبها لطلب رزقه وكيف ينقل الحبة الى حجره ويجمع في حره لبرده وفي ورده لصدده او فكرنا في مجاري اكله في علوه وسفله وما في الجوف من شراسيف بطنه وما في الراس من عينه واذنه لقضينا من خلقه عجباً وللقينا من وصفه نصيباً فتعالى الذي اقامها على قوائمها وبنائها على دعائمها لم يشركه في فطرنها فاطر ولم يعنه على خلقها قادر لا اله الا هو ولا معبود سواه

وتراها اذا خافت على حبيها ان يعفن اخرجنه من حجرها الى

ظهر الارض ليحف وتفلق الحبة نصفين خوفاً من ان تنبت فتفسد
 الا الكزبرة فانها تفلقها اربعاً لانها من دون سائر الحب ينبت
 نصفها وليس كل ارباب الفلاحة يعرف هذا فسبحان من اهمها
 ذلك وكذلك تراها تنم رائحة الشي من بعيد وان كان لو وضعته
 على انفك لم تجد له رائحة واذا عجزت عن حمل شي استعانت
 برفقتها الى باب حجرها ويقال انها في اول الامر تكون كاللدودة ثم
 تصير الى حالتها المعهودة فاذا كبرت وكل سنها وقرب حينها
 ظهر لها جناحان تطير بهما وفي ذلك يقول الشاعر
 اذا ما اراد الله اهلاك نملة

سمت بجناحيها الى الطيران

قال ناقل الحديث ثم احس الشيخ فتور يعقوب فاذن له في
 الانصراف الى موضع نومه وقام هو ايضاً فادى ما كتب عليه
 واخذ مضجعه وبرهان وصاحبه لم يحضرا بعد فغلب النوم حتى
 اصبح وصاحت الطيور فاتبه يسبح مولاه ويشكره على ما اولاه وقضى
 وظائف صباحه راجياً من الله تمام نجاحه وقبيل طلوع الشمس
 اتبه برهان فاوجز صلاته وحضر عند والده وعليه اثار النوم
 فانبط الى واجلسه عن يمينه واخذ يساله عما راي في تلك
 الدعوة ومتى حضر وطلق برهان يخبره عن ذلك شيئاً فشيئاً الى
 ان حضر الانكليزي فدار الكلام بينهما يصف كل ما شاهد حال
 غيبته عن صاحبه فكان من كلام الشيخ ان قال ان مما قصه ذلك

الرجل ما وقع للمالك الذين هاجروا من مصر مع الجيش
الفرنساوي وان ذلك الوقت كان وقت فتن وانتقام ومحن فقد
هدمت قصور وخلت من سكانها قرى ودور وكم تشتت فيها
عيال واسرث رجال ونهبت اموال وكم هتكت اعراض واستبيحت
نساء وازهقت نفوس واريقت دماء وكم الفت في ذلك مولفات لو
تليت على حجر لتصدع او على جبل لتزعزع وانخلت اذ ذاك عروة
الحكومة واخل نظامها وتضعضت احكامها وضعفت حكماها
فكان المخلق كالبحر وقت هيجانه او القدر عند غليانه الاقوياء منهم
كالاسود والذئاب والمضعفاء كالفرسة بين الانياب ولم يكن
للعقل حينئذ سطوة بل غلب على عقلم جميعاً حظ النفس
والشهوة فكان ينال الناس في اليوم الواحد ما لو وزع على سنين
لكفاها فتعوز بالله من تلك الاوقات واهوالها ومن احزاب السوء
واعمالها ولم يكن هذا التعدي قاصراً على المالك بل عم الامة جميعاً
خصوصاً جماعة الامراء والفضلاء وارباب الوظائف والعلماء فمنهم
من قتل وعي اثره ومنهم من فر بنفسه وانتطع خبره فاصبحوا لا
ترى الا مساكنهم وصار البلد خراباً وتفرق من بقي به احزاباً كل
يدبر ولاية يتوهمها ويلفق لها قوانين لا يفهمها ولم يتفقوا على طريق
يسلكونها ولا قوانين يتمسكون بها فبقيت الحكومة من ذلك في
اضطراب ومدت حوادث الزمن عليها يد الانقلاب فداخلني من
استماع ذلك بمقتضى الطبيعة ما يعلم الله من الغم وعجبت من هذا

النوع بينا هو على اتم استقامة الاحوال التآسية المدنية اذ طرأ عليه طارىء فخرج الى احوال لا يصدر مثلها عن الحيوانات العجم غير ان يعقوب ازال ذلك عني باحاديث تعجب الالباء في وصف بعض الحيوانات الصغار بما اعطيته من محاسن الاشكال ولطف الاهتداء الى غرائب الاعمال وسبب ذكره لذلك انه قدم لنا على السفرة اناء فيه محار فلم نقبله نفسي فسألته عن كيفية صيده وتسويته فشرح لي حاله واطنّب وزادني من اخبار بعض الحشرات ما اعجب واطرب

فقال الانكليزي من لم يتامل في خلق الحشرات او يحقرها ويتهاون بامرها فقد جهل واخطأ فان الله سبحانه خلقها لحكم واسرار علمها وان جهلها الانسان او فهمها وقد خصها الله سبحانه كما خص غيرها بامور كلفها بها وسخرها لها في هذا العالم لا قدرة لغيره على ادائها ولو وقف الانسان على ما فيها من النفع له ولغيره لما احقرها وانزلها من دركات الدنات والخسة الى حيث انزلها بل لو عرف حقيقة ما اعدت له وما تؤدى عمله لكان ذلك داعياً له ان يتنازل عن العظمة والسلطان ويخضع رداء الكبرياء والعدوان ويخضع لمولاه جل شأنه ويستكره على ما جعل له من الخير والنفع وما دبر له من عجائب الصنع اذ لم تكن هذه الحشرات مجرد اجسام متمتع بالحياة الى الممات عارية عن الادراك بالكلية كما يزعمه كثير من الناس بل لها ادراك كغيرها ومن وفق للنظر في احوالها

وتقلباتها في اعمالها وجد لها ادراكاً غريباً واحساساً بما يضرها وينفعها عجيماً وافعالاً محكمة واعمالاً مرتبة منتظمة تدل على انها جارية على قانون منظوم ساعية في مقصود معلوم وامر مخنوم وذلك من غير ان تقتدي بمثال تحاكيه وتعمل على شكله الا ترى الى الفعراش المعروف بالبي دقيق حين يخرج من قبره في فصل الخريف في هيئته التي تراه بها فانه حينئذ لم يكن سبق له رؤية غيره من جنسه حتى يقتدي به ومع ذلك تراه مقبلاً على عمله جاداً في تحصيل امله فاذا جاء فصل الربيع رأته يجتهد في الاستعداد لتناسل غيره منه ويموت من غير ان يرى ذريته البتة

وهكذا الدودة التي تعيش في قرار الماء زمناً طويلاً من مدة حياتها مغمورة بما فيه من الطين والحماة متغذية بما فيه من الاغذية حتى اذا جاء الوقت المعين لخروجها من الماء الى الهول اقلت ثوبها الرث الدودي ولبست الثوب المزخرف الطيري وبقيت كذلك مدة حياتها فمن ذا الذي علمها ذلك ولقنها وهي في الماء والطين كيفية معاشها في الفضا والهوا ولم تكن فارقت قرار الماء من قبل ولا تعود لسكانها من بعد ولا شبه بين حالتها الاولى والثانية ولا مناسبة بينهما

فكل ذلك دليل على ان الله قد خص كلاً من هذه الحيوانات من الادراك بما تحتاج اليه في معيشتها وتهندي به في امورها لتسعى فيما اعدت له بتدبير خالقها

قال الشيخ نعم هو كما تقول وهذه هي الهداية العامة المذكورة في قوله تعالى (الذي اعطى كل شي خلقه ثم هدى) اي اعطى كل شي من الاشيا صورته وشكله اللائق بما ينيط به من الخواص والمنافع ثم هداه الى طريق الارثقا والانتفاع بما اعطاه وعرفه كيف يتوصل الى بقائه وكماله
 فلكل نوع منها حظ من الادراك يتنفع به في امور معيشته
 قل او كثر كما لا يتكر

قال الانكليزي قد اعنى علماء الطبيعة بمعرفة ما في الحيوانات من هذا فوجده مختلف بحسب عظم الخ واتساع الزاوية الوجهية فلو نسبت جباه الديدان والحشرات ورؤسها الى بقية جسمها بالقياس على جهة غيرها من الحيوانات لوجد رأسها كبيراً ومجموعها العصي عظيمًا وذلك بالنسبة لباقي جسمها وبالقياس على غيرها من الحيوان كما ذكر حتى ان بعضهم امتحن ذلك فوجد في النملة والعنكبوت ادراكا اضعاف ادراك غيرها من الحشرات
 وقد فعل بعض المشاهير من الطبيعيين تجارب كثيرة على عدة عديدة من الحيوانات الفقارية من الانسان الى الاوز فظهر له ان زاوية الجبهة اذا كانت حادة جداً كانت قوة الادراك قليلة جداً وبالعكس اذا كانت منفردة جداً كانت قوة الادراك حادة جداً فزيادة الادراك بقدر زيادة الانفراج وعكسه بعكسه كما مر وعلم ان الاوز اقل ادراكا من غيره لصغر راسه بالنسبة لجسمه

وكثيراً ما يوجد عند بعض الحشرات من قوة الادراك ما يعينها على طرق الحيلة والتدبير والمكر والخداع وامثلة ذلك اكثر من ان تحصر فمن ذلك ان بعض الحيوانات لا ياكل الا ما كان حيا ويعاف ما وجده ميتاً فتراه في قرار الماء دائماً يسعى في تحصيل ما يتصيد ليتغذى منه فتي عثر بدودة مما يطلبه اسرع اليها واتقض عليها وفي الدود ما يعرف ذلك ويحنال له فترى الدودة اذارات عدوها هذا تركت الحركة بالكلية وتماوت وصارت كأنها لا حياة بها فتدخل هذه الحيلة على غريها فيتركها ويمضي لسبيله فتي راته ابتعد عنها نهضت بغاية ما يمكنها من السرعة وهربت وجدت في الفرار وذهبت

ومن الحشرات ما تعودت الاطفال على صيده واللعب به فاذا حل في ايديهم تماوت وتهافت حتى يرونه كالمت فيطرحونه لقزارته فاذا طرحوه فر ونجا بنفسه

وبعض الحشرات يتحيل على التخلص من التعرض له والرغبة فيه بان يكسو جسمه بثوب رث قدر كربه الرائحة فيج المنظر تجبه العين وتعافه النفس فيبقى فيه فاذا امن على نفسه خرج منه في هيئة لطيفة وصورة بهجة

وبعضها تخرج من بطونها مادة قدره فتجعلها على ظهورها لتعافها الطيور التي تحب اصطيادها واكلها فاذا كبرت الت تلك المادة فتعلق بما يليها من فروع الاشجار فتسيل على الاوراق وتكسيها

لونا العهر يفرسب الى الخضرة

وبعضها اذا وقعت في يد احد اخرجت من بطنها بخاراً
ابيض ذا رائحة كريهة مع دوي مفرع وصوت مزعج فيرميها من
يده فتجرب بنفسها وكذلك اذا احست بطالب يتعفي اثرها فعلت
ذلك مراراً لترهب به طالبها وترده عنها وهي مولية على عقبها
مسرعة في هربها ومن الغريب ان بقية بنات جنسها متى سمعت
صوتها فعلت مثلها كأنها تساعد على عدوها فيجتمع من اصواتها
المرتفعة ودويها الهائل ما يرد طالبها عنها فتجرب منه

ومن هذا القبيل الحشرات التي تاكل العنكبوت فانها تتخيل
حتى تجعل لها ثوباً من بيت العنكبوت وتعفر جسدها بالتراب حتى
لا تتميز منه فيأتي العنكبوت فناخذه وهو لا يشعر بها ثم تلخع ذلك
الثوب وتعود الى حالتها الاولى

ومن ذلك النحل فانه اذا دخل بيته بعض اعدائه انقض
عليه بعض العمال في الحال فيلدغه ويقتله ثم يرمي به خارج
الخلية ويعود لعمله وما كان فيه بغاية السرعة والنشاط فان كان
العدو كبير الجثة شديد البطش والقوة بحيث لا تقدر عليه التي
تصادفه من النحل تراها في الحال اسرعت بائذان بقية اخواتها من
العملة بامرهم واستدعائهم لقتاله فتنتال عليها من كل جانب وتنسل
اليها من كل حذب وتحدر عليه انحدار السيل فتهمج عليه وثقاتله
مع غاية الاقدام والبسالة والجرأة فتلدغه كل واحدة منها بجملتها

وتفرغ فيه سمها حتى يموت لوقته وحيثئذٍ تشتغل بمواراته لعجزها عن حمله ونقله الى خارج الخلية بسبب كبر جثته فينخط رأي الجميع على دفنه خوفاً من افساد الخلية بنشئه فتنتقل الى الخلاء وتاني ببعض مواد صمغية تستخرجها من النبات بما اودعها الله سبحانه من الآلات فتكسوه تلك الحثة الميتة وتغطيها بطبقة سميكة تقيها من التعفن وتلفها لئلا محكما كما كان قدماء المصريين يفعلون بموتاهم ثم تودعها في حفرة مخصوصة تواربها بها في داخل الخلية فتتخلص بذلك من اذى هذا العدو في الحياة وضرر نتنه بعد المات

فهل مع ذلك يتمال انها مجردة عن الادراك والتمييز حاشى لله ما هكذا خلقت بل جميع اعمالها مرتبطة بحسن التقدير والاحكام والتدبير لوقاية نفسها وبقاء جنسها ألا ترى ما يفعله النحل بالحيوان المعروف بسرنجوس وهو نوع من الحمار يعيش في البر ويتغذى من نبات الارض واغصان الاشجار فانه يدخل الخلية في بعض الاحيان فاذا احس بالنحل ورأى هجومها عليه انكمش في محارته وتترس بها وتحصن فيها فلا ياتي اليها التوصل الى لدغه والفتك به ولكنها مع ذلك لا تدعه حتى تجعل جلده لحده ومحاره قبره فتاني بمواد صمغية تسد بها عليه محارته فلا يمكنه خرقها ولا النفوذ منها فيموت بمكانه أفلا يثبت للنحل بهذه الحيلة شي من الادراك والتفكير ام يقال ان هذا الفعل منه اتفاقي من غير تبصر ولا تدبر ومن لطائف بعض الحيوانات انها عند سيرها تكون منتظمة

انتظام العسكر سواء كانت سائرة للانتقال او لتحصيل القوت او للقتال فتراها سائرة سير فرق منتظمة وجيوش مرتبة يقودها رئيس بسوسها وقد جعلت امامها وخلفها افراداً تكشف لها طريقها وتخبرها بما يعرض من حادث تحذره او عدو يخاف ضرره

ولا شي اعجب من عمل النحل في اتخاذ يعسوب لها اذا اقتضى الحال ذلك فقد علمت ان جميع الاعمال على الاناث التي هي العمال وانه لا شي على الذكور سوى تلقيح الام التي هي اليعسوب وانه لا يبيض ولا يميل للسفاد من الاناث الموجودة سواها واما بقية الاناث في داخل الخلية فكالمترهبة لا تميل الى ما تميل اليه نفس الانثى من سائر الحيوانات وانما تؤدي ما يلزم من الاعمال وتجتهد في تربية ما وكلت به من العيال ولا تعطى الاناث من حال تربيته الا غداء قليلاً جداً على قدر الاحتياج الضروري كما كانت تربيتهن في الاصل بهذه الصفة ولذلك يضمرن جسمهن ولا يعظم حجمهن ولا يكون فيهن ما في اليعسوب من خاصية الميل الى النسل

فاذا فقد اليعسوب من الخلية اخترنَ من بينهن واحدة يوئلنها لان تكون يعسوباً وذلك لعلمهن بما فيهن من اصل الجنسية والقبول لتلك الصفة والخاصية فيخترن بيتاً من البيوت يكبرنه ويزدن في سعته حتى يصير في قدر الواحد من البيوت المعتادة خمس مرات ثم يذهبن الى تلك التي اخترنها فياتين بها من

محلها فينزلنها بذلك البيت الفسيح فتمت استقرت به احاطت بها جميع
العملة يخدمنها ويغذيها باحسن ما يستخرجنه من الشهد العظيم
الذكي الرائحة فتكبر سريعاً لحسن المواد الغذائية التي يغدقن بها
عليها وتحرك عليها شهوة النسل والميل الى الفحل والرغبة في
اكثر جنس النحل وتكون اليعسوب لهم والاميرة عليهم فتامر وتنهى
وتنصرف على حسب ما تقتضيه قوانين السلطنة ويعظم عندها
حب اولادها الى حد لا غاية فوقه

وشفقة الحشرات على اولادها تفوق شفقة غيرها من الحيوان
بمراتب كثيرة كما يعلمه من عني بتتبع امورها ومقارنتها بغيرها فان
كان في غيرها من الحيوان ما يتنف شعر بطنه ليجعله فرشاً لاولاده
كالارب مثلاً ففي الحشرات ما يفعل اعظم من ذلك بدرجات
كثيرة فانها تتنف جميع شعرها لاولادها ولا تكفي بجزء منه دون
جزء ومتى باضت الحشرة لفت بيضها في عدة اثواب تصنعها لوقايتها
من العوارض الجوية ثم تموت هي

وهناك حشرات اذا باضت ضمت بيضها الى بعضه وغطته
بنفسها واحاطته من كل جهة بجسمها فتكون له كالكيس والوقاية
ثم تموت فاذا خرجت الاولاد من البيض وكثرت فعلت ببيضها ما
فعله بها اصلها وهكذا

وهناك نوع قد تؤديه شفقتة على اولاده الى استعمال طريقة
هي خير له من قتل نفسه من اجل اولاده وذلك انه يعدو على

غيره من الحشرات فيقتله ويأني به لحاجة ذريته

ثم ان اغذية الحشرات كغيرها من الحيوانات مختلفة باختلاف
انواعها فمنها ما لا يتغذى الاً من حيوان حي ولا يذوق شيئاً من
الحيوانات بعد خروج روحها ومفارقتها الحياة وذلك دأبه وطبعه
من حين ظهوره في حيز الوجود وابتدائه في تناول الغذاء وحيث
كان في وقت صغره وزمن طفولته لا يتاني له صيد ما يتغذى
به من الحيوانات الحية ولا يمكن للام صيدها وقيدها بقربه لياخذ
منها ما اراد في اوقات الحاجة فلهاذا تحال الام لذلك بان تعدو
على بعض الحيوان فتلقي على جسمه جزءاً من السم يخدره ويعدمه
الحركة مع بقاء اصل الحياة فيه وتأتي به على هذه الحالة لتجده ذريته
عند خروجها من البيض حاضراً عندها فتنشئه وتغذي منه متى
ارادت وهذه حالة بعض الذباب فانه يحفر ليضه حجراً في الارض
يضعه فيه ثم يذهب الى عنكبوت او دودة يعج فيها جزءاً من السم
فتسكن حركتها ثم يحملها الى حجره ويلقيها عند البيض ويسد عليه
فاذا خرجت الاولاد من البيض وجدتها بجانبها فتغذت بها ومن
اضطرار الذباب الى الغذاء من لحم الحي كان عنده جراً على
الحيوان فتراه يعد الى الدودة الكبيرة مثلاً فيخرق جلدها بخروطه
ثم يضع بيضه على كثرته ووفرته موضع الخرطوم وتحت الجلد فاذا
حصل القس وخرجت الاولاد تغذت ما في ذلك الخرق من
اللحم والدهن ولا تقرب الاعصاب المهمة للحياة الاً عند تهيئها للخروج

فترى حب هذا الذباب للاكل من الحي حمله على حسن التدبير في الاخذ من الجنة مع استبقاء حياة الحيوان وعدم ازهاق روحه بالكلية ومتى حان الاوان لخروج تلك الذرية من تحت الجلد الى الفضاء ولم يبق لها حاجة الى استبقاء حياته فعند ذلك تأتي على ما فيه من الاعضاء المهمة وتبادر الخروج من خروق تثقبها في جلده ومتى خرجت عملت كل واحدة منها لنفسها خيطاً محكمًا تلتف فيه وتتراكم فوق سطح الجنة فتغطيها بكثرتها بحيث لا ترى العين منها شيئاً

ومن الحشرات التي لها مزيد اعتناء بحفظ نسلها المجل (وهو ابو جعران) الذي كان يعظه المتقدمون من المصريين وان كان لا يخفل الاً بواحدة من بيضه في المرة الواحدة وذلك انه اذا باض عمد الى روث دابة من الحيوانات الاكلة للنبات كالبقير والغنم مثلاً فياخذ منه قطعة يضع بيضته في وسطها ثم يلفها ويدحرجها الى جهات مختلفة حتى يجعلها كروية الشكل فاذا صارت بهذه الصورة لف عليها رجليه الخلفيتين لان فيها اعتناء وقابلية لهذا العمل ثم يدحرجها ويجرها معه الى اي جهة ذهب فتكتسب صلابة وملاسة بكثرة دحرجتها ومرورها على التراب والرمل الناعم ولا يفارقها العروض مانع يمنع وقاطع يقطع بل يغالب بها الموانع والقواطع ولا يزال يجرها حتى يبلغ بها حيث شاء فاذا صادف ارضاً ذات ميل وانحدار كسفع جبل او نحوه بذل ما عنده

من الجهد ودفعها بالقوة والبأس فان تفلتت منه بحث عنها بغاية
 الجهد والاعناء والهمة وهو في حال من الكآبة والحزن تلوح عليه
 اثارها ونظير سماتها ولا يزال كذلك حتى يجدها ويعود بها لما كان
 عليه فان اضلها او اخذها انسان ويئس هو من العثور بها باض
 غيرها وصنع بها كما صنع بالاولى فاذاتمت صلاحيتها واستدارتها
 حفر لها حفرة في الارض ودفنها فيها وتركها

وبما له من هذا العمل والجهد ومزيد الكد والجهد احترامه
 المصريون وجعلوه علماً ودليلاً على الخصب والبركة وحسن
 السعي والحركة

فقال الشيخ هذا كله من جملة ما انعم الله به على انواع
 مخلوقاته حيث خلق في كل نوع ادراكاً لتحصيل ضرورياته
 والتحبل على قضاء حاجاته والسعي في وقاية نفسه وبقاء نوعه
 وجنسه فرأفته سبحانه عمت سائر المخلوقات لا يستبد بها قوي على
 ضعيف ولا يفرق فيها بين وضع وشريف بل الكل مغمور في
 ببحار احساناته ورحمته العامة لجميع مخلوقاته ومن تأمل احوال
 عالم الحشرات والهوام وجد فيها من الادراك والالهام ما لا تحيط
 به العبارة ولا تصل اليه الاوهام فمنها نوع لا يتعيش الا باكل
 الصيد. فيستعمل طرقاً تكاد تجعله لاختلافها انواعاً فمنها ما يتنصص
 خلف ما يصطاده فلا يتركه الا اذا ظفر به ويقبض عليه ومنها ما
 ينصب شباكاً ليقع عدوه في حبالها وقد صادفت ذات يوم حشرة

صغيرة تعرف عندكم باسد النمل رايتها تحفر حجراً في الرمل ووجدت على البعد من حجرها نملاً كثيراً ميتاً يظنه من لم يتأمله انه اثر دم فاحسبت ان اعرف كيف تفعل فتعدت انتقد احوالها فوجدتها تحفر حجراً كاملاً الانتظام في رمل جاف ناعم جداً ورايتها تحفره براسها فتضع راسها في المركز ثم ترفعه فيرتفع التراب معه فتلقبه بعيداً عن الحجر بسرعة وقوة ثم ترفع غيره براسها وتذفه كما فعلت اولاً وهكذا على التوالي والاتصال بحيث ترى التراب يمرمر السحاب على التعاقب والتتابع حتى اكملت تعميق حفرتها كما ارادت وجعلت في سطوحها وحوافها من الميل والانحدار ماشآت ثم رايتها دخلت فيه واختفت به بحيث لم يكن ظاهراً منها سوى رجلها فعميت لذلك ومكثت اتربق ماذا تفعل واذا بنملة قد انت حتى اذا وصلت الى حافته انزلت رجلاها فوقعت من اعلاه الى اسفله فاطبقت عليها تلك الحشرة برجلها وقتلتها ولم تتمكن النملة من الصعود ثانياً لما في حوافي الحجر المذكور من الميل والانحدار مع تهايل الرمل

ثم وجدت ايضاً دودة كبيرة انت على حافة الحجر فوقعت فيه كذلك فاجتهدت في التخلص منه بكل قوتها فلم تمكنها تلك الحشرة من غرضها بل صارت تلقي التراب عليها لتعوقها وتعطل حركتها حتى كلت وضعت قوتها لكثرة صعودها وسقوطها وما كابده من التعب والعناء فوقعت في مركز الحجر ساقطة لاهراك بها

فتلقفتها الحشرة وهي لها بالمرصاد فقتلتها ومصت دمها ثم انها رات ان بقاء الجثث في الحجر يضربها ويخشى عليه من نتنها وخبث رائحتها وان رويتها منفرة لما عساه ياتي من الحيوانات الطارئة داعية للاحتراس والتحرز من الوقوع في مثل ما وقعت فيه هذه الاجساد من العطب فرايتها بعد ان امتصت دمها الذي هو غذاؤها وبغيتها وتم غرضها منها ولم يبق لها ارب في بقائها احتملتها على راسها بنشاط وسرعة وطرحت بها بعيداً عن الحجر بحماس وقوة ثم عادت الى حالتها الاولى ترتقب ما ينساق اليها من رزق جديد يقع في حبالها فقضيت العجب من حالها

وقد سمعت ان في بلاد امريكا حيوانا كبيراً يعرف بأكل النمل منه ما يبلغ طوله نحو سبع اقدام فاكثر وارتفاعه نحو قدمين وله فيما سمعت انواع كثيرة كلها متشابهة في ان لها فماً صغيراً ولساناً طويلاً يسد مسد الاسنان قد يبلغ طوله نحو ثلاثين اصبعاً وهو حريص على اكل النمل واهلاكه وليس في اعداء جنس النمل ما هو اشد فتكاً به واكثر اساءة اليه ونكاية فيه من هذا الحيوان وما علم من احواله ان مقدار متقاره يكون غالباً ربع طول جثته وطرفه غليظ ولسانه في الغالب ذو طاقين وهو وسيلته الوحيدة التي يتعيش بها ومن ضبعه ان يجعل مأواه في الغياض والجبال الخالية ويخفي احياناً تحت الاوراق اليابسة وذلك لعجزه عن المحاماة عن نفسه بالهمة والحيلة حين يدهمه ما هو اشد منه بأساً ولذا تراه لا

يكاد يخرج من مأواه إلا اذا دعاه داعي المجموع والسغب وإذا خرج فكذلك ساعة واحدة كفته المؤنة إياماً اذا كان النمل في تلك البلاد كبيراً وفي غاية الكثرة وحين يشعر بحمل فيه نمل يبادر اليه رويداً ساكناً حتى اذا استقر في موضع ملائم مد لسانه على الأرض وتلقف به ما شاء وكلما نال به قدراً بلعه وإعاد ما بدا به حتى يتجم فيرجع الى مأواه ثم انه وإن يكن يحذر أعداءه من ذوات الأربع ويتقي بأسها غير انه اذا اقتحم ووقع في الممعة دافع عن نفسه بخاليه باشد عدوة فيغالب الكلب بل النمر الامريكاني

وهذا الحيوان وإن لم يكن من الحشرات الصغيرة إلا انا ذكرناه بالذي قبله والشئ بالتي يذكر

فقال الانكليزي من حذاق الحشرات في الاصطياد والتجسس على بلوغ الغرض حيوان العنكبوت فمنه ما يد حباله في الغيطان بين اغصان الاشجار ومه ما يدها في زوايا الاماكن واركانها فيجعلها كالشبكة المصنوعة والحبال المنصوبة وفيها طبقة سفلية عليها شي من التراب والغبار بحيث تشبه بالأرض فاذا وقعت فيها الغنيمه من ذبابة او نحوها ما يغتذي به ويصطاده علقت بها حبال متصلة بتلك الطبقة من شبكة فوقها تلتف عليها فتربك في امرها ولا تجد للخلاص سبيلاً ولا للنجاة حيلة وحيوان العنكبوت مخبئ في مخدع له هناك اشبه بالقنطرة المعقودة اسطوانتي الشكل له بابان احدهما اقبى والاخر عمودي على فوهته من اسفل الشبكة

ولكل منها غرض مخصوص قد اعد له فمن الاول ينقض العنكبوت على قنصلته فيترسها والثاني يلقي منه ما فضل عنه بعد مص دمه حتى لا يستقر في بيته شي مما يقع فيه فيقذره ويكون مشبها لما عساه يقع فيه فيقذره فلو تأمل الانسان في اسفل المكان الذي فيه العنكبوت لوجد به كثيرا من الذباب مقتولا ولا فائيل له غيره ومن العنكبوت نوع مضر لدغه شديد الاثر لكثرة سمه وهذا لا يوجد الا في البلاد الحارة واما الذي في البلاد الباردة فلا يضر لقلة سمه ولا يخفى ان السم كما يكون في نوع الثعبان والافعى كذلك يكون في هوام الارض وحشراتهم ولا يختلف الحال الا بالقلّة والكثرة فان لكل منها اسنانا في فوهات سمية فاذا عضت احدا قذفت السم من تلك الفوهات في الجراح التي تحدثها باسنانها:

ومن هذا القبيل الشبث اعني الحيوان الذي يقال له عند الهوام ابو شبت فان سمه يكون في الجهات الحارة قاتلا حتى انهم راوا تأثيره في الحيوان الكبير في الزمن اليسير ومنها ما يعدو على الدجاج والحمام فيقتلها ويشرب من دمها ولذا يسمى في بعض الجهات بمخناق الفراخ:

ومن يتامل الحشرات يجد عند بعضها شدة شهوة وشرة فيكون شديد العدوان والغضب كثير الحب للغنيمة والتكسب ولذا تراها لاجل الحصول على شهواتها واغراضها دائمة النزاع والمقاتلة

مع بعضها فيكون بينها حروب تسيل فيها الدماء ويذهب كثير من
الأرواح وقد تغير على غيرها وتحال على سلب ما حادفته عنده
من ذخائره وموجوداته

المقامة التاسعة والأربعون

النمل

ومن هذا القبيل النمل فانه يكون بينه حروب كبيرة
ومناوشات كثيرة غير ان طوائف النمل عند تجهزها للحرب
ومسيرها للقتال لا تستعمل ما يستعمله الانسان لحروبه من العدد
والالات والادوات بل تسير للقتال بانفسها غير مستصحبة شيئا
من ذلك معها وتستعمل في قتالها ما قد يعجز الانسان عنه من

المكر والحيل والمكائد

ومن النمل نوع يأسر غيره ويستعبده ويستخدمه طول حياته ويخلص بواسطته من الكد والكدر والعمل لنفسه وقد شاهد بعض علماء الطبيعيين نوعاً من النمل يحمل نوعاً آخر في فمه ولكن لم يكن يعلم حكمة ذلك ولا سببه الى ان ظهر الان ان بعض النمل قد يحتاج الى خدم فيجهم على غيره فيسترقه ويستخدمه في اعماله وسائر احوال مسكنه ومعيشته ومن يراقب النمل ايام الصيف في بعض الجهات يجد يغير على بعضه فيأخذ الغالب منه اولاد المغلوب ويسترقها ولا يكون ذلك غالباً الا في الليل فيخرج ويصطف صفوفاً متقاربة ويقصد الجهة التي يريد غزوها فلا يرجع الا وقد بلغ مقصوده فيخرب المساكن ويفرق المكامن ويأخذ ما احب من الذرية ولا يأخذ الكبار لعله انها لا تنقاد لحكمه فاذا رجع بالذرية حملها بافواهه واذا خاب احد من الحزب الغالب ولم يجد اسيراً يسترقه اخذ معه من رم القتلى ما قدر عليه لينتفع به في غذائه وترى هذه الفئة الغالبة في عودتها ومنصرفها الى مساكنها تسير خلف بعضها واحدة خلف واحدة حتى انها قد تشغل مسافة من الارض يبلغ طولها نحو اربعين متراً وبهذه الصورة تعود الى مساكنها بالظفر والغنيمة في حال مسرة وطرب فاذا وصلت الى منازلها بهذه الاسارى الحديثة السن تفرد لها محلات مخصوصة وتربها مع الصدق والامانة والحذق وتحفظها من كل

ما يضر بجسمها ويخل بصحتها حتى تبلغ أشدها

وهذا النوع المحارب المحب للسلب والنهب لا يجب ان يشتغل بشي سوى الحرب فلذلك يكل بناء بيته وتربية ذريته الى ما عنده من الارقاء والمخدم حتى انه اذا احتاج للانتقال من مسكن الى اخر تكفلت خدمه بنقله وقامت بحمله فتراها تحمله بافواهها كما تفعل الهرة باولادها

وقد امتحن بعض المشتغلين بالبحث عن احوال الحيوانات بعض النمل الذي تخيل فيه التراس والامارة والرفاهية والاحتياج الى خدمة الغير له فاخذ جماعة منه وافردها عن خدمها ثم احضر لها شيئاً مما يتغذى النمل به وبيها لك في طلبه فوجدتها غير طالبة لما احضر لها حتى مات اكثرها جوعاً ثم انه نقل اليها واحداً من النمل الذي توهم فيه العبودية والخدمة فاشتغل بخدمتها وتغذيتها فاكلت ما احضره اليها مما كان يراى منها ولم تكن تحركت اليه من قبل فاكلت وشبعت وانتعشت فعلم من ذلك ان هذا الصنف الغالب المحارب بعد ان يبلغ في حروبه ما شاء من النصر والظفر والغنمة ويحصل على ما اراده من العز والثروة والسعة قد يستولي عليه حب الراحة والرفاهية واللذة فياخذ في الكسل والبطالة ويكل جميع اموره الى ما عنده من الخدم والحشم والاتباع ولا يشتغل هو بشي من الاشياء فيخل عنه نظام الجمهور وتدور عليه صروف المقدور بالويل والثبور وتفسد الامور

وطباع هذا النوع مختلفة باختلاف الأماكن وبالنسبة للزوم المخدم وعدم لزومها فترى الأرقاء في بلاد السويس هي التي تبني المساكن وتنف على أبوابها بمنزلة البوابين فتفتحها في أول النهار وتغلقها عند دخول المساء أو ظهور علامات تدل على المطر وقد شوهد في بلاد الانكليزان الاتباع والأرقاء عليها جميع المخدم المنزلية الداخلية فقط وفي بلاد السويس عليها بعض المخدم الخارجية أيضاً بسبب كثرتها

وليس جميع النمل قابلاً للاستعباد والاسترقاق فإن هناك نوعاً صغيراً الجثة لا يقبل الضيم والذل بل يدافع عن نفسه بحماس ويقاوم أعداءه بشدة بأس وشهامة فتخشاه وتهابه وتجنبه حتى أنها لا تقرب عائلته ولا تتسلط على أولاده بل يرى بعضه ساكناً بالقرب من مساكن جيوش النمل المحاربة مع الأمن والاطمئنان من غير أن تناله بمكره لعلمها بشجاعته وبأسه

ومن النمل المحارب ما لا يقتصر في محاربه على استرقاقه لغيره من النمل بل يزيد على ذلك أن يخلل النبات فيجد في خلاله حشرات صغيرة كالبعوض لها ثديان في ظهرها من الجهة الخلفية يخرج منها مادة سكرية يجبها النمل حباً شديداً فيمتصها فتكون تلك الحشرات بالنسبة له كالبقير الحلوب بالنسبة للإنسان فيصعد إليها فوق أطراف النبات والأعشاب ويركب كل واحد واحدة وفي بعض الأوقات قد يجتمع النمل وعبيده ويحزب الكل ويسطو

عليها دفعة واحدة وياخذها ويحبسها في منزله كما يحبس الادمي
البقر والغنم فيمتص لبنها كما شاء ومتى شاء ويتعهدا بالطعام
والغذاء كما يفعل صاحب الغنم والشاة

واغرب شي ان هذا النمل يعمل حول بيته جسوراً منيعة
اولها عند بيته واخرها بعيد عنه محنط بالحشائش التي ترعى فيها
الحشرات المذكورة وقد يتخذ لها اماكن مخصوصة لا يمكنها التخلص
منها فتبقى فيها كالحبوسة ترعى فيما اعد لها من المرعى وتعطي لبنها
للنمل متى اراد وفي بعض الاحيان يقع بين النمل وبعضه محاربات
عظيمة ومناوشات شديدة كالحروب التي تقع بين قبائل البشر
منشاؤها عداوة طبيعية او حوادث وقتية وقد وصف بعض
المشاهير من علماء هذا الفن وقعة رآها بين قبيلتين من جنس
واحد من النمل فقال كنت بين قبيلتين عظيمتين كثيرتي العدد
وكان ما بين محطتيهما قدر مائة خطوة ولم اعلم السبب الذي
اوجب ثوران الفتنة وهيجان الشر بينهما وانما رايت عدد المحاربين
من الفريقين بلغ في الكثرة مبلغاً عظيماً جداً بحيث يتعذر على
دولتين من الدول الكبيرة جمع عدد مثله من العسكر قال ثم
رايت الفريقين اخذا في الزحف على بعضهما الى ان التقى الجمعان
في قدر قدمين من الارض في منتصف المسافة التي بينهما ورايت
خلف كل جيش عدداً معدداً للمدد والاعانة كما تفعل الجيوش من
اتخاذ المدد في الحروب ثم حبت الحرب والتحمت الصفوف والتقت

الالوف بالالوف والتفت الساق بالساق وصار كل من الفئتين يتتبع بما صادفه امامه في الارض من حجر ومدر وغير ذلك فيتترس به ويتحصن خلفه من عدوه وكان البعض يقاتل ويضرب والبعض يحوز الغنيمة ويضبط الاسرى وكان يرى على الاسارى علامة الحزن والكآبة لاسيما عند مقاربة المحل المعد لاعتقالها عند العدو قال ورايت محل المعركة قد تغطى برم القتلى ودماء الجرحى وصار يشم منه روائح كريهة لكثرة ما اجتمع فيه من الجيف وكان ابتداء القتال بين الفريقين باثنين برز كل منهما للآخر فتماسكا بالارجل وصارا يتصارعان ويتغالبان ويجذب كل منهما قرينه الى جهته ثم اتى لكل واحد منهما مدد من قبيلته يجذبه الى ناحيته حتى صار الاولان مع ما انضم اليهما من المدد اشبه شي بمجمل طويل يشد احد طرفيه الى جهة والطرف الاخر الى الجهة المتقابلة لها حتى يغلب احد الطرفين فياخذ غريمه الى جهته او يحصل الانفصال من غير ان يغلب احد ثم يعود القتال فاذا دخل الليل انفصل الفريقان وانقطعت الحرب الى الصباح ثم يعود كل الى ما كان عليه وهكذا وكانت سعة ميدان الحرب قدرست اقدام طولاً وقدمين عرضاً

فقال الشيخ كنت فيا سلف اجتمعت برجل من اهل السودان فاخبرني ان ببلادهم نوعاً من النمل ابيض اللون يتجمع جموعاً كثيرة ويكون منه طائفة كالمجنّد والعسكر وطائفة كالعمال

وللذكران منه اجنحة وليس لما عداها من العمال والعسكر والاناث
اجنحة وتخص العمال منه ببناء المساكن والعسكر بالحفظ والضبط
والحراسة واما الاناث فعليها البيض واكثر النسل وتربية الذرية
والقيام بامرها وهي كثيرة البيض الى الغاية حتى كانها كيس مملوء
بيضاً فان حجمها مملوءة بالبيض قدر حجمها فارغة التي مرة ومتى
ابتدأت البيض باضت في الدقيقة الواحدة قدر ستين بيضة وقد
يبلغ مقدار ما تبيضه في اليوم الواحد نحو ثمانين الف بيضة كذا
قال والعهد عليه

فقال الانكليزي هذا صحيح كما قاله وقد شوهد هذا النوع من
النمل في جهة راس الرجاء الصالح وحجم مساكنه بالنسبة لحجمه
ما يقضي منه بالعجب فان ارتفاع المسكن عن الارض قد يبلغ نحو
عشرين قدماً وشكله هرمي شبيه بقمع من السكر عظيم الحجم واسع
اسفله ضيق اعلاه فمن رأى هذه المساكن على بعد ظنها كفرًا من
الكفور او قرية من القرى الريفية وتكون في غاية من المتانة بحيث
لا يمكن كسرها لشدة صلابتها ودخلها فسيح جداً حتى ان الواحد
منها يسع اثني عشر رجلاً يقيمون به وقد يتخذها صيادو الوحوش
ماوى يكمون فيه لاصطيادها ويوجد في داخلها مجاري مياه تشبه
المدافع الكبيرة ممتدة في الارض الى عمق ثلاث اقدام او اربع

فلو نظرنا الى النسبة بين امتداد قامتنا وارتفاع ما نبنيه من
المساكن مع النسبة بين قامة النمل وارتفاع مساكنه لوجدناه

يفوقنا بكثير فان ارتفاع مسكنه قدر قامته خمسمائة مرة فلو كان ارتفاع مسكن الانسان بالنسبة لقامته بهذه المثابة لكان ارتفاعه قدر اكبر هرم من اهرام الجيزة اربع مرات او اكثر

ومن النمل نوع يتسلط على منازل الناس فيجعل له تحتها سراديب يتوصل منها الى اكل ما فيها من الخشب ولا يزال حتى ياتي عليه ولا يبقى منه الا ظاهره فنسقط البيوت باقل حركة فيفقد الانسان بيته في زمن يسير وكثيراً ما تسلط ذلك النمل بهذه الصورة على مدائن عظيمة وبلاد عامرة فانتلفها وخربها عن اخرها واضطر اهلها الى الرحيل عنها الى جهات بعيدة لتسكنها وتبني بها بلادها ومدائنها

والعجب ان ذلك النمل لا يحتاج في مثل هذا العمل الى مدد طويلة بل يقضيه في مدة قصيرة وايام يسيرة وقد حكى بعضهم انه راه اكل سلفاً كبيراً من الخشب في مدة خمسة عشر يوماً وياكل مثل الكرسي والمائدة والدولاب في اقل من ذلك فيرى الانسان هذه الاشياء واقفة بهيئتها على اصل صورتها ومتى مسها بيده صارت تراباً مذروراً وراحت هباءً منثوراً

قال الشيخ رايت في بعض الكتب ما هو اخف من ذلك فكنت استغربه فاذن زال استغرابي حكى الجاحظ في كتاب الحيوان انه في بعض الايام كثر النمل في بعض ضروب بغداد حتى ارتحل عنه اصحابه وتركوا مساكنهم للنمل وان بعض الناس

قال لاحد الفارين من النمل كيف اخرجكم النمل من دياركم
فاخذ بيده وقال هلم معي لاريك ذلك وحمل من طريقه راس
جمل مشوياً فلما انتهيا الى بعض تلك الدور اكلا ذلك الراس
وامر صاحب المنزل خادمه باحضار طست كبير منصف بالماء
ووضع عظام الراس الى جانبه فسعى النمل اليها وصار ياخذ
النمل وينفضه في الماء فبعد مدة يسيرة فاض الماء من الطست
فقال له كيف تسكن تلك الديار على تلك الحال فسبحان من
خلق الاشياء وعرف الانسان قدره بتلك الايات فهذا جيش من
النمل اخرج قوماً من ديارهم وابطل حيلهم وقواهم واعجزهم ليفهموا
قوله تعالى وخلق الانسان ضعيفاً ويقفوا بانفسهم على مواضع
الاعتبار وتكون مساعيم فيا له خلقوا وكل ميسر لما خلق لاجله
على حد الادب مع الخلق وخالقه

قال الانكليزي ومن النمل نوع اذا بنى له بيتاً لا يجعله
هرمياً بل يجعله على شكل كروي في عظم البرميل يصنعه من
مواد صمغية واجزاء خشبية وبعض حشائش ويجعل في داخله
ضروباً وطرقاً كثيرة تفوق الوصف ويكون في العادة بين فروع
الشجر

وفي سنة ١٧٨٠ من الميلاد ظهر منه نوعان في المديرية
الجنوبية من فرنسا فخرّب بسببها بيوت كثيرة وسقطت اسقف
وحيطان متعددة ولم يبقَ في (روشفور) شي من الكتب ولا

الحشب حتى انهم الان يضعون اوراقهم في علب من التوتيا خوفاً عليها

ومنه ما يسكن المزارع فيضر بالزرع ضرراً بيناً وربما حفر له فيها بيوتاً ومغارات وعمقها حتى يبلغ ارتفاع التراب الذي يخرج منها خمسة عشر او عشرين قدماً فتتلف المزرعة ويتركها صاحبها وربما احرقت اماكن هذا النمل بالنار او ضربت بالمدافع لتخريبها ان امكن وقد يستعمل اللغم في تخريبها اذا كانت عميقة ممتدة في جوف الارض فقد تبلغ في العمق الى عشرين قدماً في داخل الارض

والكلام في هذا المبحث طويل والذي ذكرته لحضرتكم اقل من القليل بالنسبة لما قيل في هذا القبيل وعما قريب ان شاء الله يتوسع الاستاذ في اللغة الافرنجية فيطلع بنفسه ان اراد على ما شرحه اهل التاريخ الطبيعي في هذا المعنى وغيره بالاطناب والتفصيل فان عجائب الخلقة ونفائس الحكمة لا تنحصر في هذه الحشرات بل هي منبئة في جميع افراد الخلقة فقد منح الصانع كل جنس ونوع وصنف من العالم بخواص عجيبة وامور غريبة تجدها في الاشياء الكبيرة كما تجدها في الصغيرة وتراها في حيوان البحر كما تبصرها في حيوان البر ومن اعجب العجب احوال حيوانات دقيقة جداً امكن الاطلاع عليها بواسطة النظارات المعظمة وكانت لا ترى بدونها لفرط صغرها ودقتها ويقال لها عند ارباب الفن

الحيوانات الثعينة والفطرية وتوجد في العصارات النباتية والحيوانية وفي الهواء والماء وغير ذلك وكانت مجهولة عند الامم السالفة ولم يطلع الانسان عليها ولا انكشف له الغطاء عنها وعلم بعض اسرارها الا منذ عهد قريب بعد ظهور النظارات لانها لما فيها من خاصية تكبير الجرم وتعظيمه في نظر الناظر عظمت اعضاء هذه الحيوانات الدقيقة فتيسرت رؤيتها وامكن للانسان ان يمتحن احوالها ويعلم كيفياتها فان اردت اطلعتك على ذلك عند وصولنا الى باريز واريك النظارة واحضر لك بعض عصارات نباتية وغيرها لتخبرها بنفسك وترى ما فيها من الحيوانات بحسك

المسامرة الخمسون الانسان والحيوان

قال الشيخ من نظر في افعال الحشرات وغيرها وقارن بينها وبين افعال البشروجد بينها قرباً ومناسبة ظاهرة تحمله على ان يقول ان احدهما اخذ من الاخر فايهما كان المعلم وايهما المتعلم الظاهر ان المتعلم هو الانسان وان المعلم هو الحيوان وان اكثر معلومات الانسان ومعارفه التي بنى عليها اعماله ماخوذة من الحيوانات صغیرها وكبيرها وهي اساتذته في ذلك فمن اطلع على احوال الحيوانات وما لها من لطائف الصناعات علم ان من حكمة صانع العالم سبحانه ان ضرب له المثل بها ليجزو حذوها ويسلك في تحصيل اغراضه الطرق التي سلكتها وقد حكى لنا الكتاب العزيز ان احد ابني آدم قتل اخاه فلم يعرف ما بصنع مجيفته فبعث

الله غراباً يبحث في الأرض ليريه كيف يواري سوءة أخيه وإن
ابن آدم قال يا ويلتنا أعجزت أن نكون مثل هذا الغراب فأواري
سوءة أخي فأصبح من النادمين

قال الانكليزي لا شك في أن الانسان تعلم من الحيوانات
واخذ عنها واقتدى بها فانها خلقت قبله وتقدمت عليه فانه لما
كان محتاجاً اليها من جهة المساعدة والمؤنة اقتضت الحكمة الربانية
أن تسبقه في الخلقة فلما جاء بعدها تعلم منها واخذ عنها فلم تكن
اعمال الانسان كلها من مبتدعاته وإنما نقلها من الحيوانات والحشرات
وقلدها فيها بل ربما لم يتقن التقليد في بعضه وظهر عجزه فيه مع ما
له من العقل والنفطة

ولقد عاش مدة في الادواح والاجام كما تعيش الطي والما
وعاش قبل ذلك مدة في الجحرج تحت الأرض كما تعيش الجرزان
ومضى على ذلك مدد طويلة واجيال كثيرة ثم قلدها النمل في
اتخاذ البيوت المنتظمة التقسيم والشكل

وتعلم عمل الجسور والقناطر من الحيوان المسمى بالكستور وهو
المعروف بالجندبادستر الذي يبني بيته بالقرب من شاطئ نهر أو
بركة ويتخذ له من اغصان الاشجار جسراً متيناً على هيئة سد يمنع
عنه قوة السيل بان ينضد تلك الاغصان بعضها فوق بعض
ويلصق احدها بالآخر الصاقاً محكمًا لا ينقصه شي مما يحتاج اليه
من هندسة البناء

واخذ الانسان علم الملاحة عن الدب الذي يوجد في المنطقة
الشمالية من الكرة الارضية فانه يسافر في البحر على قطع من الثلج
الى حيث يقصد

وتعلم الصيد والقتل من الثعلب البحري البري ومن بعض
الحشرات الصيادة

واخذ الاسلحة كالسيف والحربة والمنشار والبلطة وغيرها من
تأمله في السمك

واخذ صناعة الشباك من مشاهدته لبيت العنكبوت وقد
تقدم

واخذ صناعة الدروع والكماشات والملاقيط عن السرطان
واخذ صناعة احتماق النشوق عن الاستريديا وام الخلول
واخذ علم الفلاحة عن الخنزير فانه اول حيوان شق الارض
بخرطومه فاخذ عنه الانسان صناعة حراثة الارض ولعله كان
ايضاً اول معلم للانسان في كيفية استخراج المعادن كالذهب
والفضة من الارض

واخذ عن الهرة التوقي من الروائح الكريهة التي تتصاعد من
الفحم

واخذ الطب عن الكلب حيث رآه يتعاطى المسهلات عند
انحراف مزاجه

واخذ تجنيد الجنود وتعبئة الجيوش من النحل

وتعلم تدوين الدواوين والمشاورة في المصالح من اللقلق واخذ
التيار والالعب المضحكة عن القرّة

واخذ الحذر عن الغراب واتخاذ الجلساء للملوك عن الكلاب
وكذا لثم اليد التي يخاف سطوتها

واخذ المجور والجرأة عن السبع والكبر والخيلة عن النهر
والجمهورية عن النمل

قال الشيخ الانسان وان قلد الحيوان في بعض احواله
وبرع في كثير من اعماله لكنه الى الان لم يصل الى تقليد النمل
في طريقة ادخاره لاقواته الازمان الطويلة من غير ان تلتف والظاهر
انه اخذ عن الحشرات فن الرسم والنقش وهندسة العمارات
وصب المعادن في قوالب مختلفة وعلم الطبيعة والكيمياء والعلوم
الرياضية ولان لم يصل الى استيفاء جميع ما عندها من الاسرار
ومن نظر في امور الانسان والحيوان وما لها من الاحوال والاعمال
علم ان الانسان لولا بجنه واستكشافه لاحوال جيرانه في الارض
من الحشرات وغيرها لكان في العجز عن تحصيل منفعه واستكمال
اسباب راحته اقل من كثير من الحيوان



المسامرة المحادية والخمسون

دعوة اس

قال ناقل الحديث وحين انتهى بهما الكلام الى هذه الغاية استأذن الانكليزي صاحبه الشيخ في المضي الى الوفاء بوعده بينه وبين رجل من اصحابه كان لقيه بالامس واخبره انه يريد لقاءه والتحدث معه ساعة فشكره الشيخ على ذلك وظهرت في وجهه بشائر المسرة وخلا حينئذ ببرهان ابنه فقال الان تخبرني بجميع ما شاهدت في الدعوة التي كنت بها امس

فقال له برهان حاصل القضية ان حضرة الخواجا عرفني ونحن في الطريق انه زاهب الى بعض اصحابه ليذهب معه الى دعوة عند احد الاغنياء وان هذه الدعوة يحضرها اعيان البلد ووجوهها واننا ننتهز منها فرصاً جمّة اقلها معرفة اخلاق هذه الامة

الى ان قال وليت الوالد كان معنا ليرى ما نراه فربما لا تفي العبارة
اذا نحن عدنا واخبرناه الى ان انتهت بنا الطريق الى باب عال
داخله ميدان واسع فاستقبلنا الخدم من الباب بغاية التعظيم والتكريم
ومشوا معنا الى ان دخلوا مكانا فسيحا غاصا بالناس فيه نحو
خمسة نسمه من رجل وامرأة فاستقبلتنا صاحبة المنزل بغاية
الترحب والتاهل ثم اتى بعلمها وفعل مثل فعلها واخذ بيدي الى
المجلس وذكر لم اتي من مصر فحيوني جميعا ورحبوا بي وقدموا لنا
كراسي جلسنا عليها وكان بالمجلس رجل تلوح عليه هيئة الهبة
والوقار يتكلم بالعربية كانه ليس من ابناء هذه الديار فسألني عن
بلدي وعشيرتي ومحندي وعن أمور كثيرة منها ما اعلم ومنها ما لا
اعلم حتى سألني عن الاهرام وبعض المعابد والهاكل التي بمجھے
الصعيد فكنت تارة اجابوه مع الخجل وتارة انستروا بالصمت فيبادر
صاحبنا برد الجواب وربما يزيده فوق ما يريد فماتقذني من
ورطة هذا المجلس ومضايق تلك الاسئلة غيره ولولاه لكنت
اضطرت الى الاعتراف بالجهل لما علمه الاغراب من امور بلادنا
وما بها من الاثار العظيمة والمباني القديمة فقد وجدت ذلك
الرجل يذكر امورا ليست في علمنا ولا اطلعنا على نص لها في
كتبنا وكان باقي اهل المجلس يتكلمون في انواع مختلفة من امور
الدنيا فمنهم من يتكلم في اسباب كساد التجارة ورواجها ومنهم من
يتكلم في محصول الارض وخراجها ومنهم من يتكلم في النوادر

والغرائب ويصف ما في الارض من العجائب الى ان جاء وقت
القيام الى الطعام وقام صاحب المنزل وزوجته ودعوا الناس الى
القيام فكان اول من دعي رجل نحيف البنية متوسط القامة يظهر
على وجهه اثر الحزن ورايت اهل المجلس جميعاً يعظمونه زيادة عن
تعظيم بعضهم بعضاً فسالت صاحبتنا عنه فقال لي انه من امراء
ايتاليا المتبرين

ولما ان وصلنا الى السفرة وقعد كل منا في المحل المخصص له
كان ذلك التلياني في الصدر وعن يمينه صاحبة المنزل وعن
يساره صاحب الخواجا وانا بجانبه فمكثنا على السفرة نحو ساعين
قضاها القوم في مدام وندام وشراب وطعام ثم قاموا وكان اول
من قام صاحبة المنزل فمد التلياني يده اليها ليقوم معها ثم قام
الناس جميعاً فمن كان له منهم حرم اخذ بيدها ومن لم يكن حرم
قام منفرداً ثم مضوا جميعاً الى حجرة اعدت لشرب القهوة والدخان
وتلك من عادات القوم حجرة للطعام وحجرة لجلوس الفرجة والنزهة
والابتهاج بما يحضرونه من الالعاب وحجرة للاشربة وانواع
المكيفات كل موضع لشي لا يفعل فيه غير ما له اعد فاخذ الناس
مجالسهم وكنت الى جانب صاحبي واستقروا قدر ما شربوا القهوة
ثم اضطرب المجلس فرايت رجالاً اخذوا بايدي نسائهم وجعلوا
يترددون في محادثة وموانسة ورايت رجالاً كالمعتوه يقوم مرة ويثمد
مرة ويمضي لهولاء وينعطف على اخرين ويتحدث بكلمات بضحك

بها من يكون عندهم فكانه سخرية المجلس يظهر ذلك في اقواله وافعاله ورايت رجلاً منتبذاً ناحية عليه سكية ووقار في ملابس مخالفة للملابس الناس يظهر عليه انه قسيس وقد احاط به جملة من النساء وهو يتحدثهن فيلتفت لهذه ثم يلتفت لهذه وكأنه يقرأ لمن درساً او ييدي لمن نصائح فكنت باهتاً متعجباً فالتفت اليّ صاحبي وقال مالك شاخص البصر كانك متعجب من هذه الاحوال فقلت اي وحية مولاي وكيف لا انعجب وهذه امور ما رايت مثلها في بلادنا فان حال الناس هنالك اذا كانوا في مثل هذه الدعوة انهم يحضرون اما فرادى وهو الغالب واما انسان وصاحبه فاذا دخلوا دار الوليمة جلسوا او سلم عليهم صاحب الدار وحياتهم ودعاهم بالقهوة فشرّبوا يفعل ذلك مع كل من حضر فاذا شرب احدهم القهوة اخرج كيس الدخان من جيبه وملاء شبكه وصرخ يطلب جمرة من رجل اعد لتفريق النار على شبكات المحاضرين وان كان لاحدهم خادم ملاء الشبك وناول له لسيدته ثم لا يزالون على تلك الحال حتى اذا نصبت الموائد قاموا اليها فتناولوا جماعة جماعة ان كانوا كثيراً الكون المدعوين يحضرون في اوقات مختلفة يعينها صاحب الوليمة في الاوراق التي يرسلها لهم قبل يوم الدعوة فاذا فرغوا من الطعام عادوا الى مجالسهم التي كانوا بها قبل الطعام ودارت عليهم القهوة الغينة بعد الغينة واخذوا شبكاتهم على الرسم السابق وتحدث كل مع من بلبه لا يجاوزه الى غيره لانهم اما

متعارفون فعالاً تكون بينهم عداوة للاشتراك في صناعة او التزام على وظيفة او غير متعارفين فهم لذلك السبب لا يتردد بعضهم لبعض لتعميم المسرة والتشارك في البهجة وتواصف محاسن ما هم فيه والمكاملة في امور يطلبون صلاحها ويدفعون فسادها الى غير ذلك من الاحوال التي تقتضيها صحة الحياة في بيت واحد عند اجتماعهم سيما في اوقات السرور والبهجة والصفاء وانما يكون حديثهم اما في الانتقاد على صاحب الدعوة بتسفيه رايه ورميه بالاسراف ان كان بذل جهده وتقيج امره ورميه بالندالة ان اقتصد او قصر واما في اغنياب بعض الحاضرين واما في الشكاية والتألم من بعض المشاركين له في صناعته في اشياء صدرت بينهم قديماً او حديثاً ذلك دأبهم وحالهم حتى اذا انقضت ثلاث ساعات من الليل حضر ما اعده صاحب المنزل من الامور التي جرت عادتهم ان يتلوهوا بها ويحلبول بها انس الحاضرين وسرورهم فاذا كان كذلك تغير الوضع فبعض يسمع وبعض يتحدث في امور مختلطة واحوال غير منتظمة وربما وجدت الواحد منفرداً يتحدث مع نفسه او يستمع او يظن الى الناس يمينا وشمالا كانه يتاملهم ويمتن مقدار عقولهم حتى اذا مضى خمس ساعات من الليل اخذ الناس في الانصراف الى منازلهم شيئاً فشيئاً حتى لا يبقى الا من حضر من الغوغاء وهؤلاء ربما اصبحوا ولم ينصرفوا حتى يبيض النهار فهذا وضع بلادنا قديماً وان كان الان اخذ في التغير لان حب المودة والتالف والاقبال

على لطائف الاحوال قد دب فيهم وربما درج بين بعضهم وارجو
ان يبلغ كماله وارى هؤلاء الناس على هذه الاحوال وذلك سبب
فكرتي في حال اهل بلدي حتى انا الان متاسف غير منبسط
المخاطر لبعد ما بين الحالين فهذا ما رايت من ذهولي وشخص
بصري واني لارجو ان تعرفني بما استخبرك عنه وسالته عن الرجل
الذي احاطت به النساء فاخبرني انه من طائفة القسيسين الذين
وظفتهم ان تجتمع اليهم النساء ويفضين اليهم باسرارهن فيأخذون
في تعريفهن حقوق الرجال على النساء وحقوق النساء على الرجال
وازالة ضغائن النفوس والحث على استبقاء الصحة والوصلة وطرح
التحاسد بالتفاوت في الخلق بالجمال وعدمه والامن باتخاذ الزينة
واستعارة الحسن وتفهمهن ان المقصود الاصلي من اجتماع نوع
الذكور والاناث انما هو النسل واستبقاء النوع وتقوية العائلات
بالتكثير والتعاون في اصلاح الوطن خصوصاً وعموماً الى غير
ذلك من الاشياء التي ياخذ بها الانتظام بين الرجال والنساء
حد كماله وغاية تمامه وسالته عن الرجل الذي يقوم ويقعد ويحيى
ويذهب فاخبرني انه احد الشعراء الذين حالم ان يحضروا في
الولائم ومواضع الانس لالقاء نوادر مضحكة حفظوها وانشاد اشعار
في امور تخيلوها تتراح اليها النفوس وتميل اليها الطباع في اوقات
الفراغ ولهذا الرجل خصوصية بصاحبة هذا المنزل فانه كان صنع
لها في ايام صغرها وقرها تاريخاً يخبرها فيه باستقبال السعادة والغنا

حسباً تعطيه قيافة وجهها والفراسة فيه بعلم ادعى ان مهرة الشعراء
مخصوصون بمعرفته فوافق ذلك ان استقبلتها الايام بالسعادة والغناء
حتى آل امرها وامر زوجها الى ما ترى بعد ان كانا فقيرين ربما
لا يدركان القوت وعهدي بموضع هذا المنزل مطرحاً للقمامات
وملقى للكناسات وكأن صاحبه كان ورثه عن اهله وكان لفقره
خرباً لا يقدر على عمارته فمارال هو وزوجنه يدأبان في طلب الغنى
بمباشرة اسبابه والتردد في الطرق الموصلة له حتى اقام هذا المنزل
من اساسه بعد سنين غير كثيرة فهل في بلادكم من يكون له مثل
هذا فقلت له ربما ساعد النجتم والحظ من امسى فقيراً فاصبح غنياً
وغدا خاملاً فراح نبياً على حسب القسمة وتحول الاقدار ثم اخذ
الرجل في مدح الثراء واطراء الغنى وذكر فوائد المال والثناء على
المشتغلين بتحصيله والاجتهاد فيه وتنميته وحسن القيام عليه والتعهد
له حتى غرض من اهل الورع والزهد وازرى احوالهم وعاب افعالهم
وقال ان كلامهم بين الناس هو الذي اوجب لهم الخمول والكسل
وخشونة العيش وضيق الحال بما ارتكز في قلوبهم من الجهل
وعداوة العلم وطلبه من حيث وجدوه والنظر في اصلاح الحال
والمال حتى ادعى ان الارزاق غير مجهولة وبين ذلك ومثل له
فقال

تعلم ان مطالب الناس منحصرة في اربعة اشياء الاغذية
والادوية والاكسية والاخية لحفظ الحياة والتحرز من ذهابها

والحصول على لذاتها والتصوّن عن آلامها المدة المعينة للحيوان حسبما اقتضته حكمة صانعه فلذلك توزع الناس الاشغال ما بين زارع وصانع وطبيب الى غير ذلك فلو فرضنا ان صناع النعال مثلاً عرفوا المقدار الذي يحتاجه اهل بلدهم في السنة ولا بد لهم من اخذه واتلافه في تلك المدة واستعواضه بعدها فهم لا شك جازمون بانه يطلب منهم في وقت الضرورة اليه وياخذون مقابل اعمالهم فيه فهم واثقون بحصول رزقهم في وقته امر قضت به طبيعة الخلقه وفرغ منه القدر على هذا جميع الاعمال غاية الامر ان جهالة الرزق انما هي في زرع يزرع او حيوان يربي فتصيبه آفة سلاوية قبل بدو صلاحه وإيان اخذ ثمرته هذا هو موضع جهالة الرزق على ان الناس ربما يجتول عن اسباب تلك الافات فتحزوا عن كثير منها ونحن مامورون بالتعرف والاستكشاف لحقائق الاشياء واسبابها وعللها وموجبات صلاحها وفسادها واجراء السنن الالهية في مجاريها يرشد الى ذلك ما رايته في بعض كتب الاحاديث المنقولة عن نبيكم (صلعم) وهي في ايديكم تقرأونها وتحاولون العمل بمقتضاها وهو انه مريوماً على اصحاب نخل المدينة وهم يلحونها فقال لو تركتم ذلك فتركوه فشاصت سنتها فقال لهم ما بال نخلكم في هذه السنة فقالوا الم نخل لو تركتم التلقيح فقال لم اقل لكم اتركوه وانتم ادرى بامور دنياكم فنبههم على وجوب مباشرة الاسباب والمحافظة على العادات الكونية وارشدهم الى ذلك باقوى المرشدين من ظهوراً

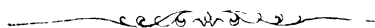
المخسرة واستحكام الفساد المؤدي لسرعة زوال حياتهم ومن كلامه الشريف الذي رآته في تلك الكتب ايضاً ان الله يحب من عبده اذا عمل عملاً ان يتقنه فتحيرت من كلامه وتغير خاطري من قدحه في اهل الورع والزهد وضمرت في نفسي ان اسالك عن هذا لتبين لي الحق فيه

فقال الشيخ يابني انا مخبرك بذلك ومرشدك لحقيقته بعد ان تم الحديث في نعت ليلتكم وما انتهت عليه

قال برهان ثم قمنا الى موضع اللعب فرايت مكاناً يأسر الطرف ويملا الصدر ويشغل القلب باحكام وضع وزينة وزخرفة قد اتخذ على شكل مواضع التياتر علفت فيه الواح مرسوم فيها غرائب اشكال على غاية ما يكون من الاتقان والملاحة وقد وضع في وسط المكان على دائرة عظيمة من الرخام الثقيل اللامع مرتفعة على كرسي اصناف الازهار والرياحين في اوان مختلفة الاشكال والالوان انبتت عليها اشعة الانوار فكان هناك منظر عجيب يكاد يخطف الابصار ثم اظهرت الالاعيب وكانت عبارة عن صور نساء على اتم ما يكون من الحسن والجمال فاخذت تلك الصور تتقلب من شكل الى اخر تتقارب وتباعد وتنام واحدة وتقوم واحدة كأنها ذوات ارواح لا يشك من رآها ولم يعرف حقيقتها في انها نساء قواصد لتلك الحركات كل ذلك والناس اليها ناظرون ولحاسن ما يصدر عنها متواصفون غير اني كنت في

حرج عظيم وضيق صدر لعلمي ان ذلك لا يحل نظري اليه وتاملي
 فيه فذهب سروري واسفت على حضوري غير اني انكسر بقلبي
 وارجو مغفرة ربي وقلت هذه اشياء احكيها وان كنت لا اشتبهها
 وما كان يخجلني هناك ان النساء كانت تحيط بي وتحقق النظر
 اليّ وتكرر الاسئلة عني وعن حالي ويتواصفن وجهي ويظهرن
 استحسانه وربما تمت الواحدة ان تكون عينها مثل عيني والاخرى
 تقول ليت هذا الانف انفي فلم يكن لي فرج الاّ ان قمنا وتحولنا
 الى موضع معد للفواكه والاشربة وانواع النمل فتناول كل حسب
 رغبته ثم انصرفنا ومضى كل الى سبيله واستخجز برهان اباه العدة
 بان يخبره بما ساله وهمّ الشيخ ان يحدثه به واذا يعقوب يخبره بحضور
 الانكليزي وصاحبه الذي كان ذهب اليه فقال يابني في غير هذا
 الوقت نتكلم ان شاء الله تعالى ثم دخل الانكليزي وصاحبه فتلاقوا
 تلاقي الاحبة وتهادوا تحية المحبة واخذ كل في السؤال عن حال
 صاحبه وتناولوا اطراف الحديث فكان من كلام الضيف ان قال
 بماسبة الحال ان مصرأ في سالف الازمان كانت منبع العلوم ومنها
 انتشر التمدن في البلاد تشهد بذلك الاثار القائمة على مرور الدهر
 كالاهرام والبرابي ومصارف المياه ومواقع المدين والقرى فقال
 الشيخ هل سبق لحضرتكم سياحة في مصر فقال نعم واقمت بها ثلاث
 سنين وثمانية اشهر اتردد ما بين القاهرة واقصى الصعيد وقد ضمنت
 جميع ما رايت كتاباً اطلعك عليه عند التقائنا بباريس فهي دار اقامتي

ولي هنا شغل متى انقضى لاحتكم ثم توادعوا ومضى الشيخ وابنه
وصاحبها ويعقوب الى محطة البواخر متوجهين الى باريز



المسامرة الثانية والخمسون

ذم الدنيا ومدحها

(قال ناقل الحديث) فلما استقر الشيخ وابنه وصاحبها
الانكليزي في عربة سكة الحديد وسارت بهم العربة اخذ الشيخ
يحدث ابنه فيما كان قد ساله عنه بعد ان اعلم صاحبه بما جرى
بينهما من وصف تلك الليلة وحديث برهان مع صاحبه الذي بالغ
في مدح الدنيا والثناء على طلابها وازراء من سواهم والطعن فيه

فقال اعلم يا بني ارشدك الله ان الانسان وسائر الحيوان بحسب خلقته مضطرا الى تحصيل ما يحفظ به حياته وقد مكّنه الله من ذلك واره طريق السعادة وطريق الشقاوة فقال عز ذكره (انا خلقنا الانسان من نطفة امشاج نبثليه فجعلناه سميعاً بصيراً انا هديناه السبيل اما شاكراً واما كفوراً) فدواعي الطلب قائمة في طبيعته ونفس خلقته من وقت خروجه للدنيا . سئل حكيم متى عقلت فقال حين ولدت فقيل له وكيف ذلك فقال جعت فطلبت واعطيت فسكت فهل ترى ان احداً يذم هذا الطلب غير ان الانسان لا يقتصر على موضع الحاجة بل يجب الاستكثار من الخير وجمع المال والتبسط في الانفاق وحيثئذٍ اما ان يسلك الطريقة المثلى التي نهجها الله ووضحها ونصب علاماتها على السنة رسله واهل الحكمة من خلقه واما ان يسلك غيرها وهذا موضع الحمد والذم والثواب والعقاب قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تسبوا الدنيا فنعمت مطية المؤمن عليها يبلغ الخير وبها ينجو من الشر فانظر كيف نهى عن سبها واثني عليها وعلى طلابها الذين صرفوها في وجوهها غير ان ادارة الاعمال الدنيوية محتاجة الى عمليين عمل بالابدان وعمل بالارواح وقد فاوت الصنع الرباني بين الناس فجعل بعضهم اذكيا والبعض اغبياء وكفل بعضهم بعضاً فكان اشتغال اذكيا الناس بالفكر في مصالحهم وتديير ما تحسن به احوالهم فلزم في مقابلة هذه الخدمة الروحانية ان يخدمهم بقية الناس

بأبدانهم ويربحوهم من تجشم الكلف في تحصيل مؤنهم فظهر الفقر والغناء وبموجب ذلك نجم بينهم التحاسد والتباغض والتعادي نقل عن أمير المؤمنين علي كرم الله وجهه انه قال عداوة الضعفاء للاقوياء والسفهاء للحكماء والاشرار للاخيار طبع لا يستطيع تغييره فعند ذلك وجب وضع القوانين وتجنيد الجود ووضع القلاع والحصون وتصوير آلات القتل لتحاجز الناس بعضهم عن بعض ونزوم كل عمله الذي استعد له ولو سلك الناس سبيل الانصاف لم يحتاجوا الى شي من ذلك كما قيل

لو انصف الناس استراح القاضي

وبات كل عن اخيه راضي
ولكن الحال على خلاف ذلك ولم تكن القوانين الحكيمة كافية في حسن صحابة بعضهم بعضاً لكونها انما تتعلق بظواهر الاحوال ومساوماتها فيتعين لذلك وجود طائفة من الناس يتكلمون بمطالب الدنيا وعيوبها ويزهدون فيها ونهبون عن سدة التزام عليها ليتبت اهل القلة فيها على اشغالهم الشاقة التي لاجلها خلقوا ولا يذلول قواهم في معارضة المكثريين ومضاربتهم فتبين من ذلك ان اعمال الناس وظائف خدمة مقسمة على طوائفهم لا يصح ان يفاضل بين اهل وظيفة وغيرها وانما المفاضلة بين اشخاص كل وظيفة فمن قام بوظيفته حق القيام بها مقتصدًا دون افراط وتفریط كان محموداً ومن مال الى احد

الطرفين كان مذموماً بقدر ميله كما قيل
فلا تغلُ في شي من الامر واقتصد

كلا طرفي كل الامور ذميم

وهو عقد لقوله صلى الله عليه وسلم خير الامور اوساطها فلا
مساغ اذا لاطلاق المدح والذم كيف وعقلاء الناس الذين لاسبيل
الى تجهيلهم وتسفيه احلامهم قد توزعوا تلك الخدم قديماً وحديثاً
لا تنكر طائفة على طائفة الا الخروج عن الحدود المتوسطة وها انا
احكي لك حكايات تجلوك الحال وتستاصل شافة الاشكال هذا
نبي الله ايوب عليه السلام كان صاحب تروة عظيمة من الزراعة
وتربية الحيوانات فكان له خمسمائة حمار مصرفة في اشغاله

وامر داود وسليمان ابنه عليهما السلام مشهور وكان ابنا
الحالة يحبي وعيسى على خلاف ذلك من الزهد في الدنيا والتقلل
منها والاقصرار على موضع الحاجة هكذا كانت رسل الله كل
سالك طريقة لا يعاب بها ولا يفضل احد منهم على احد من
تلك الجهات حتى كانت النبوة الاخيرة الجامعة على صاحبها
افضل الصلوة واتم التسليم فنهج المناهج كلها وبين الطرائق وحدودها
ومشت علماء امته بعده في تلك الطرق فكان ابو بكر رضي الله
عنه على سيرة يحبي وعيسى عليهما السلام وكان عمرو رضي الله عنه
على سيرة موسى عليه السلام من السدة وايفاف الناس على الحدود
وضبطهم عن الزيف والميل حتى انه لما قدم الشام لاستكشاف

الحال ولقيه اميرها معاوية رضي الله عنه في المراكب المزينة والاسلحة
 المحلاة والملابس المتحيزة والموكب الحافل كله في ذلك فاعنذر
 بكونه لازماً لسياسة ناحيته فسلم له وترك الاعتراض عليه وكان
 عثماني رضي الله عنه على سيرة ايوب عليه السلام من التبسط في
 الانفاق وتعميم اهله بالمبرة والتوسيع على الناس فبنى داراً وشيدها
 وجعل اخشابها من نفيس الخشب كالساج وغيره وفي ايامه بنى
 الزبير بن صمية عمه النبي صلى الله عليه وسلم عدة قصور بالمدينة
 والبصرة ومصر ومن الصحابة من صولحت احدى زوجاته وكن
 اربعاً على ريع ثمن تركته الذي نستختمه منها على اثنين وثمانين الف
 دينار الى غير ذلك من امور يطول استقصاؤها ودخل رجل من
 المتقشفة على الحسن البصري رحمه الله وبين يديه خبيص فدعاه
 اليه فقال الرجل اخاف ان لا اشكر نعمة الله فيه فقال له الحسن
 كل فنعمة الله عليك في الماء البارد اكبر وقال رجل لابي حنيفة
 رحمه الله وقد رأى عليه حلقة قيمتها خمسمائة مثلك يلبس هذه
 فقال ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يلبس الحلقة قيمتها
 الف وما سمعت تعلم انه لا اعتراض على من تناول من طيبات
 الدنيا ما تناول اذا كان بوجه الحق واتل قوله تعالى قل من
 حرم رينة الله التي اخرج لعباده والطيبات من الرزق وانما العيب
 والمشيمة على من اخذها بوجه الباطل كالتلصص والغضب
 والنهب والظلم وهؤلاء ان لم تهلكهم الحدود المشروعة فلا بد ان

يهلكوا من نفس اعمالهم وسوء تدبيرهم وسوء بغيرهم كما يحكى ان جماعة من اللصوص توافقوا مع يهودي على ان يرج لهم جميع ما كسبوه وتشارطوا في ذلك وتعاهدوا وتحالفوا على عدم الخيانة ومضوا على ذلك برهة من الزمان الى ان شعرت بهم اهل الضبط والسياسة فارسلوا عليهم الجواسيس يتلصسونهم فكانوا يعثرون بالواحد والاثنين حتى قبضوا على كثير منهم وافنوه فلما رأى رأس اللصوص ذلك غير منقطع والطلب دائم والبحث عنهم متتابع دبر في نفسه ان يعمل الحيلة في قتل اليهودي واستخلاص جميع المال لنفسه وخطر هذا الخطر باليهودي ايضاً فلنفاذ القضاء ودوران دائرة السوء على اهل البغي والخيانة تحيل اليهودي في اشعار الحاكم باسماء اللصوص ومواضع اجتماعهم فكتب ذلك في صحيفة واثاها في الصندوق المرصد لالقاء الناس فيه صحائف المظالم وعروض الاحوال واتفق ان جاء كبير اللصوص لانفاذ ما دبره قبل اطلاع الحاكم على صحيفة اليهودي وخلا باليهودي وتحدث معه حديث المودة والصفاء وعرفه انه يريد الاستئثار بهذا المال وقسمته بينها وحرمان اللصوص منه حتى امن اليهودي ودخل معه الحجرة التي فيها صناديق المال فلما عرفها واستكشفتها تغفل اليهودي فضر به بخنجر احس منه بالموت فلما علم اليهودي انه ميت لا محالة جرى الى الباب فقفله وكان باباً محكماً من حديد صفيق يمنع نفوذ الصوت ولا يمكن فتحه الا بحيلة لا يعلمها غير اليهودي فاخذ اللص بتحليل على اليهودي وتذلل له

ويلم جرحه ويستوقف جريان الدم ويكمده والدم يتشخب لبلاغة
المجرح ومصادفته الكرب حتى فاضت نفس اليهودي وقعد اللص
الى جانبه ينتظر الحمام حتى جاءه بعد معاينة الاهوال ومقاساة
الالام ينظر الى المال بالندامة ويعود على نفسه باشد الملامة
وهيئات نكد القضاء وحل به تقبج اعماله وسوء تديره وخيم البلاء
ثم ان الشيخ لما فرغ من هذا الكلام اطرق اطرق المتفكر وزفر زفرة
المتذكر فقال له صاحبه مالك يا مولاي فوالله لقد نظرت الى
الدنيا بعين ربانية وتكلمت على احوالها بما هو مراد خالقها منها
فهل لك في ان تروح خاطرك بالاستماع الى حكاية يعقوب تاريخ
نفسه ووقائع ايامه فقال الشيخ لا باس فساله الخواجا ذلك فاعنذر
بقصور عبارته في العربية فقال له لا عليك ما عجزت عن عربيته
فاحكه بلسانك وانا اترجم عنك فاقبل يعقوب يحدثهم فقال



المسامرة الثالثة والخمسون

حكاية يعقوب

حاصل قصتي اني منذ درجت وجدتي واخناً لي اكبر مني
 بقليل في حضانة ام ذهب اطيب عمرها تجمعنا حجرة لا يظل سقمها
 غير اشخاصنا واشياء حقيرة بالية من اثاث المنازل لا نزور ولا
 نزار غير انه كانت لنا جارة عجوز فقيرة حالها احسن من حالنا قليلا
 فكانت نتردد اليها وتتردد اليها وربما افضلت علينا ببعض ما يفضل
 عنها فلم تطل الايام حتى مرضت امنا ولم يكن لنا حيلة الا الجلوس
 الى جانبها والبكاء فكانت تلك الحجرة تتعهدنا وبذلت المجهود في
 تريض امنا وطلب الشفاء لها حتى قضت نحبها فبقينا منفردين ليس
 لنا الا الله وتلك العجوز فعرفتنا كيفية السؤال وطققنا تكفف الناس
 فعشنا على ذلك برهة فبينما نحن في بعض الايام جالسين الى

جانب جدار في الطريق اخذ النوم برؤسنا وطرحنا هنالك فمر بنا العسس فحملنا الى مدرسة اليتامى فاقمنا بها مدة حتى تعلمت صنعة الجزم وتعلمت اختي الخياطة والخدم المنزلية فلما عرف مدير المدرسة منا ذلك اطلقنا لتكسب بانفسنا فلحقنا انا برجل من اهل تلك الصناعة وكنت في صناعه وخدمت اختي في بعض المنازل فلبثنا ما شاء الله ازيد عند صاحبي محبة وتقريباً وتميزاً على الاخوان لما رأى بي من المهارة في الصنعة وبذل الوسع في الخدمة وكذلك اختي عند سادتها كل مقبل على شغله وصارف همهته في تحصيل رزقه خائفين ما كان يلحقنا من ذل السؤال وروعة الحرمان وكلاحة الوجوه وسوء المصيح والمسي حتى اخلطت بناس هم اكبر مني سناً واكثر مالاً وادري بامور الدنيا فسمعتهم يتجادثون في اسباب الغنى من التجارة وانواعها والزراعة واصنافها والصناعة واقسامها متنازعين فيما هو الاسهل منها مسلکاً والاقرب غاية والاشرف اهلاً والاجمل اعمالاً فرايت اكثرهم مصرين على انه التجارة مخمين لذلك بامور معقولة وحكايات عن السلف منقولة مثبتين ان صنف التجار امراً على الصنفين الاخرين وسمعت منهم ايضاً ان اعلا انواع التجارة ما كان بالاسفار في اقاصي اطراف الاقطار فحدثني النفس الهاربة من الذل والشقا الطالبة للعز والسعادة ان افكر في الحملة التي اصير بها تاجراً فكنت لذلك اذهل وفي علي اكسل ويظهر ذلك علي شيئاً فشيئاً حتى انكر علي

من انا عنده حالي واستخبرني عن سبب تغيري عن عادتي فكنهته امري وما زال يتلطف لي في السؤال وادافعه حتى اطلعته على مكنون سري وباطن امري فتبسم عجباً واعقبه عبوساً وغضباً وقال يا بني هذه وساوس لا تعقب لك خيراً والاشتغال بها ضياع لما بيدك وحرمان ما يستقبلك من الرزق فاقبل على عملك تكن عن قريب مثلي صاحب دكان وعندك صناع يصرفهم رايك وامرك واني مضمهران ازوجك ابتي وابسط يدك في مالي فضعف ذلك الخاطر واقبلت على عملي بياض نهاري وفي اخر اليوم لقيت اولئك الاصحاب وسمعت منهم تلك الاحاديث فقوي ذلك الخاطر واستحكم وكان سبباً في دخولي معهم ومشاركتي اياهم في الحديث متعرفاً منهم اسباب وصول مثلي الى التجارة والسعي في اهلها وكان في القوم انسان عازم على التوجه في مركب له الى سواحل افريقية فعرض عليّ الصحبة وتكفل لي بالموئنة والتزم لي بالمعونة وسالني عما بيدي من الدراهم فاخبرته فتوافق معي على ان يشتري لي بها من بضاعة بلادنا وعرفني انها تريح تسعة اضعافاً فبت ليلتي في حساب اموالي افرح بنجاح اعماله فما هو الا ان انكشفت ظلمة الليل بعض الانكشاف حتى جئت الى الموعد وسلمت دراهمي لذلك صاحب ورجعت الى صاحب الدكان التي كنت بها فاخبرته بتصميم العزيمة ولم اقف لاستماع كلمة منه ومضيت الى المنزل الذي فيه اختي فاخبرتها بنيتي وودعتها ولم التفت الى بكائها وعدت الى صاحبي

فرايته قد حزم بضاعتي الى بضاعته وكان قد شحن السفينة ببضاعة
الناس وعزم على السفر فقلعنا المراسي في اصيل نسيبه يجي الروح
ويوجب شكر نبي الله نوح والجوع على احسن ما يكون من صفاء
الاديم والبحر في اضطرابات لطيفة كانها رقص تعلم فبتنا بلبلة
قاربت اطرافها احاديث ممزوجة بحلاوة الالاماني الى ان استقبلنا
النهار ونحن في نشاط وسرور فما مضى كثر من النهار حتى راينا
الريج بدت فيها قوة بعثت موجة صدمت السفينة فهزتها وخالفت
حركتها فرايت الملاحين قاموا وتنادوا وتحاذروا وتواصفوا امرأ ما
خطر لي ببال ورايت اهل السفينة في هرج فقلت لمن يجاني ما
للناس تغيرت هيئتهم وتبدلت حالتهم فقال الم تر هذه الريج كيف
اشتدت وهذا الموج قد اقبل وهذه المركب قد اضطربت قال
يعقوب فعجبت لحفة ما هو كائن والجهالة بما يكون فلم نلبث الا
قليلاً حتى نتابع الموج واستد الريج واظلم الجو واستد اضطراب
السفينة وماج الناس وتصارخوا واخذ بعضهم ببعض فاستد جزعي
لهول ما لم يسبق لي به شعور وقلت في نفسي اخرج انت لتصير
من التجارام لتكون من دفائن البحار وذكرت من قول معلمي حين
كان ينصحنني يا بني داخل البحر مفقود والخارج منه مولود فاحاطت
بي الهوم وتذكرت تفرقة اختي وندمت على ما فعلت من اهل
التصيحة وركوب هذا الخطر فكنت الوم نفسي تارة واعذرها تارة
ثم ان الريج لانت وتهادأ البحر واخذت السفينة في انتظام الحركة

فنظرت الى القوم وقد اصفرت الوانهم وتخاذلت لشدة الرعب
 اركانهم والملاحون كالغفاريات يترددون في المركب طولاً وعرضاً
 ويصعدون على السواري ويهبطون بغاية السرعة كأن لم يرو شيئاً
 مما اخاف الناس وكاد يخلع قلبي فتمت لصاحبي ودموعي تسيل
 على خدي ونفسي يتقطع في حلقتي وقلت له ما هذه الحوادث البحرية
 وكيف يتجرأ الناس على هذه الشدائد وهل كان بين السفينة
 والغرق والناس والموت الا شي يسير فاغرب في الضحك ثم قام
 اليّ فمسخ دموعي واخذ في تسكينني وتقوية قلبي وتشديد عزمي وهو
 يقول ان هذا الشي الذي عاينته ليس بالخطب الكبير وان البحر
 احوالاً ذات احوال فوطن نفسك على استقبال ما استقبلك منها
 فان الامور لا تنال الا بالصبر وما رأيت انموذج شدائد البحر
 وانظر الى هؤلاء الملاحين هل تراهم تغيروا او عن وظائف اعمالهم
 تاخروا واما هؤلاء الناس فانهم يحافون على انفسهم واموالهم وقد
 شاهدوا العظام فهم يذكرون الكبير عند مشاهدة الصغير ومع
 ذلك فقد اقدموا ولم يتفكروا في موت ولا غرق لعظم لذة الكسب
 وحب نماء الاموال فعند ذلك سكن اضطرابي وذهب ما بي
 وتفكرت في بلوغ الامنية وانتهائي لان اكون من اشراف بلدي
 ويجمع شملتي وشمل اخوتي واغنيها واغني عن خدمة الناس حتى
 وصلنا الى ميناء برموت فالتفتنا فيها المراسي وطلعنا الى البر وقراره
 وامنه وراحته فاثنا اياماً وبعث بعض بضاعتي واشتريت غيره

فظهر لي الربح وهاجت بي الاطاع وهان عليّ امر البحر وفي هذه
 الاقامة صاحبي بعض الملاحين وتوافقت قلوبنا ونشأت بيننا
 مودة واخذت في النمو فاشار عليّ يوماً ان يعلمني صنعة الملاحة
 لاكون معهم على كسب اضيفه لكسي وليقل رعي وخفقان قلبي
 عند معاينة الشدائد وقال لي اذا رغبت في تعلم صنعتنا ودخلت
 في زمرتنا كان لك ان تحمل في السفينة ما تشتريه من بضائعك
 من غير اجرة ولا مقابل ولا يعسر عليك ان نتعلم علومنا وتعمل مثل
 اعمالنا وتكون كواحد منا وربما فقت علينا في مدة يسيرة وما زال
 بي حتى مالت نفسي الى الدخول معهم في تلك الصناعة فوافقتهم
 وتلقيت اشارته بالقبول وشكرته على حسن رايه فلما قضينا حاجتنا
 من البلد ونزلنا الى السفينة ذهب بي الى القبطان وعرض عليه
 قصتي فرحب بي وفرح واثار عليّ بملازمته ووعد بان يتولى تعليمي
 بنفسه وامر بكتابة اسمي في ضمن الملاحين من ذلك الحين فاخذت
 بهم وصرت معهم واخذت في تعلم الصناعة ووطئت في السفينة
 ما معي من البضاعة وصرت كلما رست السفينة على ساحل من
 السواحل اخرجت من تلك البضاعة شيئاً وبعته على اهله واستعوضته
 بغيره واخذت في التقدم والترقي في تعلم فنون البحر من القبطان
 لملازمي له واثبتاني به فعرفت منه علم الملاحة وحساباتها الهندسية
 وكيفية تحويل السفن وطي قلوبها وتوجيهها في انحدارها واقلاعها
 وحساب سرعتها في سيرها فلم تنقض هذه السفرة الا وانا مستعد

لأن أكون رئيساً بين الملاحين وحصل لي من التجارة شيء كثير من الذهب والفضة وجملة من التبرع بها بمبلغ عظيم فاجتمع عندي من المال ما أوقعني في شبكة الطمع وأغراني بالاستمرار في الملاحة والتجارة وكان من أقوى الدواعي إلى ذلك شدة رغبتني في اتساع دائرة المعرفة والإطلاع فكنت أتقرب كل غريبة فاتلفتها فإن أشكلت عليّ سألت عنها من يعرفها ولم اقتصر في الاستفادة على هذا القبطان بل كنت أسأل عن الشيء كل من أتوسم فيه معرفته وكان القبطان المذكور رجلاً متقناً واسع المعرفة والإطلاع ولم يكن يكتفمني شيئاً مما يعلمه ولا يضجر من كثرة ما أسأله



المسامرة الرابعة والنخمشون
كلب البحر والديورا
(من حكاية يعقوب)

واذكر اني كنت ذات يوم جالساً على جنب السفينة انظر الى
البحر فرايت سمكة عظيمة الجسم غريبة الخلقة ملازمة للسفينة تتبعها
في سيرها لا تتاخر عنها ولا تتقدم عليها فسالت القبطان عن اسمها
وشأنها فقال هذه سمكة تعرف عند الصيادين وغيرهم بكلب البحر
وتكبر حتى يكون طولها عشرة امتار وفيها عظيم جداً تبلغ سعته عند
فتحه نحو الثلث من طولها فيكون محيطه ثلاثة امتار وقطره متراً
واحداً وكلما كبر هذا الحيوان تزايدت اسنانه حتى يكون له عند
بلوغه ستة صفوف في كل فك من فكه ولم يكن له في صغره غير
صف واحد في كل فك وليست اسنانه ثابتة في محلها بل هي

متحركة فتارة تنطبق على سطح الفك وتارة تنتصب فيه على حسب
 الاغراض ومقتضيات الاحوال واذا انكسرت منها واحدة نبت غيرها
 في محلها وجلده غليظ لا يؤثر فيه الرصاص وله من القوة وشدة
 السرعة ما يمكنه به ان يقطع محيط الكرة الارضية في ثلاثين
 اسبوعاً لو استمر على سرعة سيره ليله ونهاره ومن شأنه ان يتبع السفن
 في البحر ويقتفي اثرها حيث سارت لا يبالي بشدة اضطراب البحر
 وهياجه وكثرة عواصفه وامواجه وكثيراً ما رآه الملاحون تبع
 السفينة ولازمها من حين خروجها من سواحل اوروبا الى ان
 تدخل في سواحل امريكا لا يفارقها في اثناء ذلك بل يدور حولها
 من كل جانب كانه خفيّر عليها يتولى حراستها وهو نهم اكل
 لا يكاد يشبع وفيه قوة القلب وجرأة الاسد وقسوة النمر وجميع السمك
 يهابه ويخشاه ويخافه

فقال الانكليزي هذا الحيوان يوجد في جميع جهات الارض
 لا يختص بجهة دون غيرها واما اقتفاؤه لأثر السفن فلا تظار ما
 عساه يقع به من جيف الموتى ورم الغرقى وهو يحب حرب البحر
 بين الناس ليشبع من رمم القتلى لكثرة ما عنده من النهم والشره

فقال يعقوب نعم سمعت من القبطان ما يدل على ذلك في
 جملة حكاية ذكرها وذلك ان رجلاً من الملاحين رأى صاحباً له
 بركب قرية منه او كان غائباً عنه منذ سنين متعددة فنزل من
 سفينته واراد ان يسبح في البحر ليصل اليه ويسلم عليه فصادفه عند

نزوله حيوان من هذا النوع فاحتزرجله وذراعه امام الناس لا ينفر منهم ولا يبالي ثم احتزرجله وذراعه الاخرين ولم يدرك اصحابه منه غير ما بقي من جثته فمات الرجل فالتوه في البحر فالتهمه ذلك الحيوان المخيـث وكانما كان له بالمرصاد

قال الانكليزي ويتغذى هذا الحيوان بجميع انواع السمك صغيره وكبيره لا يغادر منه شيئاً وسمعت ان اهل مرسيليا مرة اصطادوا حيواناً من هذا النوع فراوا في جوفه كثيراً من السمك ووجدوا رجلاً بشابه ولولا ان الله سبحانه وتعالى جعل فتحة الفم في هذا الحيوان داخلة عن الشفة العليا بقدر ثلثي ذراع لكان لا يبقى ولا يذر لانه لا يتمكن من مصيده وهو بهذه الصورة الا اذا دفعه الى امام او كان من جانبه وقد علم ذلك من خلقته سودان بعض الجهات فتراهم اذا ارادوا صيده اغتموا فرصة تحوله والنفاته الى جهة من جهاته فيغطسون بجانبه ويشقون بطنه في الحال ثم ياخذونه

فقال يعقوب الجزاء من جنس العمل وكثيراً ما يكون سره ذلك الحيوان سبب هلاكه فانه لا يرى شيئاً امامه الا التمه والتمه وان كان شعبان فاذا اراد الصياد اصطياده التى اليه سنارة قوية مثبتة في سلسلة محكمة وجعل في السنارة شيئاً من اللحم فتى راها كلب البحر اقبل عليها بشمها ويدور حولها فيجذبها الصياد بالسلسلة قليلاً فعد ذلك بطن الحيوان انه يراد استخلاص هذه الاكلة منه فيسرع

ويقتطعها فتتشبب في حلقة السنارة فتمت أحس بذلك صار يردد
ويضطرب ويخبط ويتقلب في البحر بقصد التخلص ولا يزال كذلك
حتى يكل ويضعف وتضعف قوته فعند ذلك يجذبه الصيادون
الى الخارج ويجهزون عليه ويتصيد الناس هذا الحيوان في جهات
كثيرة ويستعملون اجزائه في اغراض مختلفة فيطعمون دوابهم من
لحمه ويستخرجون من شحمه زيتاً يستضيئون به واهل (جواند)
يتخذون من جلده نعلاً واغشية لسروج خيلهم وربما عملوا منه
قوارب صغيرة

فقال الانكليزي رأيت مرة في مخزن الاثار القديمة بناحية
(روان) سناً من اسنانه طولها عشر متر ومن طولها هذا يعلم ان الحيوان
الذي كانت فيه كان طوله نحو ثلاثين متراً

فقال يعقوب وهذا الحيوان مع ما له من القوة وكبر الجسم
والسطوة قد ذلله الله لسمكة صغيرة تعرف بالديورا فتتخذة مركباً
لها وتسير به حيث شاءت وتستغي به عن العوامه التي لغيرها من
السماك (وهي كالمنخة للسماك تمتلئ بالهواء فيعوم بواسطتها في
الماء فهي له بمنزلة القربة التي يعوم عليها الانسان) وليس للديورا
هذه عوامه كما لغيرها من السمك وانما لها في جانبي راسها صمامات
مستديرات في صورة الشكل البيضي فتمت ارادت الانتقال الى جهة
تريدها عمدت الى حيوان كبير من حيوان البحر اياً كان فلتلتصق
به بواسطه صماماتها المذكورة فلا يمكنه ان يتخلص منها بحال من

الاحوال ولا يقدر احد على فصلها عنه بالقوة مهما بلغت القوة
وتسافر به الى حيث شاءت وتختار في الغالب لهذا الغرض كلب
الجرف تسافر عليه ويقال ان اهل الهند يستعملون هذه السمكة
للصيد من البحر كما يتخذ الكلب المعلم للصيد من البر فيؤلفونها
ويعودونها على بعض الفاظ يستعملونها بها في الصيد كما يستعمل
الكلب المعلم صاحبه في صيد البر واكثر ما يصطادون بها حيوان
الباعة وذلك انهم اذا ارادوا الاصطياد بهذه السمكة جعلوا لها حلقة
يسلكونها فيها بحيث تجري فيها وتسير بها في الماء حيث شاءت
بغير ان تخرج منها ويربطون بتلك الحلقة حبلًا لطيفًا فيه قوة
ومتانة ثم يضعون تلك السمكة في حوض مملوء من ماء البحر معد
لذلك عندهم في مراكز الصيد فتتى راوا حيوان الباعة على وجه
الماء اخرجوها من الحوض وارسلوها خلفه واغروها به بما عودوها
من الالفاظ فتسير اليه وتلتصق به فعند ذلك يجذبها الصياد
بذلك الحبل فياخذها معًا ويفصلها عن بعضها

وعادة هذه السمكة في اوقات اضطراب البحر وتوران الرياح
الشديدة ان تنزل الى قرار الماء فتلتصق ببعض ما فيه من الصخور
فتبقى عليه الى ان يسكن البحر

وكثيراً ما تلتصق هذه السمكة بالسفن وهي سائرة وربما رآها
بعض المسافرين

قال الانكليزي كان المتقدمون يعتقدون ان هذه السمكة اذا التصقت بسفينة اوقفتها عن السير فلا ترح من محلها ولا تفارق موضعها

والعجب ان (بلين) احد مشاهير الاقدمين ذهب في كلامه هذا المذهب ووقع في هذا الخطاء فقال ان هذه السمكة الحقيمة على صغرها وحقارتها اذا التصقت بالسفينة قاومت قوة الريح وعظم الشراع وتدير الانسان وكل هذا ناشئ من عدم الوقوف على الحقائق التي كشف العلم عنها الان ثم قال ليعقوب تم لنا ما بدأت من خبرك لنعلم ما جرى لك مع هذا القبطان وغيره في سفرك

المغامرة الخامسة والخمسون
النوء والفرق
(من حكاية يعقوب)

فقال ان هذا القبطان بعد ايام قليلة مات فحزنت عليه وحفظت له جميله وخلفه الرئيس فاقمت معه كما كنت مع القبطان قبله وكان قد اجتمع عندي من النقود ثلثائة جنيه اودعت منها مائتين عند اهل القبطان الاول وكنت قد تعرفت بهم لكثرة ترددي عليه ثم اشتريت بالمائة الثالثة بضاعة وسافرت بها مع الرئيس فكانت تلك السفرة انخس اسفاري واشقاها وكنت اذ ذاك قد مضت علي في البحر مدة قاسيت فيها من احواله وشدائده وعظائم اموره ما كنت ازعم انه لا يمكن ان يحصل اكبر منه حتى تحقق لي في السفرة المذكورة اني كنت في قلق عظيم وجهل كبير

وان كل ما قاسيته ليس بشيء بالنسبة لما تجدد بعده فقد حل لي
في تلك السفرة بين سواحل أفريقيا وجزيرة كناريا ما انساني كل
شيء قبله وغطى على كل شيء غيره

وذلك أنا حين كما بذلك الموضع ظهرت ربح شديدة من
ناحية الشمال الغربي خرجت مرة واحدة فتكرر منها الجو واظلم
الافق فانزعج القبطان وصار يصرخ على جميع الملاحين ان يتهيأوا
ويستعدوا لوظائفهم وياخذوا حذرهم وسمعت بعضهم يقول لبعض
مع الفزع والحزع ها هي الربح ظهرت في الافق من بعد وأشاروا
الى شيء كالسحابة البيضاء وكأنه علامة عندهم على ذلك فنظرت
فرايتها تسع شيئاً فشيئاً وتأخذ في الامتداد حتى غطت الافق
وحجبت السماء وكان ذلك ليلاً فاستترت بها النجوم واظلم الجو
وصرنا لا نرى شيئاً ما حولنا واذا بالربح هبت دفعة واحدة ثم
سكنت فظننت ان امرها قد انتهى فنظرت الى القبطان فوجدته
هو وسائر الملاحين في جهد جهيد وكرب شديد فسألت بعض
الملاحين فقال لي ان هذا السكون علامة على حركة شديدة تعقبه
وأشار باصبعه الى السماء ثم قال ستري ما يحصل بين السفينة
والبحر والهواء فلم يتم كلامه الا وقد اشتد الهواء وزعجر الرعد ولمع
البرق واضطرب البحر وهاجت الرياح وظهرت في الجو قطع من
السحاب فماتت الجوارح ولم تلبث ان تجمعت مثنى وثلاث ثم تضامت
وصارت كلها قطعة واحدة سوداء كلون الفانار مهيبة الهيئة تهول

المناظر وتروع المخاطر ثم سكن الهواء وانضمت الشراعات الى عيدانها
 والنصفت بها بعد ان كانت مملوءة هواء فكان ذلك عندهم علامة
 ايضاً على امر مخيف وكانت السفينة كطائر مجروح يرفرف لخروج
 روحه ورايت جميع الملاحين واقفين شاخصين بابصارهم باهتين
 مستعدين لما يامر به القبطان وعليهم سراويل مشتمة لا ينفذ منها
 الماء ولا اعلم ماذا يامرهم به وماذا يريدون ان يصنعوه وداخلني من
 الهم والوهم ما لا غاية فوقه وكان سكون الهواء عند ذلك من اعجب
 شيء وظهر على وجه الماء رغبة وزبد ولم نشعر الا بدوي ظهر من
 جوف البحر كأنه ينعي من سيموت فيه ثم خرجت ربح شديدة دفعة
 واحدة فامالت القلوع حتى صارت ماسة لسطح الماء وان كانت
 الامواج لم ترتفع الا قليلاً لان الهواء ضاغط عليها ثم اتت زوبعة
 فصرنا في جوفها فاكنا نسمع غير اصوات مختلفة بين تمزيق
 وتكسير ودوي وصرير وكانت السفينة حيثئذ في نصف الرمح
 كاللعبه في يد الطفل يديرها كيف اراد ويقلبها كيف شاء واستمرت
 مدة يسيرة وهي مائلة الى الامام ثم اعتدلت وعادت الى حالتها
 الاولى مدة ثم تمكنت منها الزوبعة واجرتها على وجه الماء بسرعة
 وخفة تخرج عن حد التصور وكان عند ذلك يسمع بين الحبال
 والاختشاب صرير مهول واصوات مفزعة والسفينة حيثئذ تسير
 على حالة عجيبة كأنها تمس الماء من غير ان تتمكن فيه فكانت تمر
 مر السحاب فوق رؤس الامواج فامر القبطان بالشراعات فطويت

كلها الا جزء من واحد منها وقبض على الدفة الرئيس بنفسه مع كمال الانتباه واليقظ والاحتراس وكنت انا حيثئذ لشدة ما نالني من الخوف والفرع طائش العقل طائر القلب لا انطق بحرف وانما اتحرك وانتقل كالحيال المتقل بلا تعقل ولا قصد وفي اثناء ذلك سمعت بعض الناس يشير على القبطان بانه يوجه المركب الى البر لانه لم يكن بعيداً فقال ان هذه الزوبعة لم تترك لنا اختياراً وفي اثره اشتد عصف الريح وهياج البحر وزاد الخطب عما كان عليه اضعافاً مضاعفة وصرنا لا يسمع بعضنا بعضاً من شدة صوت الريح وصوت تلاطم الامواج ببعضها وتلاطمها بالسفينة فلم يكن صوت الادمي يميز بين تلك الاصوات المرعبة وعند ذلك رايت الملاحين تركوا اشتغالهم بامر السفينة واطهروا اليأس واشتغل كل واحد بنفسه ورايت كلاً منهم ربط نفسه بحبل من حبال السفينة وكان الموج يعلو على جوانبها وتارة يدخلها من جميع جهاتها حتى يظن انها غرقت وتارة كما نرى السفينة كأنها تقطع الموجة وتنفذ من جوفها بدل ان تعلوها وتر فوق ظهرها فان الهواء كان يلجها الى ذلك بقوة ثقله فوقها وكثرة ضغطه عليها وتارة تكون على اعلا الموجة فتدفعها الريح دفعة واحدة بقوة وعننف فتستقط بينها وبين التي تليها فيظن انما خسف بها وعند ذلك تنزع عليها الموجة من اولها الى اخرها فتغمر في مرورها جميع من بها او تمر من فوق رؤسهم فكنا جميعاً مترقبين وقوع الغرق في كل دقيقة فاما من اللحظة ثم الا

ونحن نراها آخر الاجل وتوقع بعدها الخطر وجزمنا بالهلاك وانقطع
رجاؤنا من النجاة وخاف اعظمنا جسارة وجزع اشدنا تجلداً وطاش
اثبتنا جاشاً وحرار أكثرنا تجريباً وتعوداً وبقينا شاخصي الابصار
غائري العيون باهتي الالوان فاقدى الحركة كاشباح موضوعة
وصور مصنوعة وقد كل منا قوة اعصابه وتغيرت هيئته وصورته
فان مياه البحر فعلت في الجلد فعلها واقت به اثارها فاحالت اولاً
لونه وبدلته به لوناً اخر ثم لما تمادى مرورها عليه ومباشرتها له
وضربها فيه احدثت فيه استرخاء وانتفاخاً واضعفت الكيموس
الحوي وتقصت منه والهواء في اثناء ذلك يساعدها في اعمالها
ويضيف افعاله الى افعالها ويحملها الى الروس ويضرب بها العيون
والوجوه حتى ضاعت القوة والبصر وانضاف الى ذلك ان اضطراب
السفينة واختلال حركتها وكثرة تقلبها احدث اضطراباً في المعدة
واختلالاً في الاعصاب ودواراً في الراس وضعفاً في مجموع الجسم
فاحاط بنا من الخطب والكرب ما لا نتسع له العبارة ولا يفي به
التمثيل واستمر الامر على ذلك نحو ست ساعات ثم حصل بعده
هدوء وسكون فاذا بالقبطان يقول ها قد ظهرت علامات فورتونة
اعظم مما قبلها فكان سكون البحر في تلك اللحظة كأنه سكون هدنة فلم
نشعر الاً وزوبعة كالريح العقيم كانت الاولى بالنسبة لها كالنسيم
فكسرت جميع السواري وقطعت الحبال وضغطت السفينة حتى
كادت تنزلها الى فرار الماء ثم خفت عنها فارتفعت واعادت ضغطها

فنزلت وما زالت تلعب بها ترفعها وتضعها وتقلبها من جنب الى جنب ومن جهة الى جهة بحيث صغرت الاولى وهونت امرها عندنا واستمرت كذلك نحو اربع ساعات ثم هدأت وسكنت حتى رجونا السلامة وكدنا نذوق حلاوة الامن فلم نشعرا الا والماء ينبع من بطن السفينة فلم نهتدي الى منبعه الا وقد اتسع الحرق وطفح الماء واخذت السفينة تنزل بالتدرج الى جهة قاع البحر فحيث خلع الناس ما عليهم من الثياب والقوا انفسهم في البحر ففعلت مثلهم وصرت اعوم من غير تعقل ولا روية ولكن كان الشاطي غير بعيد فسبحت حتى وصلت بعد اللتيا والتي فلم تستقر قدمي عليه حتى انطرحت على بعض الصخور ذاهل العقل زاهب الشعور عديم المحس والمحركة لا فرق بيني وبين الميت وكاني غلبي النوم هناك من شدة ما قاسيت من العناء والتعب فمت ولم استيقظ حتى ضربني حر الشمس فمت فوجدتني عاري الجثة بادي العورة ضعيف القوة خامد النفس وكان قد مضى علي نحو اليومين لم اذق شيئاً فتحاملت على نفسي وقت انظر امامي وخلفي واتلفت يمنة ويسرة فلا ارى احداً من خلق الله تعالى ولا يقع بصري الا على احجار يابسة وصخور عالية وارض موحشة فلا اعلم هل غرق جميع من كنت معهم من الملاحين ام نجوا منهم احد الى ارض غير هذه الارض ام خرج منهم احد الى البر فاهلكه بعض الوحوش الضارية او الام المتوحشة ثم ادركتني وحشة كبيرة وخوف على نفسي عظيم

وصرت اتفكر فيما صرت اليه وما كنت فيه وقلت في نفسي وبجك
يا يعقوب ما اشقاك واقل حظك فوالله كانك ما تخلصت من
ورطة الا لتتبع فيما هو ادهى منها فماذا تصنع وما هذه الحال واين
مالك الذي كنت اكتسبت وبضائعك التي اشتريت وارباحك
التي املت وثروتك التي فارقت لاجلها الاحباب وعصيت عليها
النصاح وزايلت البلاد وركبت هذه الاخطار هذه نفسك قد
سلمت من بين نفوس هلكت رقيت وحدك لا معين ولا انيس وقد
نجوت هذه الدفعة من البحر فما يؤمنك من مهلكات البروعاديات
الوحوش ومتوحشي الآدميين



المسامرة السادسة والخمسون

الوحدة

(من حكاية يعقوب)

ثم اني سرت اتمشى قليلاً قليلاً على ساحل البحر فرايت
السفينة التي كنا فيها يلوح جزء منها ظاهراً من الماء على مسافة غير
بعيدة من البر بقدر كثير ورايت بعض براميل قد ساقتها الامواج
الى الشاطئ فنزلت في الماء واخذت بعضها فوجدته مملوياً من
البسماط والخبز ففرحت به وان كان البحر قد افسده وكذلك
وجدت بعض قطع من قماش القلوع التي مزقتها الريح وبعض
ثياب من ثياب الملاحين فاخذت من ذلك ما قدرت عليه
ونشرته في الشمس حتى جف وسترت عورتني واكلت ما يميسك
الرمق وقلت في نفسي انردد على الساحل لعلني ارى مغارة او حجراً

اوي اليه خوفاً من الوحوش واستعمالاً للحذر والتحذر بقدر الطاقة
وغداة غدٍ اذا سكنت الريح وإطمان البحر اذهب الى السفينة واخذ
منها ما اجدته مما يلزمي وعلى ذلك صرت اتمشى على الساحل واتلفت
حتى وجدت فجوة اشبه بهجر حيوان فقعدت بعيداً عنها مستترا
ببعض الصخور انظر هل يدخلها او يخرج منها شي من السباع او
الهوام فلم اجد شيئاً دخلها ولا خرج منها فدخلتها خائفاً متاملاً
مستعملاً للاحتراس والحذر ونظرت في ارجائها فوجدتها خالية
ففرحت بها وقلت اجعلها سكني وماوي حتى يحكم الله بحكم ثم
ذهبت وقلت اليها ما جمعته واقبل الليل فاويت اليها وكنت فيها
واكلت بعض لقبات من البقساط ولم يكن يعوزني الا الماء
فوطنت نفسي على الظاء وكان البقساط شديد الملوحة لما خالطه
من ماء البحر فتمكن مني الظاء فبت اكابد الله الى الصباح فلما
اسفر الفجر خرجت وسرت على ساحل البحر فوجدت عين ماء
يحف بها بعض شجر فقصدتها وشربت منها فوجدت فيها بعض
ملوحة ولكني مع ذلك فرحت بها لشدة ما قاسيت بالليل من
الظاء ثم نظرت فرايت على مسافة منها غابة اشجار كنت اسمع من
جهتها تغريد الطير من بعد فدلني ذلك على ان فيها كثيراً من
الطيور وسخ لي ان اتخذ مسكناً بالقرب من تلك العين فجعلت
اجيل النظر في ذلك وكنت احب ان اكون بالقرب من الساحل
رجاء ان ارى سفينة تمر فاشير الى من فيها عساها تاتي فانزل فيها

واتخلص ما انا فيه ولكن لم اجد بالقرب من تلك العين فجوة
 مثل الفجوة التي بت فيها فخطر بيالي اني ان فعلت ذلك لا آمرن
 على نفسي من الوحوش خصوصاً اذا كنت لا سلاح لي فاستحسننت
 البقاء في المكان الاول الى ان ادبر حيلة في الوصول الى المركب
 واخذ ما يمكنني اخذه منها ثم اتبع الشاطئ سائراً لعلني اعثر بمحل
 أهل بالناس فوقع هذا التدبير عندي احسن موقع فنهضت ومشيت
 على الشاطئ الى ان حاذيت المحل الذي غرقت فيه السفينة
 فنظرت اليها فوجدت بعض اعواد شراعتها ظاهرة وبيني وبينها
 نحو ميل فهبت العوم وخفت ان تنقطع قوتي في اثناء المسافة فلا
 اصل الى السفينة ولا الى الساحل وقد كان في جسي بقايا التعب
 والفتور ما قاسيت من المتاعب والمصاعب السابقة فعمدت الى قطع
 من خشب كان الموج الجهاها الى البر وعمدت الى بعض اشجار
 فاخذت قشورها وعملت منها ومن بعض الثياب التي قذفتها
 الامواج للساحل حبلاً لربط بها تلك الاخشاب الى بعضها في
 البحر على هيئة الرمث (الرومس) وانزلتها الى البحر وركبت عليها
 وقد اتخذت لي مجذافين من بعض الاخشاب صرت اعمل بهما
 قاصداً جهة السفينة حتى وصلت اليها وكانت قد غرقت عند شط
 جزيرة فبقي جزء منها ظاهراً وباقيها مغموراً بالماء فنزلتها وانغمست
 في الماء ودخلت محل السلاح فاستخرجت منه ثلاثة ازواج من
 الطنجرات وبندقيتين وبرميلاً صغيراً مملوئاً باروداً واخذت ايضاً

بعض ثياب عثرت بها واستخرجت ايضاً سريراً ارقد عليه وبرميلين مملوئين من البقساط وبرميل قديد (بصطرمه) وبعض مشروبات وغير ذلك مما بدا لي لزومه مثل قدوم ومنشار وسيف وسكين وهكذا كلما عثرت بشيء ارى انه ينفعني واحناج اليه اخذته فان وجدته ثقيلاً اربطه بجبل ثم اظهر على سطح الماء واسحبه حتى اخرجه من البحر وان وجدته خفيفاً امسكته بيدي ورفعته

ثم وضعت ذلك كله على الرمث (الرومس) الذي صنعته وركبت فوقه وصرت اعمل بالمحذافين قاصداً الى الجهة التي كنت بها في البر حتى وصلت الى الساحل فنقلت جميع ذلك في الموضع الذي كنت قد اخترته لسكنائي ثم ذهبت الى الغابة فاتيت منها ببعض اخشاب فحوطت بها على جميع منافذ المحل وانما اقيت لي منفذاً صغيراً كالاباب اخرج منه وجعلت له باباً من بعض قطع من الخشب ضممتها الى بعضها واحكمتها عليه واعدت لي خشبة متينة امكنها من الداخل حتى لا يمكن فتحه من الخارج ثم ادرت على المحل كله جسراً عظيماً عملته من تراب واحجار نقلتها ووطنتها وجعلت من وراء ذلك خندقاً عظيماً حفرتة فصرت كاني في حصن حصين وحرز منيع فيه كل ما احناجه من الزاد والذخيرة والالات والادوات وكنت اود لو عرفت حال اصحابي وما حل بهم واتمنى ان اعثر بواحد منهم ولهذا كنت دائماً اتلفت واتطلع الى جهات الساحل لعل ارى واحداً منهم يخرج مثلاً خرجت فاجعله انيسي

في وحشتي ومعيني على وحدتي فلم اصادف احداً مطلقاً وبعد يومين
القت الامواج الى الساحل بعض الجيف فاحنرت لها حفراً واريتها
بها وبقيت على هذه الحال خمسة عشر يوماً لا ارى من يزاحمني ولا
اجد من ينغص على عيشتي سوى الوحدة ووحشتها والفرقة وحرقتها
والتفكر في اختي ووطني ومن كنت معهم ولم يكن سوى ذلك شيء
يهمني او يغني وكنت اخذت من السفينة ما يكفي لمؤنة سنة كاملة
وكان عندي ايضاً من البارود والسلاح ما يكفي للدفاع عن
نفسى وصرت كل يوم ازيد شيئاً في تحصين المكان وجعلت فيه خروفاً
صغيرة خرقتها في مواضع متعددة من اعلاها لنفوذ الضوء والهوا
ولكى ارى منها ما لعله يطرأ في الخارج وجعلت في الجسر مزاغل
لاستعمالها في الدفاع عن نفسى اذا دهني عدو اخافه واجتهدت
مع ذلك في ابقاء ظاهر المحل على اصل هيئته كي لا ينتبه له من يمر
به ومكثت مدة من الزمان على ما انا عليه لا ارى احداً وكنت كل
يوم اصطاد شيئاً من السمك والطير فاشتوي منه واطبخ كما اشتهي
حتي وجدتني تمهرت في اصطاع الاطعمة ووجدت في الغابة كثيراً
من انواع الفاكهة والخضراوات والبقول فكنت اخذ منها كل ما
احب

المسامرة السابعة والخمسون

العود

(من حكاية يعقوب)

وفي بعض الايام دخلت الغابة على العادة ثم اوغلت فيها فلما اردت العود رايت على البعد قومًا على خيل فحفتهم حين رايتهم وقلت في نفسي هل اخفي منهم فانجو من شرهم ام اظهر لهم لعل خلاصي من الوحدة يكون على يدهم ولبثت برهة في ارتباك وحيرة اتردد بين الامرين ثم اخترت المواراة منهم وصعدت على شجرة ذات اغصان واوراق كثيرة فاخفيت فيها عن اعينهم وصرت انظر من خلالها اليهم فما زالوا يقربون من الشجرة التي انا عليها شيئًا فشيئًا حتى وصلوا اليها فاحاطوا بها فتبينت انهم قد لمحوني وكان معي اذ ذاك بندقية وزوج من الطبنجات فحدثني نفسي برميهم بالبندق

ثم قلت في نفسي انهم جمع كثير فان رميتهم فلا بد ان يسلم بعضهم فافع في يدهم فيقتلونني او يأسروني ثم يعذبوني فرايت الصواب ان لا احدث شيئاً مما هممت به وبقيت انظر اليهم وانتظر ماذا يفعلون فرايتهم قوماً سود الوجوه عليهم ثياب سود وبايديهم نبال ورماح فنظروا اليّ وأشاروا بالنزول من فوق الشجرة فاسترت اليهم باني خائف منهم ان يقتلونني فاولماً اقدم باصبعه الى السما ففهمت انه يعاهد الله ان لا يصيبني مكروه ثم فهمت من اشارة اخرى ان قصدهم ان يعاملوني معاملة الاخوة فتخيرت بين ان انزل اليهم اعتماداً على اشارتهم او ابقي بمكاي احباطا لنفسي وتحرزاً من غوائلهم ثم قلت ان كل ما حصل من اول الامر الى اخره انما نشأ من طاعة النفس في رايها ومتابعة هواها وعدم التفويض فيما اشكل عليها لربها وهذا كان السبب في كل ما اقايسه خصوصاً انهم في امكانهم اذا لم انزل اليهم بالطوع والاختيار ان ياخذوني بالتهر والاضطرار ولو بان تتظروني حول الشجرة يوماً فيضطروني الجوع الى النزول اليهم والمصير في قبضتهم وذلك قد يغريهم باسأتي فالاولى التسليم لله وترك الحاج ثم نزلت اليهم فاجلسوني بينهم وصاروا يרטنون معي ولا افهم ما يقولون واكلمهم فلا يفهمون ما اقول فاسترت لهم نحو البحر ففهموا اني كنت في مركب وغرقت باهلها ولم ينج منهم الا انا ثم افهمتهم بالاشارة اني اتخذت لي مأوى بقرب الموضع الذي نحن به واشرت لهم الى جهته فقاموا معي حتى وصلنا

اليه واشترت لهم نحو المركب التي غرقت والرمث (الرومس) الذي عملته والمتاع الذي تقلته فظهر على وجوههم علامة السرور والفرح وتوسمت فيهم الشفقة عليّ والرافة بي فاطمأت قلبي وذهب روعي ودخلت واخرجت لهم طعاما وشرابا فاكلوا وشربوا وكان فيهم رجل طويل القامة يظهر عليه علامات القوة والزعامة فاخذني من يدي وصار يرطن مع اصحابه بكلام لا افهمه ولكن عرفت من أدهم في حقه واصغائهم لكلامه وما لاح لي من قرائن الاحوال انه كبيرهم وانه اخنص بي دونهم ثم اشار اليهم فقاموا جميعاً على ما كنت جمعته فقسموه بينهم واخذ كل حصته من ذلك وركبوا خيلهم وجعلني هذا الرئيس خلفه وسرنا ثلاثة ايام بلياليها نحد السير في ارض لا علم لي بها وكنا في سيرة تارة نقرب من الساحل وتارة نبعد عنه وتارة نسير في نجد وجبال وتارة نسير في غابات واتجار وتارة في صحار وقفار الى ان وصلنا في اليوم الرابع الى بلدة صغيرة فوجدت اهلها كلهم سود ساكنون في خصاص صغيرة فاقمنا بها يوماً بليالته وكنت ما بين هؤلاء العبيد كاني العجوبة او طرفة مستغربة فكانوا يهرعون للتفرج عليّ من كل ناحية وينسلون من كل حذب ويحذقون بي من كل جانب حتى لم يبق صغير ولا كبير ولا عظيم فيهم ولا حقير الا جاء للنظر الي والتفرج عليّ حيث كنت وفي اي مكان استترت وكانت النساء تهرعن اليّ قبل الرجال وكان لهؤلاء المجنوعين حولي رطان كثير ولغط عظيم لا

انهمه فضجرت من ذلك وضاق صدري ولكي تجلدت وتصبرت
 ووطنت نفسي على الاغضاء والاحتمال وقضيت اليوم واللييلة على
 هذه الحال وبت طول الليل لم اغتمض بنوم ولا استقر بي مضجع ولا
 انقطعت عني الاوهام والوساوس والفكر فكنت تارة اتذكر ما
 مضى لي من طيب العيش مع اختي وتارة اتفكر في وقوعي في يد
 هؤلاء القوم واني صرت بينهم اسيرا في ارض لا ارى لي بها مجيرا ولا
 بصيرا فاستد قلتي وزاد رقي وصمت عن الزاد وحرمت الرقاد
 وبت ابكي وانوح والوم نفسي واوبخها حتى لاح الصباح فامر لي
 سيدي بفرس فركبته وركب باقي الجماعة خيلهم وسرنا جميعا
 اخذين جهة الشمال الى ان وصلوا بعد يومين الى بلدة كالاولى
 او اسواء منها فقابلنا قبل ان ندخلها قوم من العبيد بضربون
 بالدفوف ويغنون بغناء كالعديد ويظهرون الفرح لتقدمهم
 ويرقصون ويضربون الارض باقدامهم واتي اليها ناس من كل
 جانب فما دخلنا البلد الا ونحن في موكب عظيم ففهمت ان هذا
 البلد بلد سيدي وكان حولي من الناس عدد كثير وجمع غزير
 فسرنا معهم حتى وصلنا الى دار في القرية فدخلناها ثم ذهب كل
 من القوم الى محله بعد برهة وبقيت انا وسيدي فاستار الى اسارة
 فهمت منها ان هذه الدار داره وانه قد امر لي بعمل من محالها
 واصحبني بمن اوصلني الى ذلك المحل فاذا هو خص في جانب
 الدار وفيه حصير من القش وسرير مصنوع من فروع الاشجار

منسوج بسبور من الجلد واعطوني بعض اوان من خشب وفخار
على حسب اصطلاحهم في تلك الافطار وكانوا قد تركوا لي من
امتعتي بعض اشيا تجاوزوا لي عنها مع بندقية وزوج طنجبات
فجمعت ذلك كله ووطنته في الخص الذي اخنصوني به واتخذته
لي مأوى ومسكناً فكنت اتوجه معهم اينما توجهوا ثم اعود اليه فانزوي
به مدة النوم بالليل واوقات الفراغ من الشغل واتقدت لسيدي
غاية الانقياد وصرت ممتلاً لامره في اي شيء اراد فاحبني وقربني
منه وكلما زدت في خدمته والادب في حقه زادت محبته لي واتخذت
البشاشة وحسن الخلق ولين الجانب مع الكبير والصغير دأباً وعادة
مستمرة عرفت بها بين القوم فاحبوني كلهم وبهذه الحالة امنت على
نفسي من اذاهم وشراً وتعلقت بمعرفة لغتهم فعرفت بها في مدة قريبة
وصرت اتكلم بها معهم واعندت معاشرتهم فداخني نوع من الراحة
وخلو البال وبقيت على ذلك فيما بينهم كاني واحد منهم الى ان
تمكنت من الخلاص من ايديهم



المعامرة الثامنة والخمسون

البيل

فقال الانكليزي ان من يطلع على كتب السياحين الذين طافوا بتلك البقاع يجد ان جميع السواحل مسكونة بام سودانية مختلفة العادات والاحوال والاعتقادات وجميعهم يتجرون في الذهب فهو من عروض التجارة المتداولة في تلك الجهات بين اهلها وبين اهل اوروبا كالفرنساوية والانكليزية والبرتغالية وبسبب اختلاط اهل السواحل الان بالاوروباويين قد تغير بعض عاداتهم واحوالهم بخلاف من كان بعيداً عن الساحل فانهم لم يزالوا على ما كان عليه اباؤهم واسلافهم من العقائد الفاسدة كما نقل ذلك عن وصل اليهم فقد طاف بتلك الجهات خلق كثير من اهل اوروبا وشرح كل منهم ما رآه من العادات والاحوال وما قاساه من الشدائد

والاهوال وما شاهده من العجائب والغرائب وكلمهم متفقون على ان الذهب في تلك الجهات كثير وان مواد تجارتهم الذهب والصبغ والرفيق والعاج اعني عظم الفيلة وان كانت هذه الاصناف في بعض الجهات متفاوتة قلة وكثرة فقد يكون بعضها في جهة اشهر منه في جهة اخرى كالعاج مثلاً فانه قليل بالسواحل التي تقطعها مياه السيول وتكثر فيها الوحول والجهات التي فيها اسلحة نارية لان الفيلة لا تهوى تلك الاماكن بل تنفر منها وتفر الى الغابات وغيرها من الجهات التي ليس بها ذلك فيكون العاج فيها كثيراً

فقال الشيخ لا يشك عاقل في ان الانسان بسبب شدة فطنته مع صغر جسمه وضعف قوته يمكنه ان يستحوذ على الفيل وغيره من الحيوانات الكبيرة التي تزيد عليه في الجسم والقوة والبأس بدرجات كثيرة ولكن ليت شعري ما الطريقة المستعملة في اصطياده والقبض عليه وكيف يتوصل اليه

فقال الانكليزي قد بلغنا عن ساح في الاقطار واثبت ما شاهده فيها من الاثار ان اهل الارض التي بها الفيلة اذا ارادوا صيدها تجمعوا واخذوا اسلحتهم وذهبوا الى محالها التي تالنها في اوقات معلومة عندهم ولليلة اوقات تجمع فيها افواجا وتنتل من محلاتها الى جهات اخرى لطلب الماء او المرعى ومن عاداتها ان تسكن الغابات المتقطعة ما دامت تجد فيها الماء فاذا نشفت ما بها من البرك والمنافع اخذت في الانتقال الى شواطئ الانهار ولا تزال

بها الى اوان نزول الامطار واهل تلك الجهات يعرفون ما ذكر
من عاداتها واوقات تنقلاتها ومن العادة عندهم في اصطیادها ان
يجمع عندهم الخمسة والستة وياخذون معهم من البارود والرصاص
والنبال والموتنة ما يكفي لستة ايام فاكثر ويذهبون الى محال
الليل وياخذون في البحث عنه مع كمال التحرز والاحتياط
ويتعرفون محال وجوده باثاره كاغصان اشجار متعسرة بمخرطومه
وكرجيعه واثرقدميه وما اشبه ذلك وقد صار لهم في اقتصاص
اثره ومعرفة امره بطول المزاولة وكثرة التكرار ما لا مزيد عليه
من المعرفة والخبرة بحيث متى رأى الواحد منهم اثار قدم الفيل في
بقعة من الارض امكن له ان يقول على سبيل القطع والتحقيق في
اي زمن مر من تلك البقعة والى اين سار واين يوجد فتراه متى
رأى اثره كانا ابصره فتمت علموا محل القيلة بما اعناده من العلامات
كمنوا لها في محل مناسب حتى اذا راوا قطيعاً منها على البعد تبعوه
بغاية ما يمكن من الاحتراس وانتظروا انفصال احدها من القطيع
فعند ذلك يقتفون اثره ويتبعونه على البعد مع الحذر والتحرز
بحيث يزحفون على بطونهم بين الحشائش حتى يتمكنوا منه فاذا
تمكنوا منه رموه دفعة واحدة ثم احتجبوا عنه بين الحشائش مخافة
ان يراهم فيطش بهم فاذا احس الفيل نجروحه ذهب الى الشجر وحك
جسمه به فاذا لم يجد لذلك فائدة امتلاً غيظاً وهام لوجهه الى ان
يتعب من كثرة جريه وما يسيل من دمه فيكل وتسقط قواه ويقع

على الارض فياتون اليه ويجهزون عليه ويسلخونه وياخذون جلده فيتخذون منه نعلاً يلبسونها ولحمه لياكلوه فيقطعوا اللحم قطعاً رقيقة ينشرونها في الشمس لتجف فتصير قديداً (بصطرمه) يدخرونه عندهم لمؤنة السنة فرما كانت مؤنة بعضهم أكثر ايام السنة منه ويقلعون اسنانه وانياه بالفاس وياخذونها مع سائر عظامه لبيعوها للتجار وهي العاج المعروف فان اصابوا صيداً كثيراً فرما اقاموا في الغابة شهراً وأكثر يقتاتون من لحم الفيل ومن عسل يستخرجونه من بعض الاشجار ويقال ان لحم الفيل في الصغر يشبه في الطعم لحم البقر فاذا كبر ييس لحمه وعسر هضمه

وللعاج الذي يجمعونه تجار مخصوصة يشترونه منهم وقد يجلب مع الرقيق ويباع بالساحل فيشتريه الاوروبيون للتجارة وذكر كثير من السياحين قلاً عن الصيادين ان الفيلة تبدل انياها في كل ثلاث سنين مرة وذلك لانهم قد يجدون في الغابات بعض انياب ملقاة على الارض وقد يقع بين الفيلة وبعضها معارك فتقع منها انياها وانياب الفيلة عادة تكون مصمتة وانما تكون رؤسها

مخوفة

فقال يعقوب العادة في اصطياد الفيلة عند اهل البلاد التي كنت بها كما رايته مدة اقامتي بينهم ان كبيرهم وهو الذي كنت عنده اذا جاء الوقت المعلوم لصيدها يخرج ومعه جميع من في القرية من الرجال نحو مائتي رجل فاكثر ما بين راجل وفارس معهم

اسلحتهم وعددهم كالبنادق والحرايب والنشاب والفاس وغير ذلك
 فيسير بهم الى ان يصلوا الى الغابة التي بها الفيلة فيجناطوا بجزء
 منها في هيئة دائرة عظيمة ثم انهم يتقدمون الى امامهم وهم يتقاربون
 في سيرهم وينضمون الى بعضهم حتى تضيق الدائرة ويقرب بعضهم
 من بعض فاذا راوا فيلاً رموه جميعاً بالسلاح دفعة واحدة حتى
 اذا اخذ في الغضب والهياج هرب المشاة خلف الفرسان وصار
 الفرسان يضربونه بالسلاح الى ان يقع على الارض فيفعلون به ما
 تقدم وقد يصاب في الحلقة حيوانات غير الفيلة مثل بقر الوحش
 وغيرها ومن عادة الفيلة ان تتجمع في الصباح اسراباً تبلغ افراد
 السرب الواحد منها في الغالب نحو العشرين فيلاً ترد الماء مجتمعة
 ومن عادتها ان لا تؤذي من صادفته في الطريق ولا تتعرض له
 بسوء الا اذا تعرض لها او صادفته عند خروجها من الغابة او
 قرب من اناثها وقد رايت ذات يوم خارج البلد امرأة مرت
 بعجل انثى من الفيلة معها ولدها فاخذتها بخرطومها ودفعتها الى
 العلى فارتفعت عن الارض نحو مائة وخمسين قدماً فوقعت ميتة
 وقد اخلف في مدة حمل الفيلة قبيل انها ستة وثلاثون
 شهراً وقيل ثمانية عشر فقط وتمتد مدة الرضاع الى ثمانية اعوام
 ويتبدى في المشي من حين ولادته ويمتد عمره الى مائة وخمسين
 سنة ولكن كل ذلك اقوال لا يقطع بصحتها لعدم امكان تحقيقها
 بسبب توحشه وامتناع الفيلة المتالفة من التناسل في غير مواطنها

فقال الشيخ قرأت في جملة من الكتب العربية المؤلفة في طبائع الحيوان قديماً وحديثاً ان مدة حمل الانثى من الفيلة نحو سنتين وهذا كالمدة وسط بين القول بانها ثمانية عشر شهراً والقول ستة وثلاثون شهراً ويقال ان الذكر ينزو على الانثى اذا مضى له من العمر خمس سنين وزمان نزوه الربيع واذا حملت الانثى لا يقربها الذكر ولا ينزو عليها الا بعد ثلاث سنين وقال عبد اللطيف البغدادي انه لا ينزو الا على فيلة واحدة وله عليها غيرة شديدة فاذا نم حملها وارادت الرضع دخلت النهر حتى تضع ولدها خوفاً عليه ان يسقط على الارض لانها لا تلد الا وهي قائمة فتلد والفحل عند ذلك يحرسها ويحرس ولدها من الحيات وقد اجمع المورخون على ان الفيل اذكى جميع الحيوانات فطمة وفيه من الهمم ما يقبل به التأديب ويفعل ما ياهر به سائسه من السجود للملوك وغير ذلك من الخير والشر في حالة السلم والحرب غير ان النظر الى ظاهر هيئته وسكله يحكم عليه بالبلادة فحبتة الضخمة وجلده الامعط العاري عن الشعر وقوائمه الغليظة التي كانها لم تخلق للحركة وصغر عينيه وسعة اذنيه المسترخيتين كل ذلك يدل على اتصافه بزيادة بلادة عن المعارف ولكننا اذا اعتبرنا خصاله وجدناه بخلاف ذلك والفيل اكبر جميع الحيوانات واعظمها قوة وليس من طبعه الفتك والاذى بل هو مع كمال جرأته حلیم سليم الطبع وغاية الامر انه يعمل ما تمده من التوبة في الدفع عن نفسه او عن

صاحبه ومن طبعه الموالفة والموانسة واذا اجتمع سرب منه كان
أكبر الجماعة سنًا هو المدير والقائد لها وكان من دونه في السن
وازعمها واذا سرن على هذه الحالة اهتمصرن اغصان الشجر في طريقهن
واذا دخلن مزرعة لا يلبثن ان يفسدن الحرث ولا يكاد يصرفهن
وهن مجتمعات عدد وافر من العسكر المتسلحين الا انه لا يندران
يطارد القناصون منها ما كان منفردا ولكن القناص اذا اخطاه ولم
يمكنه الهرب منه هجم عليه في الحال جربًا فيضربه اولًا بنانه ثم
يتناوله مخرطومه ويرمي به الحو ويرقب سقوطه حتى يدوس عليه
فيقتله وكثيرا ما وقع مثل هذا على ما اخبر به المساعرون ومن طبع
الفيلة انها تكدر الماء قبل ان تسربه وكثيرا ما توعيه في
خراطيمها ثم تنسبه اما للعب او لاختذ التار من يسوها فينطلق
انطلاق ماء الميزاب وقد كان مرة فيل سائرًا وحده في مدينة
فوضع خرطومه على دكان خياط فنخسه احد الصناع بابة ليعجب
نفسه واصحابه فكظم الفيل غيظه ثم سار الى محل ذي قدر وملا
منه خرطومه ورجع الى الدكان واصطاق ذلك القدر على من كان
قد ساءه ونفى عنه بذلك ما لحقه من العار ووجود الفيلة في
افريقة على ما يظن اكثر ما سواها غير ان الموجود منها في اسيا
اكبر واعظم واكثر نفعًا لبني ادم اما في الهند على الخصوص فانها
تدرب على الشغل والحركة في حالتها الحرب والسلام بترتيب
حسن وتباع على حسب ضخامتها واحيانًا على حسب ألوانها

والابيض اكثرها قيمة وقد تعبدها اهل الهند في بعض المحال ويقال ان الفيل اذا انتاد كان اطوع جميع الحيوانات والينها جانباً وكانت محبته لسائسه احدى العبر فيرى منه حينئذ ان غاية حياته انما هي لخدمة صاحبه وطاعنه ويتودد الى من له به معرفة ويستعمل خرطوميه كاليد والذراع مساعدة لما يراد من تحميله ويعنو لمديره ان يركب على عنقه ويسوقه يعود من حديد وكلمة واحدة من راكبه اذا عرفه تكفي في الغالب لحركته اما الغريب فهيهات ان يطيعه وقد حدث ان فيلا هاج مرة هياجاً شديداً لسوء معاملته فيما ظن فقتل سائسه ولكنه ظهر منه بعد ذلك تأسف والتباعد شديداً وقد كانت ملوك الشرق قبل احداث البنادق والمدافع تحمل لوازم الحرب على القيلة المضرة وتحارب عليها واما الان فانما تتخذ عند من يقتنيها للتفاخر او لحمل الاثقال العظيمة اذ ليس في الحيوان ما يطيق الحمل اكثر منه فان له قدرة على ان يجر ما لا يكاد يقله ستة افراس وذلك دون كثير معاناة ويحمل على ظهره من ثلاثة الاف رطل الى اربعة الاف وعلى خرطوميه وحده الف رطل واذا حث على السير سار في اليوم مائة ميل تقريباً والافخمسين او ستين واهل الهند يعلمون القيلة الفلك بالمجرمين والانتقام منهم فتمرقم بخرطومها او تنفذ فيهم انيابها ولكنها ليست تميل لذلك بالطبع فهي انما تفعل بالرغم والاجبار

قال ناقل الحديث وكان برهان يسمع ما جرى من الحديث

في امر الفيل فلما انقطع القول فيه سال اياه عن حكم اكله
فقال قد اختلف العلماء فيه فاباحه البعض وحرمه
البعض والتحريم اشهر قولي الشافعي وعلي القول بحرمته يكون
عظمه نجساً لا يطهر بجال عند الشافعي كما هو رايه في
عظم كل حيوان غير مأكول ويكون طاهراً عند ابي حنيفة
كما هو رايه في كل عظم وشعر وقال مالك انه نجس يطهر
بالصقل



المسامرة التاسعة والخمسون

الخلاص

(من حكاية يعقوب)

ثم قال الانكليزي ليعقوب قد ذكرت ما حصل لك من ابتداء امرك الى ان وقعت في يد هؤلاء القوم ولم تذكر كيف تخلصت من ايديهم

فقال اني بعد ما تعلمت لسانهم وتكلمت بكلامهم صرت كاني واحد منهم لا يفرق بيني وبينهم الا مجرد اللون حتى انهم كانوا لا يسموني الا بالابيض فصار هذا الاسم علما عليّ عندهم وان كان لوني قد تغير عن حالته الاصلية بسبب طول مكثي في تلك البلاد وكثرة تعرضي لحر الشمس وكان لوني الابيض في اول الامر اعجوبة عندهم يستغربوه كل من راه ولكن لما طال مكثي

عندهم اعتادوه وصار لا يستغرب لديهم وكنت مدة اقامتي بينهم نافعا
لسيدي في الصيد والقتص وجميع ما يناط بي من الاعمال فاحبني
حبا شديداً استنبح محبة جميع اهل البلد لي واقبالهم عليّ وكنت اسمع
من بعضهم انهم في بعض الاحيان يحضرون الى ارضهم اناس من
جنسي للسياحة في بلادهم فكنت انتظر حضور بعض السائحين
اليهم عسى اتخلص منهم بواسطته وبقيت على هذا الانتظار مدة
اربعة سنين الى ان اتفق حضور السائح الشهير (بوسمان) الى تلك
البلاد وكان معه عدة من المحرس لحفارته وحفظه في الطريق فلما
مر بهذا البلد اجتمعت به وكلته بالانكليزي وذكرت له قصتي وما
جرى لي من وقت الفرق الى حين لقائه واثبت له على الشخص
الذي اخذني وذكرت له ما صنعه لي وكان ذلك بحضوره وكان
مع السائح المذكور ترجمان له من جنس القوم فعرف سيدني بما
قلته من مدحي له ففرح بذلك ثم ان السائح المذكور طلب من
سيدي اخلاء سبيلي فامتنع واخبره اني عنده بمنزلة ولده وان فراقي
يعز عليه فما زال ذلك السائح به يستعطفه ويلج عليه حتى تم الامر
على اخلاء سبيلي في نظير جملة من الاقشة والخرز دفعها السائح
المذكور لسيدي ومن ذلك الوقت فارقتهم وصرت في خدمة
ذلك السائح الى ان ركبت البحر ورجعت لمولاه القديم وعذابه
الاليم وكنت عرفت ان الارض التي كنت بها تعرف بارض الذهب

اوساحل الذهب وانها من جملة جهات السانغاميا وان البلدة
التي كنت بها تسمى (تابو) وحوها بلاد كثيرة منها (اوينه) و (اجويرا)
و (الكسان) و (انكاسيا) و (اجينا) و (ادوم) و (ومونيا)
و (فساه) و (انكى) و ابرامبويه) و (كيفورا) وغير ذلك من
البلاد لا يحضر في اسمها الان وهذه البلاد يوجد فيها الذهب بكثرة
ولاهلها عادات عجيبه وعقائد غريبة



المسامرة الستون
الذهب واستخراجه
(من حكاية يعقوب)

فقال الشيخ قد ذكرت مواضع الذهب ولم تذكر كيف يستخرج
وعلى اي هيئة يوجد في اول امره وبودي لو عرفت ذلك
فقال يعقوب ان الذهب يوجد في هذه البلاد خالصا نقيا
على هيئة حبوب دقيقة متشرة يكون الكبير منها في حجم الحمصة
واما كيفية استخراجه فانه اذا انخسرت مياه الانهر وذلك في وقت
فراغ الاهالي من زراعتهم اعني في اوائل شهر ديسمبر ينهب كبير البلد
على الاهالي بالاستعداد لجمع الذهب وغسله ويعين لهم يوما يسميه
لم فتستعد له الرجال والنساء ومعهم الالات المختصة بذلك وهي
عبارة عن مساحي ومجارف لفحت الارض وتقلب التراب وبعض

قضع من خشب لغسل الذهب وتنظيفه من الاتربة وریش لاجل
 وضع ما يوجد من الذهب في انابيبها ويذبح لهم في يوم التوجه
 ثوراً او بقرة ويجتمع اهل البلد ويقراء مشايخهم ادعية وعزائم سحرية
 بقصد نجاح غرضهم وعملية الغسل سهلة جداً والقائم بها النساء
 لانهن قد اعندن عليها من الصغر كتعودهن على غربلة القمح
 والارز واما قلب الاتربة واستخراج التراب المظنون وجود الذهب
 فيه فذلك موكل الى الرجال وكيفية تصفيته ان تاخذ المرأة جانباً
 من ذلك التراب وتضعه في قصعة من خشب ثم تصب عليه
 مقداراً من الماء وتحركه به حركة دورية حتى يمتزج ببعضه ثم تقلل
 في الحركة شيئاً فشيئاً ثم ترجع الى تحريكه ثانياً وتزيد الحركة شيئاً
 فشيئاً حتى يسيل من حرف القصعة جزء من الماء المختلط بالاتربة
 الناعمة المختلطة بالمادة الاصلية ثم تتركه حتى يرسب ثم تريق الماء
 وتطرح الحصى وتبقى ما رسب في اسفل الاناء من الرمل ثم تصب
 عليه ماءً جديداً وتعاود العمل مراراً حتى يصفو الماء ويصير في
 غاية الصفاء ولم يبق في القصعة الا الرمل والذهب ثم تاتي بقصعة
 اخرى فتقل اليها جزءاً من الرمل وتبقى في الاولى ما رسب في
 قاعها من الرمل المظنون ان الذهب فيه اكثر وتضع عليه ماءً
 صافياً وتحركه في القصعة وتنظر الى اسفلها مع الدقة والتأمل
 وتاخذ ما وجدته في خلال الرمل من الذهب وكذلك تفعل بما
 في القصعة الثانية وغاية املهم ان تجد المرأة في كل قصعة من الذهب

اربع حبات او ثلاثاً ولم تكن معرفة النساء بهذه الصنعة سواء بل
 منهن من لها معرفة اكثر من غيرها لكثرة تجربتها حتى انها تعرف
 الاتربة التي يوجد فيها الذهب وتميزها بلونها وكيفيةها وتستخرج
 الذهب منها مع ان غيرها ربما مرت عليها ولم تلتفت اليها وكل ما
 يجده من قطع الذهب يضعه في انابيب الريش ويسدون عليه
 بقطن او نحوه ويعلقنها بشعورهن ويفتخرن بكثرتها والسعيدة منهن
 من تجمع في اوان جمعه اوقيتين والمحلات التي يبحث فيها عن
 الذهب هي مجاري المياه ولكنها اذا استمر عليها الماء مدة طويلة ولم
 يتحول عنها الى غيرها لا يوجد بها شي من الذهب لان الماء بشدة
 جريانه وقوة انصابه يحدث بها فيها من الرمل والتراب تقلبات
 كثيرة فلا يعثر البعث فيه بشي من الذهب لذلك السبب

ومن الناس من يتساهل ويعمد الى مجاري المياه ويبحث فيما
 في اثناءها من الرمل ومنهم من يصعد الى اعلا المجرى ويبحث فيما
 به من الاحجار والحصى متجشما لما فيه من المشقة فان تيار الماء عادة
 ياخذ ما في طريقه من الرمل والتراب بسبب قوة انحداره وشدة
 جريانه ويترك ما يتعاصى عليه من الاحجار وكبار الحصى فيكون
 البعث فيها شاقاً صعباً وكثيراً ما يضر بالاصابع ويجرحها ويدمها
 بخلاف الرمل والتراب ولكن من يبحث في تلك الاحجار والحصى
 قد يعثر فيما بينها ببعض قطع كبيرة من الذهب تعوض عليه الالم
 والتعب ولكن ما كل وقت ينجح الطلب واما المجاري التي تحول

عنها الماء فيحفرون بها ابارا عميقة ويغسلون ما يستخرجون من طبقاتها من الرمل بالطريقة المتقدمة فيجدون فيها كثيراً من الذهب



المعامرة الحادبة والسنون

بلاد سنغامبيا

فقال الانكليزي ان وجود هذا المعدن بارض افريقيا كثير وقديم واهل تلك الارض من السودان معتادون على تجارته من قديم الزمان فتراهم يجلبونه الى بلاد السواحل ويبيعونه لبعض تجار العرب والافرنج وغيرهم واحسنه ما يوجد بالجهات التي ذكرها

يعتوب في ولاية على شاطئ نهر السينجال يقال لها (بامبوك)
وامتدادها من الشمال الى الجنوب نحو ستة وثلاثين فرسخاً وعرضها
ثمانية وعشرون فرسخاً فيكون مربعها نحو الف فرسخ وهذه الولاية
منقسمة الى ثلاثة اقسام لكل قسم منها ملك او حاكم واعظمها قسم
(بامبوك) لكثرة الذهب به وكون ذهبها احسن واصفى من ذهب
القسمين الاخرين ولذا سمي مجموع الاقسام الثلاثة باسمه مع ان
لكل قسم منها اسماً خاصاً به وفي تلك الجهة جبل عظيم يشغل
معظم ارضها تسميه اهالي تلك الجهة طبأورا

وفيه منابع مياه كثيرة ويصب في الاقسام المذكورة نهران
عظيمان احدهما يجري في غربي هذه الارض الى ان يصب في نهر
فيلبيه والاخر يجري في شرقيها ثم يصب في نهر السينجال وجميع
هذه المجاري يوجد بها ذهب لكن المعادن المشهورة فيها اربعة
وكلها بسفح الجبل المذكور ببلاد عرفت معادنها باسمائها والذي
يتولى حفر ابار الذهب في الغالب العبيد فينزلون فيها الى عمق
ثلاثين او اربعين قدماً ويخصص لكل بشر اثنان احدهما للحفر
والاخر لتعبئة الزنايل وامرأتان لنقل التراب ويغير الجميع في كل
ثلاث ساعات ومدة اشتغال الجميع بهذه الاعمال ثمانية اشهر لا
يشتغلون فيها بغيرها ويختلف ما يستخرج من المذهب قلة وكثرة
باختلاف معادنه وقد علم من تجربتهم ان اعظم تلك المعادن
واكثرها ذهباً يستخرج منه في كل ثمانين اوقية من التراب قدر

مائة واربع واربعين قمحة ونصف قمحة من الذهب النقي ومن عاداتهم في تلك البلاد انهم لا يخرجون اليه ولا يستخرجونه الا باذن المحكام واهل البلدة التي بها المعدن الذي يريدون الاخذ منه وبعد استخراجهم وتصفيته يعملون منه حلًا لنسائهم كالحواتم والقلائد والحلقتان ويستعملون بعضه في نفقات السفر ثم يبيعون باقيه مبادلة ببعض بضائع يجلبها اليهم تجار من الغرب وغيره كاللح والذرة والقماش وغير ذلك ويرج فيه التجار رجًا عظيمًا يساوي غالبًا ضعف ما يعطونه من البدل ولكل واحد من السودان ميزان يزن به الذهب وعندهم فول اسود يزنون بحبه ما يعادل ست حبات منه يقال له عندهم (متقالي) وقيمة المصنوع وغيره عندهم واحدة وقد تبلغ قيمة ما يستبدل باللح من الذهب لاهل البلدة الواحدة نحو مائة وثمانين الف جنيه انكليزي وللح في هذه الجهات من ارض افريقية قيمة عظيمة فقد يبلغ ثمن كل قالب من الملح طوله قدمان ونصف بالتقدم الانكليزي وعرضه اربعة عشر اصبعًا في سمك اصبعين نحو جنبيين ونصف وثمانه المعتاد قدر جنيه انكليزي وثلاثة ارباع جنيه الى جنبيين وكل اربعة قوالب منه تعتبر عندهم حمل حمار والسته حمل الثور واما البضائع الاوروبية فمختلفة الثمن باختلاف كثرة الورد وقلته وقد تقع المبادلة فيها بالرفيق وقيمتها ايضا مختلفة فقد رأيت الراس الواحد منه يساوي بالمتقالي السابق ذكره من تسعة الى اثني عشر وكانت اثمان البضائع

الاوربية حين كنت هناك ما ساذكروه لكم فكانت قيمة كل ثمان واربعين ورقة من الدخان متقالي واحد وكل ثمانية عشر شطفه من الصدف كذلك وكل عشرين تعبيرة بندقية من البارود كذلك وقيمة البندقية ثلاثة من المتقالي فاكثر الى اربعة واما الاشياء الضرورية كاللوازم المعيشية والامور المنزلية فكانت قيمة ما يلزم لمؤنة يوم واحد قطعة من الذهب توازن حبة من الفول وقيمة الدجاجة الواحدة كذلك وقيمة النعجة الواحدة ثلاث حبات وقيمة الثور متقالي واحد وقيمة الفرس الواحد عشرة من المتقالي الى سبعة عشر وعلى الاشياء واعزها عندهم الملح فن ذكر عنه فبا بينهم ان عنده ملحا وانه يطبخ به كان كمن قيل في حقه عند غيرهم انه غني ومن اعظم تجارتهم واهمها عندهم الحديد للزومه في عمل السلاح والات المحرث والزراعة ولهذا يقدرون به اثمان البضائع فيقولون قدر كذا من صنف كذا يساوي قضيبا او قضيبين من الحديد او نحو ذلك حتى شاع بين التجار اطلاق لفظ قضيب على مقدار معين من بعض البضائع كاللدخان مثلاً فان كل عشرين ورقة منه يسمونها قضيبا وربما قالوا قضيب من صنف كذا يساوي قضيبا او قضيبين من صنف كذا وهكذا وكانت قيمة القضيب سنة الف وسبعائة وخمس وتسعين من الميلااد وهي سنة ١٢١٠ من الهجرة تساوي قطعتين من الشلينات والشلن معاملة انكليزية ومقداره خمسة غروش صاغ الا خمسة فضة والجنيه

عشرون منه فاذا كان ثمن العبد مثلاً خمسة عشر جنيتها انكليزيا قالوا ان قيمته مائة وخمسون قضييا وجميع سكان ارض السانغبيا تنقسم الى اربع عشائر واكثرهم لا دين له وعقائدهم بعقائد الوثنيين اشبه والمسلم فيهم نادر وان وجد فلا معرفة له الا ببعض قواعد قليلة لا يعمل بها ولم ائمة يسوسونهم على قدر عقولهم ومنهم قوم يسكنون ساحل البحر ويتدينون بدين النصرانية ولكنهم قليلون في القدر ومن ينسب الى الاسلام اكثر منهم ومع ذلك فلم تزل في الجميع عقائد ابائهم واوهام اسلافهم ولكل فرقة منهم احوال تميز بها كالفلو مثلاً فان في طبعهم حب الانتقام من عدوهم زيادة عن غيرهم ولا يتركون ثارهم فاذا قتل منهم قتيل اخذ اكبر اولاده او اقرب الناس اليه نعله وحفظه ويلبسه كل سنة في مثل اليوم الذي قتل فيه قتيله الى ان ياخذ بشاره ويندر ان يسلم القتال عندهم من القتل

ورایت في البلدة التي كنت بها جارية يعظمونها ويحترمونها اكثر من غيرها فسألت عن سبب ذلك فقيل لي انها كان لها زوج قتلته شخص من بلد يقرب بلدهم فاضمرت في نفسها ان تاخذ بشاره فصارت تزين نفسها باحسن ما يكون عندهم وتتعطر وتمزق ثياب زوجها وتستميله اليها ولم تزل كذلك حتى احبها وشغف بها فاقامت عنده مدة حتى تمكنت من غرضها فقطعت رأسه واتت به الى بلدها فشهدوا لها بالدهاء ولطف الحيلة واحترموها لذلك ومن

عاداتهم انه متى وقع بين اثنين منهم عداوة واستمرت وبقيت فلا تزول ولا تحول فاذا ابتدأت العداوة بين اثنين منهم اخذا ورقة من شجرة معروفة عندهم فيجذب كل منهما بطرف منها فتتمزق الورقة بينهما ومن ذلك الوقت يستعد كل منهما لتدبير كل مكيدة لصاحبه ويذل الجهد في اساءته والعبيد والاحرار عندهم في هذه العادة سواء

ودخلت بلاد قوم منهم يقال لهم المندنج فرايت حول كل بلد وقرية لهم زريبة من القصب (البوص) تحيط بها والاحرار منهم نحو الربع وهم السادة والباقي ارقاء لا مخلص لهم من الرق وعليم خدمة الارض وغيرها وهناك ولاية تسمى كجاءجا نهايتها من جهة الشمال من نهر السينيجال هواؤها معتدل واهلها معروفون بالصدق والامانة في المعاملة ودأبهم التجارة مع الاوروباويين فيبيعون لهم الذهب والرقيق ولم على جمع المال حرص زائد واكثر ربحهم من بيع الملح وثياب القطن ومن عاداتهم انهم اذا سافر منهم احد في تجارة ثم رجع لا بد ان يستصحب معه بعض هدايا لبعض احابيه فاذا اتى الى بلده اخبر بربحه وتجارته فاذا تبين انه لم يربح في تجارته ولم ينجح في سفرته عيروه وأساؤه وهدموا بيته وصار فيما بينهم حقيراً ذليلاً مهاناً فلا يتخلص من لسانهم وأئذائهم الا بالفرار من بينهم وعلى شمال هذه الجهة ولاية تعرف بولاية (يوندوا) وهي شرقي ولاية (بامبوك) بين جابينا والسينيجال تمر منها القوافل

الواردة من داخل افريقه بالرقيق متوجهة الى السواحل وكذلك القوافل التي تجر في الملح وهذان الصنفان من التجارة يتداولهما اهل المندنج وكذلك القطن والحديد ولم ايضاً متاجر يذهبون بها الى بلاد المغرب ومن عروض التجارة عندهم صنف عطري يشبه الصمغ يضعونه في اكياس يجعلون في كل منها قدر الاوقه منه ومن خاصة هذا النوع انه اذا وضع جزء منه على النار فاحت له رائحة طيبة ويخبر به اهل المندنج ملابسهم ومساكنهم ولم رسوم ياخذونها من كل من يمر بهذه الولاية من التجار بالبضائع الاوروبية فياخذون على كل حمل حمار قضيب بضاعة فان مر بالمدينة التي بها الملك لزمه اعطاء ثوب من قماش او بندقية وست زجاجات مملوءة من البارود ومن اهل تلك الجهات (الغولاه) ولونهم يقرب من لون الحبش وهم اكثر ولايات هذه الجهة عدداً بعد طائفة المندنج ويزعمون انهم اصل لما عداهم ويعدون انفسهم من البيض والكل يتمون لدين الاسلام ما عدا الملك والامراء وعندهم مكاتب لتعليم الاطفال من اي امة كانوا ويتعلمون في هذه المكاتب القرآن الشريف والقواعد الدينية الاسلامية ويتكلمون باللغة العربية منذ دخل الاسلام بلادهم وكانت لهم قبل ذلك لغة غير العربية وفي طبعهم حب البهايم وخدمتها فيجلبونها صباحاً ومساءً ويشربون من لبنها حليباً وحامضاً ويستخرجون منه زبداً يستعملونه في دهن اجسامهم وشعورهم ووجوههم الا ان البان اوروبا اكثر زبداً من

لبن بقرهم ومع اغنائهم بالبقر وحبهم للبنها وكثرته عندهم لا معرفة
 لهم بكيفية استخراج جبنه اصلاً ويقولون ان المانع من عمله عزة الملح
 وشدة الحر وكثرة ما يصرف في عمله وقلة ربحه وعندهم خيل من
 الجياد وهي من نتيجة اختلاط الخيل العربية بالافريقية واهل هذه
 البلاد يعتقدون ان القمر يتغير في كل شهر وان لكل شهر قمراً
 جديداً فاذا راوا الهلال اجتمعوا ودعوا بدعوات سرية يقصدون
 بها الشكر لله على ما اولاهم من النعم في مدة القمر الماضي ورجاء
 دوام ذلك في مدة القمر الجديد وعندهم ان الارض ذات امتداد غير
 محدود فلا يصل احد الى نهايتها لاحاطة السحاب والضباب بها
 وفي ظنهم ان احسن البلاد بلادهم وانهم احسن انواع الانسان
 فيتأسفون على من عداهم من الخلق حيث لم يكونوا في ارض خصبة
 كارضهم وقطر معتدل الهواء كقطرهم ويعترفون بوجود الخالق
 سبحانه ويقولون بوجود الجنة والنار لجزاء المحسنين بالمجنة والمسيئين
 بالنار ولهم معرفة بخدمة الارض ومزيد رغبة في الزرع ولكنهم انما
 يزرعون من الارض بقدر ما يكفي لموتهم جميع ستم لانهم لا يتاني
 لهم اخراج ما زاد عن لوازمهم الى الخارج ويشغلون بالزرع وخدمة
 الارض في فصل نزول الامطار واما فصل الصيف فيشتغلون
 فيه بالصيد والتنص فتأخذ سكان السواحل اقصاء او شباكاً
 يصطادون بها من الجروما يصطادونه من السمك يحففونه في
 الشمس ويدخرونه لوقت لزومه مدهوناً بشيء من الزبد وغيرهم

يشتغلون بالتقنص واصطياد بعض الحيوانات البرية والالات المستعملة عندهم في ذلك هي القوس والنشاب ولم في الرمي حذق عجيب بحيث يرمي به الواحد منهم الوزغة على الشجرة او الحائط فلا يخطئها ولجميعهم معرفة بصناعة الحياكة والصباغة والخياطة ويتعلمون هذه الصنائع من صغرهم وترى الحداد منهم يعرف صوغ الذهب والفضة ولم في الذهب صناعة بارعة يعجز عن بعضها كثير من مهرة الاوروبيين

فقال الشيخ كذلك يوجد في بلاد النوبة التابعة لحكومة مصر من لم يزيد براعة وحذق في صياغة الذهب والفضة وقد ذكرت بما ذكرت من قصة المرأة التي اخذت بشار زوجها ما فعلته الزباء مع جذية الابرش واخذها منه بشار ابها

فقال الانكليزي اما الزباء فغاية علمي بها انها كانت من ملوك العرب القديمة ولكن لا ادري نسبها ولا الارض التي كانت بها ولا ما فعلته مع جذية



المسامرة الثانية والستون

الزباء وجذبة الابرش

وقصير ويهس

فقال الشيخ اما نسبها فهي على ما ذكره ابو الفرج الاصبهاني بنت عمرو بن الظرب بن حسان بن اذينة بن السميدع بن هوبر العاملي من عاملة العاليق وكان ابوها ملكاً على الجزيرة خزيمة ابن عمرو في شمال الموصل يحيط بها نهر دجلة فقتله جذمة الابرش ملك الحيرة والانباء وطرد الزباء ابنته الى الشام فلحقت بالروم وكانت عربية اللسان كبيرة الهممة ما عرف في زمانها اجمل منها وانما سميت الزباء لانها كان لها شعر اذا مشت سحبت وراءها واذا نشرته جللها والزيب كثرة الشعر الوصف منه ازب للرجل وزباء

للانثى ومنه سميت الزباء لكثرة شعرها فلما اجلاها جذية من ملك
ابيه وطردها بذلت الاموال وجمعت الرجال فلما استجمع امرها
عادت الى الجزيرة فاستردتها الى ملكها واستولت عليها وهي معدودة
في ملوك الطوائف ثم انها قصدت الى الاخذ بثار ابيهم والانتقام
من جذية فلم تجد عندها من القدرة ما يمكنها من ذلك بالقوة
والحرب فعولت على التدبير والمكيدة فهادنت جذية وكتبت اليه
تقول . اني لم اجد ملك النساء الا قبيحاً في السماع وضعفاً في
السلطان ولا ارى للملكي موضعاً ولا لنفسه كفواً غيرك فاقبل اليّ
لا تزوج بك واجمع ملكي على ملكك واصل بلادي ببلادك
تريد بذلك غدره فلما اتى كتابها اليه طمعت نفسه فيما عرضته عليه
فجمع اصحابه واستشارهم فاشاروا عليه بتلبية دعوتها واجابة خطبتها
الا رجلاً فيهم يقال له قصير ابن سعد فخالفهم فيما اشاروا به عليه
وقال (رأي فاتر وغدر حاضر) والرأي ان تكتب اليها فان
كانت صادقة في قولها فلتقبل اليك والا فلا تمكنها من نفسك
فتقع في حبالها وقد وترتها وقتلت اباهها فلم يوافقته جذية فيما اشار
به عليه وسار اليها في وجوه اصحابه فاخذ علي شاطئ الفرات من
الجانب الغربي وقبل وصوله اليها استقبلته رسلها بالهدايا والالطاف
فلما رأى جذية ذلك قال لتقصير كيف ترى فقال (خطب يسير
في خطب كبير) وستلتاك الجيوش فان ساروا امامك فالمرأة

صادقة وإن اخذوا جنبتيك واحاطوا بك من خلفك فالتوم غادرون بك فصار جذية وقد احاطت به الخيل حتى دخلوا به على الزباء فلما صار عندها دعت بالسيف والنطع وامرت بطست من ذهب كانت قد اعدته له وقالت ان دماء الملوك دواء من الكلب ثم امرت براهشيه فقطعتا والرواهش عروق اليمين فلما ضعفت يده سقطتا فقطر من دمه قطرة خارج الطست فقالت لا تضيعوا دم الملك فقال جذية (دعوا دمًا ضيعه اهله) واستنزفه الدم حتى مات هذا ما كان من امر الزباء وتحيلها في اخذ ثار ابها واما قصير فانه لما احاطت الخيل بجذية وعلم الغدر به نجبا بنفسه ورجع الى بلاده فتحيل على قتلها فجدع انفه ورحل اليها فلما راته قالت ما الذي ارى بك يا قصير ومن جدع انفك فقال لها زعم قوم جذية اني قد غررتك وزينت له المصير اليك وغششته وما لأتلك عليه ففعلوا بي ما ترين فلما رايت ذلك منهم اقبلت اليك وعرفت اني لا اكون مع احد اثقل عليه منك فصدفته واكرمه واصابت عنده من الحزم ما ارادت فلما عرف انها اطمانت اليه ووثقت به قال لها ان لي بالعراق اموالاً كثيرة وطرائف وثياباً وعطراً فابعثيني الى العراق لاحمل ما لي واحمل اليك من بزوزها وطرائفها وثيابها وطيبها وتصيين في ذلك ارباحاً عظيمة وشيئاً مما لا غنى للملوك عنه فلم يزل يزين لها ذلك حتى اذنت له

ودفعت له اموالاً فسار قصير بما دفعته اليه حتى قدم العراق واتى الى الجزيرة وهي بلاد جذية متذكراً ودخل على قوم جذية وقال لهم جهزوني بصنوف البر والامتعة لعل الله يمكننا من الزياء فنصيب ثارنا فاعطوه حاجته فرجع بذلك الى الزياء فاعجبها ما رأت وسرها وازدادت به ثقة وجهزته ثانية وثالثة فرجع الى بلاده وجع ثقات رجاله وشجعانهم وهياء لهم الغرائر والسلاح وحمل كل رجلين على بعير في غرارتين وسار يكمّن النهار ويسير الليل فلما صار قريباً من مدينة الزياء تقدم فبشرها واعلمها بما جاء به من المنافع والطرائف وسالها ان تخرج فتتظر الى ما جاء به فخرجت فابصرت الابل تكاد قولتها تسوخ في الارض من ثقل احمالها فقالت يا قصير

ما للجمال مشيهاً وئيداً

اجندلاً يحملن ام حديداً

فلما توسطت الابل المدينة اناخوها وخرجت الرجال من الغرائر وصاحوا باهل المدينة ووضعوا فيهم السلاح ولم يتمكن الزياء من الهرب فمضت خائفاً بيدها وكان فيه السم وقالت بيدي لا بيد قصير فماتت وذلك بعد مبعث المسيح عليه السلام وإلى هذه القصة يشير المتلمس في قوله من قصيدة له

الم تر ان المرء رهن منية

صريع لعافي الطير او هو يرمسُ

فلا تقيلن ضياعاً مخافة ميتة

وموتن بها حرّاً وجلدك املسُ

فمن طلب الاوتار ما خرّ انفه

قصير وخاض الموت بالسيف بيهسُ

نعامة لما صرع القوم رهطه

تبين في اثوابه كيف يلبسُ

فقال الانكليزي اما قوله فمن طلب الاوتار ما خرّ انفه قصير

فقد فهم ما ذكر من حكاية الزباء واما قوله وخاض الموت بالسيف

بيهس الى اخره فالمرجوب بيان المراد منه

قال الشيخ نعامة لقب بيهس المذكور وهو بيهس بن خلف

بن هلال ابن غراب بن ظالم بن فزارة الفزاري وكان سابع سبعة

اخوة فاغار عليهم وهم في ابلهم ناس من اشجع كان بينهم وبينهم حرب

فقتلوا منهم ستة وبقي بيهس وهو اصغرهم وكان يوصف بالحمق

والبله فارادوا قتله ثم قالوا وما تريدون من قتل هذا بحسب

عليكم برجل ولا خير فيه فقال دعوني اتوصل معكم فلما كان من

الغد نزلوا فحزروا في يوم شديد الحر فقالوا اظللوا لحمكم

لا يفسد فقال بيهس (لكن بالاثلاث لحمًا لا يظلل) يريد اخوته

فذهبت مثلاً فلما قال ذلك قالوا انه لمنكر وهو ان يقتلوه ثم

تركوه وظلّلوا يشتوون من لحم الجزور وياكلون فقال احدهم ما

اطيب يومنا فقال بيهس (لكن على بلدح قوم عجفي) فارسلها مثلاً

ثم انشعب طريقهم فأتى أمه فأخبرها الخبر فقالت فما جاءني بك من بين أخوتك وكانت لا تحبه مثلهم لما يوصف به من الحمق فقال (لو خبرت لاخترت) فذهبت مثلاً يعني لو كان الاختيار لك لاخترت ان أموت ويبقى منهم واحد غيري لكن الأمر ليس باختيارك ثم ان أمه عطفت عليه ورقت فقال الناس احبته أمه فقال (ثكل أرامها ولداً) أي عطفها على ولد فارس لها مثلاً ثم ان أمه جعلت تعطيه ثياب اخوته فيلبسها فقال (يا حبذا التراث لولا الذلة) فسارت مثلاً ثم أتى على ذلك ما شاء الله تعالى ثم انه رأى نسوة من قوم يصلحن امرأة منهن يردن ان يهدينها الى بعض قتلة أخيه فجعل يبهس يلبس السراويل مكان القميص والقميص مكان السراويل وقيل كان يغطي رأسه ويكشف استه فقلن ما تصنع يا بهيس فقال

البس لكل حالة لبوسها

أما نعيمها وأما لبوسها

فارس لها مثلاً ثم انه أمر النساء من كنانة وغيرها فصنعن له طعاماً فجعل يأكل ويقول (حبذا كثرة الأيدي في غير طعام) فارس لها مثلاً فقالت أمه لا يطلب هذا بئراً أبداً فقال (لا تأمن الأحمق وفي يده سكين) فذهبت مثلاً ثم انه أخبر ان أناساً من أشجع في غار يشربون نبيذاً فانطلق لخال له يقال له أبو حنش

فقال هل لك في غار فيه ظباء لعلنا نصيب منها ويروى ' هل
 لك في غنمة باردة) فسارت مثلاً فانطلق بيهمس بخاله حتى اقامه
 على فم الغار ثم دفع ابا حنش في الغار فقال ضرباً ابا حنش فقال
 بعضهم ان ابا حنش لبطل فقال ابو حنش (مكره اخاك لا بطل)
 فارسلها مثلاً فقتلهم جميعاً فضرب به المثل في ادراك الثار فهذا
 حديث بيهمس وه يفهم قول المتلمس في الابيات المتقدمة
 نعمة لما صرّح التوم رهطه

تبين في اثوابه كيف يلبسُ



المسامرة الثالثة والستون

الرقيق

قال الانكليزي اذا نظر الانسان في احوال افريقية وما يفعله اهلها في ضرب الرق على بعضهم من غير نظر الى من يستحق الاسترقاق ومن لا يستحق وما يقاسيه فيها الارقاء من الذل والاهانة وما يكلفونه من الاعمال ادركه الاسف والرقعة على هولاء المساكين المستضعفين ومن قرا كتب السائحين الذين طافوا بتلك الارض علم ان تجارة الرقيق عامة في جميع جهات افريقية وفي كل سنة ينقل من اهلها الى جهات الامريكا وجزائر البحر المحيط وبلاد العرب والترك والعجم عدد كثير وقد اخذت هذه التجارة في الازدياد والسعة منذ استقل بها الاوروبيون وقد بلغ عدد الرقيق المنقول بمراكب الانكليز من سواحل ارض الذهب سنة ١٨٢٢ للميلاد

وهي سنة ١٢٢٨ للهجرة ستين الف راس وبمراكب الفلمنك عشرين
 ألفاً وبمراكب الدنبرقة والسويد والبرتغال نحو ثمانية عشر ألفاً فكان
 المجموع نحو ثمانين الف راس ما بين ذكر وانثى وهو امر
 جار من قديم الزمان الى الان وقد تعرض بعض الدول الغربية
 لمنعه وتشددوا في ذلك واقاموا الحرس والمفتشين لابطال تجارته
 ومنعه ومع ذلك فلم يمكن منعه بالكلفة ولم تزل تجارته جارية
 متداولة وان لم يكن اجراؤها في بعض المواضع او بعض الاحيان
 جهراً جرت خفية وسراً ولم يقطع ورودها من جهاته فان اهل
 تلك الجهات لفقرهم وتجردهم من المعارف وتوحشهم في الصحاري
 المتفرة والفيافي الموحشة واعتيادهم على استرقاق بعضهم واختطاف
 من عثروا به من جنسهم قد صار عندهم هذا الامر كالحيلة
 والطبيعة الثابتة ولهذا لم يترتب على منعه الاّ علوائياته والتدقيق
 في بيعه فلا يزول ذلك من طبعهم ولا يتحولون عنه الاّ اذا
 انتشرت فيهم العلوم الدينية والاداب التمدنية وتالفت قلوبهم
 وزالت الضغائن من بينهم وانّ ذلك وقد اتخذوه كالميراث عن
 اباائهم فقد مضى على سكان هذه الارض القرون العديدة والازمنة
 المديدة وهم على ذلك جيلاً بعد جيل وامة بعد امة نعم قد يقال
 ان فعلهم هذا اخف من غيره اذ لا يخفى ان توحشهم وجهلهم وجفاء
 طباعهم وكون ملوكهم وامرائهم وذوي الكلمة فيهم نشاوا مثلهم في
 حال الجهل والتوحش بمعزل عن الانسانية وحسن الاداب كل

ذلك موجب لقيام الحرب بينهم فاذا انتصر بعضهم على بعض فلا يخلو الحال من وقوع بعض المغلوبين اسرى في ايدي الغالبين فاذا لم يتصرفوا فيهم بالبيع ويتنفعوا باثمانهم قتلهم والبيع اخف من القتل اذ الرقيق اذا انتقل من بلاده خرج عن الحالة الاولى والطريقة الوحشية وربما اكتسب بحسن التربية علماً وعقلاً وصار بين الذين انتقل اليهم كانه واحد منهم فلو كان حال الرقيق عند جميع الناس على الصفة التي يقتضيها دين الاسلام من معاملته بالرفق والشفقة واللطف والرقعة لم يكن في الرق ضرر خصوصاً ان الرقيق ربما يناله العتق ويلتحق بسائر الاحرار فليس الكلام في هذا وإنما الذي يجب التنبيه له وشدة الاجتهاد في منعه هو ما يجلب على ايدي الاورباويين الى جزائر البحر المحيط والامريكا فان اهل تلك الجهات لا يفرقون بين الرقيق والدابة في سوء المعاملة فالرقيق والحيوان عندهم بمنزلة واحدة سواء بسواء فكم فرق بين معاملته في هذه الجهات ومعاملته عند اهل الجهات الاسلامية الذين يكون عندهم الرقيق بمنزلة الولد ويتخذون عنقه والاحسان اليه قرينة عند الله

وما يزيدنا اسفاً ان هذه الجهات يتعسر تمدنها جداً كما يعلم من كتب السائحين اذ لم يترتب على توطن بعض الاوروبيين في سواحل افريقية الغربية الى الان نتيجة حسنة لاسيا وهم هناك عرضة لامراض شتى بسبب التغيرات الجوية وكثرة الابخرة المتصاعدة من

الأرض خصوصاً في فصل الأمطار فلا يمكن أن تطول اقامتهم بها وقد اجرت الحكومة الانكليزية عدة تجارب علم منها ان من يموت من العسكر الاغراب في كل سنة قريب من النصف وهذا في السواحل التي امكن فيها الحصول على اللازم فما بالك بغيرها من الجهات المتباعدة التي لم يتيسر كشفها الى الان

فقال الشيخ ان تفاوت الناس في العقل وجودة النظر في صلاح الامة والقدرة على ضبط القوى الحيوانية الموجبة للبغي والعدوان اوجب استيلاء بعض الناس على بعض وسريان التهر فيما بينهم حتى نشأ من ذلك التميز باسم المحاكم والمحكوم والملوك وغاية الامر ان التهر اذا داخله العدل كان قهراً والذيداً وضعف الشعور به ولم تكن الانفس شديدة الالباء منه لحقاء الذل فيه ولم يكن لشريعة من الشرائع ان تبطل ذلك الامر وتبعث على اهلاكه لما في تركه من الفساد العظيم وكان الاسترقاق فرعاً من فروع ذلك الاصل فمن شريعة ابراهيم عليه السلام ضرب الرق على السارق ولم ينزل هذا الامر فيما بين الناس حتى جاء الاسلام فكان الطريق الى الاسترقاق واحداً وذلك ان الاسلام شريعة نامة والدعوة اليه عامة لانه يدور امره على عموم الامن والسلامة في جميع الارض فان امثل الناس بسبب مغرفة الصواب والخير الذي يدعو اليه الاسلام فذلك ما اريد والا هينوا وقهروا حتى يحصل مقصود الاسلام فكان استعمال السيف لحسم القتل وتسهيل

اخلاط الناس بعضهم ببعض واشتراكم في تحصيل المنافع وانطلاق
 افكارهم في ذلك فسبب الاسترقاق حرب المعاندين الذين همهم
 الافساد ودأبهم العناد وليس مخصوصاً بامة دون امة بل متى
 استخفت امة من الامم المحاربة والضرب حتى ترجع الى حد الاعتدال
 كان كل من اسر منهم في الرق وكانت ذريتهم ايضاً ارقاء تحت
 ايدي المسلمين وربما كان ذلك سبباً لتاديب قوم آخرين فان
 سبي الذرية والنساء اشد على الانفس من القتل فالاسترقاق
 طرف من الاهانة المتصود بها تادب الناس ومشيم تحت قوانين
 جامعة وامامتعله الامم السودانية فتلك عادة جاهلية بهيمية الاعتماد
 فيها على القوة والتسلط كما هو شان بعض الحيوانات والغرض لم
 من ذلك حظ الانفس واستفراغ الوسع في الشهوات والاستئثار
 باسم السيادة ومثل ذلك يجب على الناس منعه والاهتمام بالكف
 عنه وبالاطلاع على معاملة النبي صلى الله عليه وسلم للارقاء وما
 امر به في حقهم وشدد فيه يعلم ان الاسترقاق على ذلك الوجه من
 الامور المستحسنة في العقول فقد قال عليه الصلوة والسلام ابعاداً
 وتحاشياً عن ادخال الانكسار على انفس الارقاء (لا يقول احدكم
 عبدي وأمتي ولا يقول المملوك ربي وربتي وليقل المالك فتاي
 وفتائي وليقل المملوك سيدي وسيدي فانكم المملوكون والرب الله عز
 وجل) وقد استوجب استحكام الطيش والغباوة في طباع السودان
 فشوارق فيهم وظهور الاستيلاء عليهم حيث ابعدوا باعمالهم بينهم

عن التميزات الانسانية ألا ترى ان من تعقل منهم وظهرت عليه
اثار النجابة كيف بلغ به نصيبه من ذلك الدرجة التي يستحقها
هذا الشاعر المشهور بعبد بني الحساس رفعه علمه وشعره حتى
قيل فيه

اشعار عبد بني الحساس قمن له

يوم الفجار مقام الاصل والنسب

وهذا نصيب احد شعراء بني امية قد بلغ بعلمه وشعره درجة
عظيمة يحكى انه دخل مصر في رحلة من رحله وهو على هيئة جميلة
وشارة عليه في ملابسه وركابه واتباعه فاطاف به السودان فرحين
مسرورين برويته فقال اسررتكم قالوا نعم فقال ما يسوءكم من اهل
جلدتكم اكثر وهذا الاستاذ كافور الاخشيدي تولى نيابة ملك
مصر وكان في التدبير والرزانة وعمل الخير غاية . يحكى انه طرب
يوماً من السماع فحرك كتفه واستشعر النقص في ذلك فاتخذ تحريك
كتفه عادة يعاودها الوقت بعد الوقت من ذلك الحين الى ان
مات يوماً من يراه ان ذلك لعل اصابته وكان في ليلة العيد يخرج
بعد المغرب ويجلس على سلم الركوب ويبعث الناس بالعطايا الى
منازل عرف احتياج اهلها بالبحث والتفتيش السري ويستقبل
الاوراق التي يكتب فيها الوصول ويبقى كذلك حتى يركب الى
صلاة العيد وبمجموع ذلك يبين ان خروج الشيء عن الحسن
سببه مجاوزة الحد الذي له

فقال يعقوب هذا هو الانصاف والحق وقد قدر السائحون في ارض افريقية مقدار من يوجد بها من الارقا على وجه التقريب فوجد ان الاحرار على قدر الثلث من الارقا وليست معاملة جميع الارقا على حد واحد فان معاملة السيد للعبد المولود عنده الطف وارفق من معاملته للعبد المشتري بالثمن واذا اراد السيد بيعه لزمه المرافعة معه على يد قاضي الجهة ليثبت جنايته ثم يبيعه ويباح للسيد في زمن القحط بيع عبد وجملة من عبيده لمشتري لوازم مؤنته وان كان مديوناً ولم يكن في امكانه دفع الدين تؤخذ عبيده في دينه وللأحرار على العبيد في الحرب مزية وهي ان الأحرار تكون أكثر سلاحاً واحسن خيلاً فيتأذى لهم بذلك اغتنام الفرصة في حالتي النجاح والهزيمة بخلاف العبيد فانهم في الغالب مكلفون بحمل الذخيرة ولم يكن لهم سلاح غير الحربة والنشاب ولهذا تجدهم يقعون في قبضة الغالب مع السهولة بحيث لو نسبنا من يضبط من الأحرار في الحرب الى من يضبط من العبيد لكان كنسبة واحد الى خمسة عشر واذا ضبط احد الأحرار افتدته اصحابه او عائلته بخلاف العبد فلا مخلص له وتجار الرقيق تفضل من تربى في الرق على غيره وترجحه عليه في الثمن بخلاف من كان حراً وطراً عليه الرق في عهد قريب لانه الاول اعتاد المشقة والتعب والصبر على الجوع والعطش بخلاف الثاني فانه كان في رفاهية بالنسبة للاول فلا قدرة له على السفر الطويل في الجبال والادوية وتجار الرقيق من

الاوروبيين وغيرهم من القسوة والجفاء ما يضرب به المثل فتراه اذا مرض رفيق لم مرضاً اوجب عدم بيعه او تقدم في السن لا ينتظرونه حتى يقضي الله عليه بل يقتلونه فان وقعت في يدهم جارية ذات اولاد رموا باولادها الى الوحوش تتخلى الام من الرضاع وبييعوها واسباب الاسترقاق عندهم في العادة هي الحرب والتحط وسداد الدين والجنايات ومن عاداتهم ان الرجل الحر ان اسر في الحرب صار رقيقاً وهناك نوعان من الحرب عند الافريقيين الاول يكون بعد الاعلان من الطرفين قبل الخروج وربما كان من غير سبب موجب له ومن اول وقعة ينتهي بينهم النزاع والغالب منها يضبط ما قدر عليه من المغلوبين وبيعه فان كان في الاسرى ضعيف او مريض او ذو عيب قتلوه في الحال حتى لا يتحملوا مؤنته وكذلك يفعلون بالروساء ومن كان سبياً في هيجان الفتنة ومن يخشى باسهم وفي مثل هذه الوقعات لا يكون عدد القتلى كثيراً لانه متى علم احد الفريقين انه مغلوب انتقاد لقرينه او فر منه ولهذا ترى البلد التي تخرب بمثل هذه الوقعة وان انهدمت بيوتها عن قريب تعمرو تعود الى احسن مما كانت عليه من اول الامر وايضاً فان غاية امنية الغالب الاستحواذ على جملة من الاسرى لاجل بيعها واخذ ثمنها فلا حاجة له في طول زمن الحرب وكثرة القتلى النوع الثاني يكون خفية لاسباب واهية تقع بين القبائل كشقاق ومنازعة في شي من الاشياء ربما كان واهياً فتجتمع القبيلة العادية

بجملها ورجلها بعد جمع حاصلات الزراعة وتسير خفية الى ان تحل
بساحة القبيلة التي تريد غزوها فتحمل عليها ليلاً علي حين غفلة
حملة واحدة فاذا انهزمت اخذت القبيلة الغالبة ما قدرت عليه
سواء كان رجالا او نساء كبارا او اطفالا لا يميزون بين شريف
ووضيع وكبير ورضيع ومن حيثئذ يصير الغالب سيدا والمغلوب
عبدا ولم يكن لهم في ذلك قانون يتبع الا مجرد الشهوة والطمع ومن
وقع في يده واحد منهم فهو مخير فيه بين ان يقيه لخدمته وبين
ان يبيعه فمن ظهر عليه علامات الامتثال والانقياد ابقاه ومن توسم
فيه علامات النفور والنزجر من الخدمة باعه في بلاد بعيدة ومن
هنا يعلم ان اقوى الاسباب لاتساع دائرة الاسترقاق انما هو الحرب
وان كان له اسباب اخرى كالتحط والجوع وحلول المصائب
والجنايات وحب التسلط على بلاد الغير والاستيلاء عليها

وغالب اسلحتهم على الهيئة القديمة كالقوس والنشاب والنبال
والحراب واما الاسلحة النارية فلا توجد فيهم الا عند سكان
السواحل المختلطين بتجار الاوروبيين وعندهم شي كالبلطة يخرجون
به عند ارادة الحرب يعتقدون انه حرز لهم فيحترمونهم ولا يحلفون
به كذبا وعادتهم عند الحرب ان يتستروا بمجلود بعض حيوانات
كالنمر والسباع ونحوها او بمجلود زرقاء او بيضاء

وذخيرتهم اذا ارادوا السفر للحرب او غيره قليل من الدقيق
ياخذونه معهم وثارة لا ياخذون شيئا ويعتمدون على ما يجذونه

في طريقهم من الاعشاب والبقول وما يصطادونه من الحيوانات البرية والبحرية وما ينهبونه من البلاد التي يبرون بها ولا يستصحبون في سفرهم خياماً بل لا وجود لها عندهم فاذا اضطرتهم كثرة الامطار الى الاستتار صنعوا لهم زراي من اغصان الاشجار وقد يكون لبعض امرائهم شمسيات تسع الواحدة نحو عشرين نفساً وقد يقع في بعض جهات السواحل مناوشات بحرية لاجل استيلاء بعضهم على ما في مراكب البعض او لامور اخرى ولمارتهم وتمرنهم على السباحة في البحر تكون محاربتهم فيه من اعجب ما يرى ومن عاداتهم ان الفرقة الغالبة تعامل المغلوبين بانواع من التعذيب لا تقتصر فيها على فعلها بالاحياء بل تفعله ايضاً برم القتلى كأن ياخذ القاتل فك المقتول معتقداً ان في ذلك طول عذابه او يقطعه قطعاً يرمي بها الى الوحوش وربما يضربون الطبول على رمة المقتول يزعمون ان في ذلك ازعاجه وسلب راحته ومن عاداتهم عند الخروج الى الحرب ان ياخذ كل واحد منهم قطعة ذهب او صورة وجه انسان او وجه حيوان او زبل حيوان يشابه الخنزير يرون ان استصحاب ذلك معهم ناصر لهم على اعدائهم وليس لهم في الحرب قانون متظم بل حربهم مع بعضهم هجوم وحملات وقتية تنقضي في زمن يسير واذا اطلقوا بنادقهم اخفى كل منهم خلف اي شي يصادفه حتى يعم بندقيته ويعود ثانياً والهجوم دفعة واحدة نادر بينهم جداً ومن عاداتهم وقت الحرب ان لا ينظروا لتبليهم حين

يتبع على الأرض ميتاً ويقولون ان مع كل قتيل ملكاً فيخافون لو
نظروا له ان يجذبهم فيموتوا مثله ولهذا متى اطلق احد منهم بندقيته
انكب على الأرض او ادبر او اخفى بمعنى انهم لا يستقرون على
حالتهم التي كانوا عليها وقت الضرب

فقال الشيخ كثيراً ما كنت اسمع وانا بمصر من يائي بالرفيق
ومن سبق لم الإقامة بذلك القطار انه يوجد بتلك النواحي كثير
من الناس يشتغلون بالسحر وما ذكرته من استصحابهم لتلك الصور
في حربهم يدل على اشتغالهم بهذا الامر

المسامرة الرابعة والمنتون
السودان بافريقيا

فقال يعقوب جميع طائفة السودان بتلك الافطار في جهل
عظيم لا علم لهم بشيء ولا وقوف لهم على حقيقة وإنما عندهم بعض
عادات وعقائد فاسدة اخذوها عن سبهم خلفاً عن سلف ولم
شغف بكل ما يجدونه من عادات بلادهم كل على حسب بقعته
التي ولد بها طبيعة نشأوا عليها فهم متمسكون بها لا يتحولون عنها
ومن هذا القبيل ما يدعون من السحر فهو عبارة عن اوهام كاذبة
بدعيها اشخاص معروفون بها عندهم يدخلونها على عقول العامة
وغيرهم بما يوهون به من اقوال واهية وحكايات مخترعة تسير بين
الناس بما ينضم اليها من المبالغات والتهويلات فتزيد بذلك
شهرتهم وثروتهم واهل جهات اكازا يقولون بوجود الخالق سبحانه

وتعالى ويعتقدون ان جميع افعاله انما تكون بواسطة الملائكة ويقولون ان الله سبحانه وتعالى وملائكته يظهرون لهم في الرعد والبرق والصواعق لتخويفهم ويقولون بان الشيطان من الملائكة وانه اقوام ويتضرعون للتمر بعض ادعية يتوجهون بها اليه وان كانوا لا يقولون بعبادة الكواكب وفي الليلة الرابعة عشرة من كل شهر يكثر الشرب والرقص وضرب الطبول

ويعترفون بالآخرة ولكن لا يعرفون الجنة ولا النار وانما يزعمون ان جميع مستلذات الانسان في الدنيا تكون له في الآخرة فاهل الشجاعة والثروة واليسار في الدنيا هم عندهم اهل النعيم في الآخرة اما العبيد فلا سعادة لهم الا اذا التحقوا بسادتهم للنعيم في نعيمهم ولهذا الاعتقاد يدفنون مع اغنيائهم نفائس اموالهم من ذهب وقماش ونحو ذلك ويعتقدون ان الميت يهدي بعض ما يدفن معه الى عبوز موكلة بنهر لا بد لكل احد ان يعبره بعد الموت ومن عاداتهم انهم لا يدفنون ميتهم الا بعد اربعة عشر ساعة من موته يساله فيها اقاربه واحبابه واحدا بعد واحد عن سبب موته وفراقه لاهله ونحو ذلك فاذا ادلوه في حفرته اجتمع احبابه واقاربه والقوا عليه التراب لاعتقادهم انهم ان لم يفعلوا به ذلك رجع الميت الى اهله وآثارهم ومن عاداتهم ايضا انهم يدفنون في بيوتهم من يعز عليهم فراقه ويضعون بجانبه وعلى قبره بعض مأكولات ومن قبيح معتقداتهم انهم لا يجب عليهم العدل والانصاف الا لابناء جنسهم

دون غيرهم فيستبيحون اسر الاغراب وقتلهم وبيعهم واخذ ما لهم ويقولون ان كل ما يلقيه البحر بالساحل حق لهم لا يشاركهم فيه غيرهم وانه مرسل منه اليهم فلذلك تراهم يخصونه بنوع عبادة واهل هذه الجهات يقدرون الزمن بتغير القمر ويعدون السنين بتجدد الفصول ولا يحفظون التواريخ وكلمهم يجهلون مقدار ما مضى من اعمارهم وانما يحفظون بعض الحوادث العظيمة ويتعادثون فيها فاذا ذكروا امرا وارادوا ان يعينوا له وقتا ارخوه بمجادة منها فيقولون كان كذا عام حادثة كذا وفي طبيعهم الميل الى التغني سواء كانوا في حالة سرور او حزن ولا اعتقادهم ان السعادة المعتبرة انما تكون في الآخرة تراهم لا يميزعون من الموت ولا يخافون وانما يخافون من المرض والالم فان عرض لهم مرض تخلصوا منه بقتلهم لانفسهم ويعدون من فعل ذلك بنفسه من اشراقهم والمعتبرين فيما بينهم وربما افردوه وحده بقبر مخصوص يضعون معه ما كل كثيرة مما كان يحبه في دار الدنيا لا اعتقادهم انه لم يستوف زاده منها ومن عاداتهم اذا امر احد اعيانهم عبدا من الاهلين بامر خطر قال له العبد افعل و عليك الضمان يعني بذلك انه ان مات كان على الامر ان يعطي اهله دينه وهي ثمن عبد يدفعه لهم وجميع هذه الامة تقول بان ارواح الاموات تتشكل في صور مختلفة وتظهر للاحياء اما لتخويفهم او لموانستهم وقد بلغني ان رجلا اوروبيا كان له جارية مات فادعت انها رأتة بعد موته يعنفها ويلومها فمضت من شدة خوفها وادعى

اهل الميت انهم سمعوه وهو يتكلم معها فغلب الوهم عليها فاشتد مرضها حتى ماتت

ومشائهم يوافقونهم على ذلك ويصدقونه ويقولون لهم ان الشيطان والملائكة تظهر بين العالم في صورة الادميين او البهائم او غير ذلك ولهذا تراه على جهلهم يعظمون بعض البرك والانهار والجبال والصخور والغابات والاشجار وبيوت النمل وبعض الاحجار المنفردة عن غيرها وما اشبه ذلك ويحترمونها احتراماً عظيماً كاحترام غيرهم من الامم لمقامات الاولياء والصالحين ويعمل لهم مشائهم تمايم وتعويذات على اشكال هذه الصور بقصد الحفظ من الامراض والعايات وتأخذ منهم في مقابلتها جعلاً عظيماً وفي تلك النواحي بلاد لا يظهر اهلها للشمس مطلقاً ولا يمشون الا بالليل ومنهم من يعيش طول عمره في البلدة التي ولد بها ولا يفارقها واهل تلك الارض لا يفرقون بين دين وآخر وكل الاديان عندهم على حد سواء وللشيوخ عندهم احترام عظيم ومحلات معتقدتهم معظمة فيما بينهم لا يدخلها غيرهم ولم طرق لا يسلكها الا اولياؤهم يميزونها باوتاد يدقونها وبعض آنية يضعونها على جانبي الطريق فاذا راوا ذلك تحاموا المرور منه وسلكوا طريقاً بعيداً عنه

واما العادة في الزواج عندهم فمختلفة باختلاف الجهات ففي جهة (اكارا) تخطب البنت من ابوها وامها فاذا اتفق الزوج معها زفت الى زوجها من غير نظر الى رضاها وعدمه ومن حين

الزواج تصير الزوجة في ملك الزوج وتصرفه فله بيعها اذا اراد وتاديبها اذا اساءت وقتلها اذا زنت وللزوج في (اكارا) على من زنى بزوجه عبد واحد وفي غيرها من الجهات عبدان الى سبعة فاكثر وفي بعض الجهات اربعة ريات وفي بعضها اثنا عشر وفي بعضها لا حد لذلك بل المدار على ما تطيب به نفس الزوج فان كان الزاني معسراً فللزوج بيعه واخذ ثمنه هذا كله اذا لم تشتهر الزوجة بالزنا فان اشتهرت به وعلم بها زوجها فلا وجه له على الزاني ولا لوم عندهم على مصاحبة الذكور للانات غير المحظايا ومن عادات اهل (اكارا) ان بنت الغني منهم اذا ارادت ان تتزوج بحيث تبقى على حريتها ولا تكون في اسر الزوج فعلت ما يقال له زواج الحائط وذلك ان تجري الافراح وسائر رسوم الزواج كأنها طلبت للزواج بالفعل ومن ذلك الوقت يكون لها ان تعاشر من تشاء وتستبدله بغيره في اي وقت تريد وتكفل بنربية ما يكون لها من الاولاد وهذا كثيراً ما يحصل في جهات (اكارا) وهناك عادة اخرى في غيرها وهي ان تجتمع الشواب والشبان بشاطى البحر وينزعون ثيابهم وينزلون في البحر مختلطين مع بعضهم فمن اعجبه صاحبه خطبه

وعندهم لا يمتنع تزويج الذكر بابي انثى الا اذا كانت اخنا الا انهم يحقرون المرأة العاقرة ويحترمون الولود خصوصاً اذا كانت تلد ذكوراً ومن كثرت اولادها يعمل لها زفاف عظيم ويكون لها

عندهم مزيد اجلال وتكريم

ومن الغريب انهم اذا ماتت المرأة وهي حامل لا تدفن بل يرمى بها للطير والوحوش بخلاف التي تموت حين الولادة او بعدها فانها تدفن ومن اوهاهم ان روح الولد الذي يموت تنتقل الى جثة اخيه الذي تلده بعده امه فاذا لم يميت المولود وبلغ اوان الحلم اجتمعوا وعملوا له فرحاً ومهرجاً فان كان الولد ذكراً اظهر للناس ما عنده من القوة والشجاعة وان كانت انثى تزين وتجهل وتلبس احسن ما عندها ثم تقوم وترقص بينهم وتبدي زينتها وجمالها وبراعتها في الرقص

وهناك قوم على ساحل نهر السيستوس على بعد اربعين فرسخاً من راس (ميزورادو)

ومن عاداتهم انهم اذا مات الزوج دفنوا معه زوجته كما اخبر بذلك احد السائحين قال في اثناء عبارة له ان تعدد الزوجات بهذه الجهة غير ممنوع بل المدار عندهم على اتفاقهم على المهر ان كانت المخطوبة حرة او القيمة ان كانت أمة فتمت اتفقوا على ذلك اخذ الزوج زوجته وذهب بها الى نسائه فتخلط بهن وتشرب الخمر معهن ويقمن جميعاً بتهيئة الوليمة وبعد الدخول بها اول ليلة تكون مع سائر نسائه في خدمة المنزل ومن عاداتهم ان من تلد من الزوجات اولاً تكون هي المحترمة والمقدمة عليهن والمتكلمة في المنزل الا ان هذا التقدم لا يثمر لها الا التندم لانها هي التي تدفن

مع زوجها لومات في حياتها

قال وقد حضرت جنازة لرجل مات في قرية من القرى
وكان شيخ القرية فلما مات ارتفع الصباح من جميع من في البيت
من النساء فاجتمع اليهن نساء البلد ورفعن اصواتهن مثلن فكان
جزع الحظية من بينهن اعظم وصوتها اعلى من اصوات جميع من
في المأتم فكان بالضرورة بكاءؤها في ذلك الوقت على نفسها لاعلى
بعلمها لعلمها انها هي التي ستدفن معه وكان باقي النساء وقتئذ مع
بكائهن وصياحن مجنوعات حولها ينظرن اليها من طرف خفي
حذراً من فرارها وقد اتفق ان بعض الحظايا في مثل هذه الحال
هربت وتخلصت من الدفن مع زوجها فكن محذقات بها لكيلا
تتمكن من الهرب وهن مع ذلك يظهرن الاسف على فقدها والتوجع
لمصابها ثم ان اقارب الميت حضروا فعزوها في بعلمها وودعوها
وداع الموتى وبعد ذلك أتى رجل في هيئة فقيه ومعه بعض اتباعه
فوضع يده على الميت كما يفعل الحكماء وقال ان موته طبيعي لا
سبب له سوى انقضاء اجله ثم غسله ودهن جسمه بدهن معروف
لم يدهنون به موتاهم ثم انه بعد ان دهنه من راسه الى قدمه حوله
من مكانه الى حصير مفروش في وسط المنزل والناس حوله
ينظرون اليه وحضر النساء فاحطن به وكانت الحظية عند راسه
وجميع النساء ناشرات شعورهن بنحن ويصحن ويضربن وجوههن
وصدورهن ويقطعن شعورهن وكن في بعض الاحيان يسكنن ثم

يعدن لما كنّ عليه وكان بينهن جماعة منهن يندبن الميت ويذكرن فضائله فاستمر الحال على ذلك نحو ساعين وإذا بعبدین قویین حضرا فاحتملا الميت وربطاه على خشبات من فروع الشجر وطافا به نواحي القرية مع الهرولة والسرعة في بكاء ونحيب وحركات متنوعة واصوات مفزعة غطت على كل صوت في البلد حتى صار لا يسمع غيرها ثم انصرفوا به ليدفنوه فلما وصلوا الى المقابر وضعوه على الارض وارتفع الصوت بالنحيب والبكاء من جميع النساء ثم بين فقيهم موضع التربة فاحفروها واسعة على قدر اثنين ثم اتى بعزف ذبحها وسلخها وقطعها بيده ثم اعطاهم امعاءها واطرافها فطبخوها واكل منها مع بعض من حضروا واعطى الحظية شيئا منها واما ما بقي من اللحم فقطعه قطعاً صغيرة وفرق منه بيده على جميع الحاضرين وابتقى منه بقية والصباح في كل ذلك مرتفع والبكاء لا ينقطع فلما اكلوا قام ذلك الفقيه الى تلك الحظية وقبض على يدها وسلمها الى اثنين من العبيد فاوثقوا يديها وجعلوها خلفها وطرحوها على الارض على ظهرها ووضعوا على قلبها خشبة وقعدوا فوقها وصار كل منهم يركب على الآخر حتى تهشمت عظامها ثم رموا بها في القبر ووضعوا زوجها فوقها ثم اتوا له بما بقي من اللحم فوضعوه بجانبها ثم اهلوا التراب عليها وعند ذلك اتقطع البكاء والنحيب وتوجه كل منهم الى منزله على العادة كأن لم يحصل شيء وكل سكان هذه البقاع من غير استثناء مغرمون بشرب

المسكر وحب النساء فيصرفون في ذلك معظم اوقاتهم ولو ترتب عليه نقص في اوقاتهم

ومن العادات الجارية في بعض الجهات ان الزوج قبل اجتماعه بزوجه يبعث اليها بثلاث هدايا واحدة فواحدة الاولى من خرز مصنوع من زجاج ونحوه والثانية من جنس ما يلبس والثالثة صندوق تضع فيه امتعتها وكذلك اهل الزوجة يهدون الى الزوج عبيدين فاكثر على حسب الثروة واليسار وكذلك يرسلون له كسوة تليق به وسيفاً بمجائله وبعض سهام وشيئاً من ارز ونحوه

وطريقتهم في تربية اولادهم ان تربية الذكور على الاباء والاناث على الامهات ولا مزية للبكر عندهم على غيرها في الزواج واذا حملت المرأة وعلم بها الزوج لا يقربها حتى تلد ويصنع للمولود ما سذكروه وهوانه اذا كان المولود ذكراً جمع ابوه عائلته وخدمه بعد مضي يومين من ولادته واخذوا نبالم وقسمهم ورماحهم وعصيم ودارهم في البلد مظهرين الفرح والطرب مكثرين من الغنا والرقص والطبل والزمر فيجتمع عليه احبابه واصحابه ومعهم آلات الطرب من الطبول والمزامير والنقالات وغيرها فيجتمعون في ميدان واسع وعند ذلك يخرج رجل من بينهم كالخطيب فياخذ الولد من امه ويضعه على ترس بين الحاضرين ويضع في يده قوساً او نشاباً او نحو ذلك ثم يخطب خطبتين يذكر في الاولى سبب اجتماعهم ثم يلتفت نحو المولود مخاطباً له بالخطبة الثانية ويدعو له بطول العمر

وحسن الحال والغلبة على الامثال والتوسعة في الرزق والمال وان يكون خلفاً ساعياً مساعياً ابيه محباً للخير مانعاً عن نفسه الضيم والضير معمرًا لداره ممدوحاً في اثاره وان تكون نفسه عفيفة وهمة عالية شريفة ونحو ذلك مما يناسب المقام ثم يسميه ويعطيه لامة او ابيه وينصرف الحاضرون بعد ذلك وان كان المولود انثى عمل لها ايضاً مثل ذلك ولكن يضعها الخطيب على حصير بدل الترس الذي يوضع فيه الولد ويعطيها عصا بدل النشاب ويدعو لها بان تكون حافظة لعرضها امينة على متاع زوجها ماهرة في طبخها وخبزها مقدمة عند زوجها على باقي نسائه معينة له في اشغاله واعماله ونحو ذلك

ومن عادات الكوجاش ان الرجل اذا مات ورثه اولاده الذكور في جميع مختلفاته من نساء ومال فان مات الرجل ولا ذرية له من الذكور كان الوارث له اكبر اخوته فان خشي الفقر على بقية اولاده اعطى لهم في حياته بعض ماله كل على حسبه فان مات ولا وارث له من اولاده واخوته الذكور وله ذرية من البنات كان ميراثه لأكبر اولاد اخيه من الذكور فان مات ولا وارث له من ذكر كان الوارث الحاكم فينثذ يلزمه تربية بنات الميت وفي جنازتهم ودفنهم لموتاهم وتجهيزهم لهم عادة فظيعة يحافظون عليها ولا يتحولون عنها ذلك انهم بعد ان يغسلوا ميتهم يلبسونه احسن ثيابه وسلاحه ويسندونه الى شي حتى يستوي قائماً على قدميه ثم

المسامرة الخامسة والستون

العرب الجاهلية

فقال الشيخ منشأ هذه العادات القبيحة وامثالها انما يكون من
الجهالة فلا يزيلها الا حسن التعليم وانتشار المعارف بين الامة وقد
كان لامة العرب في الجاهلية كثير من امثال هذه العادات والاهام
فزالت بما انتشر بينهم من شريعة الاسلام ببعثة محمد عليه الصلاة
والسلام

فمن عادات العرب في الجاهلية انهم كانوا اذا مات واحد منهم
عقلوا ناقته عند قبره وشدوا عينها حتى تموت يزعمون انه اذا بعث
من قبره ركبها

ومنها انهم كانوا اذا اصاب ناقه احدثهم داء العرّ كوى الناقة
السليمة يظنون ان ذلك يهري المعية

ومنها انهم كانوا يضربون الثور اذا امتنعت البقر من الشرب
يزعمون ان الجن تركبه فتصد البقر عن شرب الماء

ومنها الهامة كانوا يزعمون ان الانسان اذا قتل ولم يؤخذ
بثاره يخرج من راسه طائر يسمى الهامة فلا يزال يصيح على قبره
اسقوني اسقوني الى ان يؤخذ بثاره

وكان لهم في النفس مذاهب فمنهم من زعم انها الدم وان الروح
هو الهواء الذي في باطن جسم الانسان

ومنهم من زعم ان النفس طائر ينشط من جسم الانسان اذا
مات او قتل ولا يزال يصرخ على قبره مستوحشاً له وفي ذلك
يقول شاعرهم

سلط الموت والمنون عليهم * فلم في صدى المقابر هام
وقال ان هذا الطائر يكبر حتى يكون كالبيوم واكثر ما يوجد
في الديار المعطلة والنواويس ومصارع القتلى حتى قالوا ان الهامة
لا تزال عند ولد الميت لتعلم ما يكون من خبره فتخبر الميت
ومنها الصفر يزعمون ان الانسان اذا جاع عض شرسوفه
الصفر وهو حية تكون في البطن

ومنها ثنية الضربة يزعمون ان الحية تموت لاول ضربة فاذا
ثبتت الضربة عاشت ونحو ذلك من الاوهام الفاسدة والاراء
الكاسدة فلما جاء الاسلام وبعث محمد عليه الصلاة والسلام هجر
العمل بذلك كله وبطل القول به من اصله

ومنها انهم اذا اجدبوا بسبب انحباس المطر عنهم وارادوا
 طلب السقيا من الله جمعوا حزمًا من النباتات التي ييسر كالسَّلْع
 والعُشُر وربطوها باذنان البقر واوقدوا فيها النار واصعدوها في
 الجبال وفرقوا بينها وبين اولادها حتى يكون ضجيج عظيم ومناظر
 هائلة يستجلبون بذلك رحمة الله واستمر ذلك فيهم الى ان تنبه
 كثير اقمج تلك العادة وسماجة ذلك التوسل وكثرت الاشعار فيه
 فمنها قول بعضهم

شفعنا بيقور الى هاطل الحيا

فلم يغن عنا ذاك بل زادنا جدبا
 فعدنا الى رب الحيا فاجارنا
 وصير جذب الارض من عنده خصبا
 ومنها قول شاعر اخر

لا در در رجال خاب سعيهم
 يستمطرون لدى الاعسار بالعشر
 اجاعل انت بيقورا مسلعة

وزيعة لك بين الله والمطر

قال عبد الحميد بن ابي الحديد في شرح نهج البلاغة عند
 ذكر بعض المذاهب التي كانت عليها العرب قال بعض الازكياء
 كل امة قد اتخذوا في مذاهبها مذاهب ملة اخرى وقد كانت الهند
 تزعم ان البقر ملائكة سخط الله عليها فجعلها في الارض وان لها

عنده حرمة وكانوا يلطخون الابدان باخائها ويغسلون الوجوه
ببولها ويجعلونها مهور نسائم ويتبركون بها في جميع احوالهم فلعل
اوائل العرب حذوا هذا الحذو واتهجوا هذا المسلك

وكان البقر عند قدماء المصريين ايضاً على نحو من هذه
المثابة ومن عادات جاهلية العرب ان الانسان اذا لدغه لادغ
علقوا عليه حلياً وكانوا يعتقدون انه اذا علق عليه حلي الذهب
برىء واذا علق عليه حلي الرصاص مات وكانت طائفة اخرى
منهم تعتقد ان تعليق الحلي على اللديغ لاجل ان يسهر ولا ينام
بسبب قعقعته وكانوا يرون انه اذا نام سرى فيه السم فمات واذا
لم ينم سلم وقيل لبعض العرب أ يكون تعليق الحلي سبباً للسهر
فقال لا ولكنها سنة توارثناها عن اوائلنا ومن خيالهم ان الرجل
اذا بلغت ابله الفأ فقأ عين الفحل كانه يجترز بذلك من اصابة
العين لما له قال شاعرهم في الافتخار بالغناء والتعبير بالفقر مكنياً
بذلك

فقأنا عيوناً من فحول بهازر.

وانتم رعي البهم اولى واجدر

والبهازر الجمال العظام والبهم الغنم الصغار

ومن خرافاتهم انهم اذا ارادوا ان يدخلوا قرية لطلب الميرة
وخافوا وخامتها واصابة وبائها وقولوا خارجها ونهقوا نهيق الحمير
وعلق كل منهم كعب ارنب عوذة وقيمة ويسمون هذا النهيق

تعشيراً واتفق لعروة بن الورد الشجاع المشهور احد صعاليك
العرب المضروب بهم المثل في الشدة والجرأة انه خرج في رفقة الى
خير يمتارون فلما دنوا منها نهقوا على عاداتهم فانف عروة من
ذلك وقال

لعمري لئن عشت من خيفة الردى

نهاق حمير انني لجزوعُ
فلا وألت تلك النفوس ولا اتوا
قفولاً الى الاوطان وهي جميعُ
وقالوا الا انهق لا تصرف خيرُ

وذلك من فعل اليهود ولوعُ
فتصادف ان عروة رجع لاهله سالماً غانماً لم تشكه شائكة
وجميع من كان معه وعشروا كانوا بين موتى ومرضى ومنها ان
الرجل اذا كان مسافراً فاخطأ الطريق قلب ثيابه وصفق بيديه
وحركما كانه يومئ الى انسان يرى انه يهتدي بذلك الى الطريق
قال اعرابي

قلبت ثيابي والظنون تجول بي

وترمي برجلي نحو كل سبيلٍ

فلا يابلاي ما تعرفت جليتي

وابصرت قصداً لم يصب بدليلٍ

ومنها اعتقادهم ان المقلاة وهي التي لا يعيش لها ولد اذا تحظت

الشريف الذي قتل غدرًا سبع مرات وطافت حوله عاشت
اولادها قال الشاعر

تظل مقالبت النساء يطانة

يقلن الا يلقي على المرء مئزر

ومنها ان الصبي اذا نزع اسنانه وان تبديلها رمى بها الى
الشمس وقال ياشمس ابدليني بها احسن منها وذكرته الشعراء في
اشعارها من ذلك قول طرفة

بدلته الشمس من منبتها * بردا ابيض مصقول الاشر

ومنها اعتقادهم ان دماء الملوك والاشراف اذا شربها من عضه
الكلب برى من داء الكلب قال الشاعر يمدح قومًا من الاشراف
احلامكم لسقام الجهل شافية * كما دماؤكم تشفي من الكلب
والكلاب تعثرها حالة هياجية كالجنون فلا تاكل ولا

تشرب فتصير ضئيلة هزيلة سريعة العدو جداً فاذا لقيت في
طريقها حيوانا انسانا او غيره عضته والغالب انه يموت المعضوض
ومن خرافاتهم انهم اذا خافوا على الشخص مس الجن واستهواهم
ايه نجسوه وعلقوا عليه شيئا من الاقدار وعظام الموتى وخرق الحيز
قالوا ينفع التخييس الا من العشق ومن مذاهبهم انه اذا طرف انسان
عين الاخر مسح عليها سبعا لذهاب الالم يقول في الاولى احدى
من سبع جاءت من المدينة وفي الثانية اثنتان من سبع جاءت من
المدينة وهكذا الى ان يقول سبع من سبع جئن من المدينة ومنها

اعتقادهم ان من ولد في الليلة الثمراء يخزنه الثمر وذلك انهم يجدونه
قصير الغرلة ومنها تشاومهم بالعطاس كان الرجل اذا قصد قصداً
فعطس في وجه انسان رجع يرى انه لا يصيب خيراً قال الشاعر
يدح من لم يعتبر ذلك

وخرق اذا وجهت فيه لحاجة

مضيت ولم يجسك عنه العواطسُ

وما اشتهر عن العرب احاديث الغيلان والسعالى وانها ام
حبة تسكن الفلوات والادوية وزروس الجبال وانها ربما خالطت
الناس وحصل بينهم تناكح وتناسل ويذكرون في ذلك احاديث
كثيرة منها ان عمرو بن يربوع احد مشاهير العرب عثر بامراة من
ذلك الجنس فاحبته وتزوجها وولد منها وكانت قالت له اذا رايت
البرق فاستره عني فاني متى نظرت طرت الى بلاد قومي وتركت
اولادك فغفل عنها يوماً فرأت برقاً فطارأت الى ذلك يشير ابو
العلاء المعري حيث يقول

اذا لاح ايماض سترت وجوها

كاني عمرو والمطبي سعالى

ولم في هذا الباب اشياء كثيرة كخوفهم اذا قتلوا ثعباناً او حية
ان تقتص منهم الجن: فياخذون روثه ويفتونها على راس المقتول
ويقولون روثه راث نائرك يتحرزون بذلك وخوفهم من التعرض
لبعض الحيوانات الصغار كالقنافذ واليرابيع لزعيم انها مراكب

الجن وكان لهم خرز يستجلبون باستعماله بعض الحوادث كالحب
والبغض والمرض والبرء وغير ذلك في اشياء كثيرة من جنس
هذه المخرفات يطول استقصاؤها وقد بقي كثير منها لتناقض النساء
ومن يكون على طباعهن من العامة واهل التنبه منهم يسمون ذلك
علم الركعة نسبة للركعة التي يغزل عليها النساء لانهن اذا جلسن
للغزل ليلاً تفاوضن في هذه الاحاديث ومن اشنع ما كانت عليه
جاهلية العرب وأد البنات وهو دفنهن حيات كان يحفر الرجل
حفرة ثم يدلي فيها البنت ويطم عليها بالتراب وذلك لاحد سببين
خوف لحوق العار الذي يكون من جهة العرض وخوف كثرة
الانفاق خشية الاملاق روي ان صعصعة جد الفرزدق الشاعر
المشهور وكان ذا مال عظيم خرج يوماً على نحيب الى البادية في
طلب ناقتين كريمتين ضلنا له فوجد في مسيره بيتاً ببابه شيخ فنزل
اليه واستقبله ذلك الشيخ بالتحية والاکرام وجلس يتحدث معه ثم
سأله عن الناقتين فاخبره بانهما عنده ثم جاءت جارية فبشرته
بوضع زوجته فقال انظري ان كان ذكرنا اشاركنا في مالنا وان
كان انثى قت فوأدتها فقال له صعصعة او خيراً من ذلك
اقتديها منك فقال يتحدث العرب عنا اننا نبيع الاولاد فقال له
تلك فدية وهي ابتك فقبل الاعرابي وجعل الفدية الناقتين
والنحيب فرضي صعصعة بشرطة ان يعود على النحيب الى اهله ثم
يبعثه واخذ بعد ذلك صعصعة في هذا العمل حتى فدى مائة

وئيدة وكان الفرزدق يفتخر بذلك ويقول انا ابن محبي الموتى فاذا
سئل عنه قال جدي احبي المؤودة والله سبحانه يقول ومن احياها
فكأنما احيا الناس جميعا واسلم صعصعة وسال النبي صلى الله عليه
وسلم عن عمله فبشره بقبوله وان له ثوابه ولم يكن وأد البنات
قدما في العرب ولا عاما لهم وما كان عليه العرب ان الرجل اذا
مات ورث امراته اكبر اولاده فتزوجها كرها وكان لهم في النكاح
ونسبة الذرية طرق مختلفة اعظمها واشرفها ما عليه دين الاسلام
من الخطبة وتقدير المهر وعقد التزويج في محفل من الناس والزفاف
للشهرة واعتبار الكفاءة . الطريقة الثانية ان تتخذ المرأة بيتا ثم
تخادن عدداً من الرجال لا تتجاوزهم يكونون اخداناً لها عشرة فما
دونها يشتركون فيها والانفاق عليها وربما اجتمعوا اليها يتحدثون
ويتنادمون على الشراب فاذا جاءت بولد الحقته بمن يوجد فيه
شبهة ان كان ظاهراً والّا احضروا بعض القافه ليتامله ويلحقه بمن
عرف شبهه به وعند ذلك يكون ابناً له . الطريقة الثالثة ان المرأة
تتخذ بيتا وتتصب عليه راية ولا تختص باحد بل يدخل عليها كل
من اراد وهؤلاء البغايا فان جاءت بولد الحقته بمن شاءت من
المشهورين بالعزواتيان البغايا فلا يقدر على الامتناع من ذلك
واذا استلحقه رجل قبل ان تلحقه باحد كان ابنه

وكانت العرب تتجوز من غير حصر فيجمع الرجل في عصمته
عشر نساء واكثر واسلم غيلان بن سلمة وتحنه عشر نسوة فقال له

النبي صلى الله عليه وسلم امسك اربعا وفارق سائرهن وكان
 للعرب عناية بامر العيافة والزجر والمراد بذلك الاستدلال على
 حوادث الخير والشر باحوال يشاهدونها عند نية امر من الامور
 ولم في ذلك مصادفات غريبة تكاد تجعل الباطل حقا وقد اشتهر
 بعض القبائل بالمهارة في ذلك قال الشاعر
 خير بنو لهب فلا تك ملغيا

مقالة لهبي اذا الطير ولت
 فكانت هذه الاشياء في جاهلية العرب لعدم تفكيرهم في حقائق
 الاشياء وعللها وغاياتها اذ لم يكن لهم مرشد الهي يخبرهم بفساد ما
 هم عليه من العقائد والاهوام والمذاهب التي نشأت فيهم بسبب
 الجهل والغفلة والتخيلات لكن العرب بمجودة طباعهم وكرم فطرتهم
 وحسن اخلاقهم كان فيهم عقلاء حلماة حكماء كثيرة استخرجت
 افكارهم اغلب الاداب الانسانية التي ينبغي ان يكون عليها النوع
 الذي شرفه الله بالعلم والطق والالفة والاجتماع للتعاون في تحصيل
 المنافع التي خلقت له يشهد لذلك قوله صلى الله عليه وسلم بعثت
 لاتم مكارم الاخلاق وما اشتهر عنهم من الاشعار والخطب والمقالات
 في فصل القضايا والخصومات واصلاح ذات البين ولا شاهد
 اصدق واعدل من الطق وحسن الابانة عن بلاغراض والمعاني
 المعقولة بظهر ذلك في كلماتهم الوجيزة وامثالهم العزيزة وقد ورد
 الاسلام بتقرير كثير من محاسن عاداتهم اما باعيانها واما بتغييرات

يسيرة فكان الشر في الامة العربية مضحلاً مغوراً في تضاعيف
ما لهم من الخيرات الكثيرة والمآثر العلية الشهيرة
قال ناقل الحديث ثم لما طال بهم المجلس ومالت الى الراحة
الانفس سكت الشيخ وقال الانكليزي قد نقل السائحون في كتب
سياحاتهم ان اهل تلك الجهات التي حدث عنها يعقوب كثيراً
من احوال الجهل والتوحش والعادات الشنيعة والاخلاق
الفضيعة ومن اشنعها وافظعها عادة تقريب القرابين من الادميين
ولنجعلها حديثنا في الصباح ان شاء الله تعالى فقد طاب النوم
وهذا برهان قد داخله النعاس فان استحسن الاستاذ قمنا لياخذ
كل منا راحته الى الصباح فقال الشيخ لا باس وقام فقاموا
وانصرف كل الى مضجعه فلما اصبح الصباح قاموا وتوجهوا الى
المحطة ونزلوا في احدى العربات وساروا وفي اثناء الطريق لم
يجد الشيخ ماء يتوضأ به فتميم وصلى ما حضر من الصلاة وكذلك
فعل ابنه برهان الدين وكانت هذه اول مرة راي فيها يعقوب
التييم وإنما كان يراها يتوضآن فسأل الشيخ في ذلك



المسامرة السادسة والستون

الوضوء والتيمم

فقال الشيخ ان الله جلت حكمته لم يجعل علينا في الدين من حرج بل خفف عنا وسهل علينا ويسر لنا الطريق لعبادته وجعل لكل حال من الاحوال التي تعترض الانسان عملاً يناسبه فاذا عجز عن الصلاة قائماً صلى قاعداً وان عجز عنها قاعداً صلى مضطجعا وان عجز عنها مضطجعا صلى مستلقياً وان وجد الماء توضأ وان اعوزه الماء تيمم وصلى لكيلا يحرم في وقت من اوقاته من عبادة مولاه والتقرب الى رحمته والدخول في حضرته فان الانسان في كل صلاة من صلواته يخلو مع ربه عز وجل يناجيه بلسان الخشوع ويناديه بكمال التضرع والخضوع ويعرض فيها العبد الكامل في عبادته عن اشغال الدنيا واحوالها ووساوسها واعمالها ويخلي قلبه لربه مقبلاً عليه

بكلية قائماً على قدم عبوديته فيشرح صدره ويستريح خاطره من شواغل الدنيا وغوائلها مدة صلاته فيستنير قلبه ويقوى إيمانه ويضعف عنده حب الشهوات والمفاسد والمعاصي خصوصاً بما يتكرر على خاطره ويفعل في قلبه مما يتلوه في صلاته من الآيات القرآنية وما يتبعها من الخواطر العلية والواردات الرحمانية التي تحقق من قلبه سلطنة القسوة والرعونة والغباوة وتملأ ورعاً وتقوى وإقبالاً على الله وحناناً ورافة بخلقه ورحمة لم فهذا شأن الصلاة الفاضلة والعبادة الكاملة التي تعود على الإنسان بالنفع في الآخرة والراحة في الدنيا والتقرب إلى الله سبحانه قد سهل لنا بفضل السبيل إليها حتى لا يحرم العبد منها في وقت من أوقاته وحال من أحواله ولهذا رايتني لما لم أجد ماء اتوضأ به تيمت وصليت لقوله تعالى فان لم تجدوا ماء فتيمموا

فقال برهان هل يعلم أيها الأستاذ لنزول هذه الآية سبب

يذكر

قال الشيخ روي عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها أنها قالت خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في بعض أسفاره حتى إذا كنا بالبيداء (في مكان بذى الخليفة) انقطع عقد لي فاقام رسول الله صلى الله عليه وسلم على التماسه وإقام الناس معه وليسوا على ماء وليس معهم ماء فأتى الناس إلى أبي بكر الصديق (وهو أبوها) فقالوا له ألا ترى إلى ما صنعت عائشة أقامت برسول الله

صلى الله عليه وسلم والناس وليسوا على ماء وليس معهم ماء قالت
فجاء ابوبكر ورسول الله صلى الله عليه وسلم واضع راسه على
فخذي قد نام فقال حبست رسول الله وحبست الناس وليسوا
على ماء وليس معهم ماء فعاتبني ابوبكر وقال ما شاء الله ان
يقول فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم حين اصبح على غير ماء
فانزل الله تعالى يا ايها الذين امنوا اذا قمتم الى الصلاة الى قوله
فان لم تجدوا ماء فتميموا صعيدا طيبا فقال بعض الصحابة ما هي
باول بركتكم يا آل ابي بكر فهذا سبب نزول هذه الاية

— — — — —

المسامرة السابعة والسنون

ملكة اشانتي

قال النافل ثم التفت الشيخ الى الانكليزي يرجوه في انجاز ما وعده به في الليل من ذكر عادة السودان في تقريب القربان من نوع الانسان فقال الانكليزي من جملة القبائل المنتشرة في سواحل بلاد الذهب قبيلة يقال لها (اشانتي) مقبمة في ارض واسعة بعيدة الحدود يحدها طولاً من المغرب الى المشرق اربع درجات وهو من (عامان) الى (ولنا) وعرضها نحو ذلك وهو من حصن راس (كورس) الى ولاية (غرفان)

وملك اشانتي هو الحاكم على جميع هذه الارض ومن فيها من غير معارض لامره ولا منازع له في حكمه وجميع حكام القبائل تحت امره ونهيه سواء من يدفع منهم الخراج ومن لا يدفعه فجميع

القبائل المنتشرة في جهات سواحل الذهب خاضعة لاوامره قد
انضمت الى حكمه بعد حرب حصلت بينهم اخيرا فصار الجميع
مملكة واحدة تحتها مدينة (كوماسي) فمنها بجهة الجنوب قبيلة
(دينكيرا) وجبال (طوفيل) وقبائل (وصّا) وامندا . وعوفين
وتوزكا)

ومنها بجهة الشرق على شاطئ نهر (قولنا) قبائل (غوفان)
وبابوزو . وبناريوتن . ودعجورا . وبودوي . وعكيا
وعكواهو . وعكيم . واكوبيم . ودعكامبويه
وفي الوسط قبائل (سوكو . وتليا . وكودنزا . وماسي
وعاسين . وفانتي . وعهتا) وكلها تحت حكم ملك (اشاتي)
وهذه المملكة على اتساعها منقسمة الى ثمانية طرق تمر من مدنها
الشهيرة كل طريق يسمى باسم الملك الذي انشئ في مدته او باسم
المديرية التي هو فيها او القبيلة المار بها

فالطريق الاول يسمى طريق (داعوفين) وهو الموصل الى
الساحل الغربي المجاور لمدينة (ايولونيا) وغيرها

الثاني يسمى طريق (وصّا) وعندها ينقسم الى فرعين احدهما
شرقي والاخر غربي الذي يتوصل به الى راس الثلاثة الشعوب
والى مواطن الاوروباوين بتلك الجهات

الثالث يسمى طريق غسيم وفانتي وينقسم عند بلدة صغيرة
هناك الى قسمين احدهما يتوصل به الى حصن الفلمنك وهو قريب

من راس كوري على بعد اربعة اميال منها
 الرابع طريق (خواتي) وهو اخذ من الجنوب الشرقي الى
 الشمال الشرقي ويمر بعدة مدن وبلاد يتوصل منها الى (اكار)
 ومواطن الانكليز وغيرهم من الاوروبيين القاطنين بهذه النواحي
 وهذه الطرق الاربعة تسلكها اهل اشاتي عند الذهاب الى الساحل
 لشراء البارود والبنق وجميع البضائع الاوروبية واما الاربعة
 الاخر فبدأها من التخت ثم تاخذ في اتجاهات مختلفة الى داخل ارض
 افريقيا وهذه الاربعة منها اثنان قديمان واثنان حديثان

والملك الان مجتهد في فتحها لسهولة العبور منها بتسخير العبيد
 في قطع اشجارها وتقل احجارها وهناك طرق اخرى توصل من
 التخت الى ما جاوره من البلاد ومنها الى المدن الشهيرة وإلى بلاد
 الساحل ومواطن الاوروبيين ولكن في كل سنة يتلف كثير من
 هذه الطرق وتغى اثارها بسبب الرياح والامطار وفيضان الانهر
 والخلجان والنجائر وقد يتعدى ذلك الى الطرق الكبيرة ايضاً وهبئة
 الارض من جهة الساحل ترى كحصن من اشجار وخضرة وذلك
 في جهة الشرق والغرب واما من جهة الجنوب والشمال فهي بقاع
 مستوية في بعض جهاتها او غابات صغيرة والارض فيما حول نهر
 قولتا جبلية وفيها غابات قليلة ويوجد حول التخت مدن كبيرة
 كثيرة الاهالي بعضها على بعد يوم وبعضها على اكثر ومنها ما اهل
 قريب من ستين الفا ومنهم من يتعيش من الصيد ومنهم من

يتعيش من زراعة الارض ومنهم من يتعيش منها معاً ويوجد في
المدن من لهم معرفة بصناعة الصباغة والحياكة ونسيج المحصر وعمل
اواني الفخار وفيهم من له معرفة بعمل السلاح

وعدد رجال العسكرية عندهم يقرب من مائة وخمسين الفا
واموال الحكومة ترد اليها من عدة جهات

الجهة الاولى ما يرد من غرامات المذنبين وتركات الاموات
الثانية ما يرد من تجار الرقيق عند بيعه بالسواحل وهو
مقدار من الذهب يؤخذ على ما يباع منه

الثالثة ما يرد من معدن البضائع صادرة او واردة

الرابعة ما يرد من صيادي الفيلة

الخامسة ما يرد من معدن الذهب بناحية (سوكو)

السادسة الذهب المجمع بالغسيل والتصفية على ما تقدم

السابعة ما يرد من كل من اراد بيع حلي الذهب والفضة

الثامنة ما يرد من الخراج المقرر على بعض الجهات فمنهم من

يدفعه ذهباً او فضة ومنهم من يدفعه عبيداً او بهائم ومنهم من يدفعه

ثياباً واما اعتقاداتهم ومذاهبهم في دياناتهم فمختلفة منها ما هو موافق

لما ذكره يعقوب ومنها ما يخالفه ومنهم طائفة تقول ان طمع من

تقدم من اباؤهم كان سبياً في بعدهم عن حب الله لم وعدم طمع

سلف البيض هو الذي كان سبياً في قريتهم منه وجهه لم فلذلك

يقولون ان اكثر نعمه خاصة بهم وما يصل منها الى السود لا يكون

الآ بواسطة مقدسين او ملائكة ويقولون ان المولى لما اراد عمارة الدنيا خلق فيها ثلاثة رجال بيض وثلاثة سود وخلق لهم ازواجاً مثلهم ولعدم حصول النزاع بينهم في الدنيا خلق علبة مقفولة لا يرى ما فيها وورقة مخنومة وجعلها على الارض وامر الفريقين ان يختار كل منهما ايها اراد وقدم السود في الخيرة فقال اخناؤوا انتم اولاً فطمعوا في العلبة فاخناؤوها لزعيمهم ان في باطنها كل شي ففتحوها فلم يجدوا فيها سوى قطعة من ذهب ومثلها من حديد وبعض قطع من معادن اخرى لا يعلمون فائدتها ولا خاصتها واخذ البيض الورقة فوجدوا فيها علم كل شي فجعل الله سبحانه السودان في البراري والغفار وبين غابات الاشجار وانزل البيض بسواحل البحر وصار يعلمهم كل ليلة ويلهمهم كيف يصنعون ما يلزم لهم حتى علمهم صنعة السفن فعملوها وركبوها وساروا بها في البحر مدة ثم رجعوا ببضائع من انواع متعددة وذهبوا بها الى السودان الذين كان لهم الخيرة اولاً فباعوها عليهم وجميعهم الى الان يعتقد ان ماوى المقدسين والملائكة المقربين الغابات والانهر والجبال كما كان ذلك في مبدأ الزمان ولم في هؤلاء المقدسين اعتقاد كبير فمن ذلك اعتقادهم انهم اذا توسلوا بهم في امر ساعدوهم فيه واعظم مقدس عندهم الان نهر يقال له نهر (تاندو) ومن جملة اعتقادهم ان ملوكهم وامراءهم يكونون بعد موتهم مع المقدسين فيتمتعون عندهم بانواع الخيرات ويتلذذون باصناف المستلذات ولاعتقادهم ذلك تجدهم

اذا مات لم امير او ملك ذبحوا على قبره جملة من العبيد والجواري
 ووضعوه معه في حفرته ليقوموا على زعمهم بخدمته ويعتقدون ان
 الرعية اذا ماتوا كانت ارواحهم في خدر وخمود للاستراحة مما
 كابدوه في الدنيا ومن كان ذا فطنة منهم وتجربة اعتقدوا ان له
 خاصة الاطلاع على علم الغيب وانه الواسطة الى المقدسين وان
 هؤلاء المقدسين واسطتهم الى الله ينال بهم الناس ما يطلبونه من
 الله عز وجل وعندهم ان من كثرت ذنوبه او فرط فيما وجب عليه
 كان محروماً بعد موته من ثواب ما عمله من الطاعات والصلوات
 والدعوات مخوفاً عليه ان يتيه في ظلمات الغابات وقد تحجب
 روحه الى بيته في بعض الاوقات ومن اوهامهم ان من قصر في
 اعمال المآثم لمن مات من اقاربه فلا تنال ارواحهم توثيه وتنقص
 عليه عيشه فلا يزال في عناء ونكد وبلاء وقد انقسمت مشائخهم الى
 طائفتين

الاولى ملحقه عندهم بالمقدسين فلا يدخلون في امور الدنيا
 ولا يخلطون بالناس بل يعتزلونهم ويقيمون في محال بعيدة عن
 البلد والعمران ويقولون انهم يخاطبون المقدسين ويسالونهم عن
 كل شي ارادوا علمه فاذا اراد احد ان يعلم حال من مات من
 اقاربه ذهب الى احدهم فيخضر له روح قريبه فيشكل معه ويسألها
 عما يريد

والثانية تخلط بالناس في اوقات اجتماعهم وليالي افراسهم فيانسون

بهم ويسالونهم عن كل ما سئح لهم كالذين يفتحون الكتاب او
 يضربون الودع او يقيسون الاثر ولم براءة في التقاط اخبار الناس
 وتنبع احوالهم ويعرفون حيلًا كثيرة يعلمون بها كيف اخذت
 السرقة ومن سرقها وفي اي موضع هي ويعملون لبعض النساء تمائم
 لحب ازواجهن وعدم اطلاعهم على احوالهن وافعالهن ونحو ذلك
 ووظائف الطائفة الاولى وراثية يدخلون فيها بطريق الارث عن
 اسلافهم كما كان عليه كهنة المصريين في الازمان القديمة ولم ان
 يتزوجوا اذا ارادوا وكذلك اموالهم . والثانية لا تنضبط بعدد معين
 بل هي دائماً في الزيادة على حسب مس المقدسين لهم وتلبسهم بهم
 كحال من نراهم بمصر كالمصروعين الذين يقولون ان الجن متلبسون
 بهم وعندهم بعض نساء يعتقد فيهن المس ولهن معرفة بخواص
 النبات والاعشاب في مداواة الجراح والامراض ولهذا السبب يكون
 الاعتقاد فيهن اكثر ولا حرج عليهن عندهم انا زنين قبل الزواج
 او بعده ولهؤلاء الناس نذور ومرتبات ياخذونها ممن يعتقدهم
 يرمون نصفها في البحر ويقتون لانفسهم النصف الاخر ونذر الملك
 في العادة يكون عشر اواق من الذهب واربعة من العيد وكثيراً
 ما يهبون للمقدسين اولادهم وهم في بطون امهاتهم وكل عبد دخل
 محل المقدس بقي في خدمته فاذا اراد سيده اخذه دفع عوضاً عنه
 اوقيتين من ذهب واربع شياه من الضأن وفي بعض الجهات اذا
 دخل العبد معبد المقدس بقي عنده فلا يخرج ولكل عائلة منهم

اشياء كالاولثان تخصصها لهم مشائخهم فيقدسونها ويمجدونها فمنهم
 صور من خشب او قطع مركبة من مواد مختلفة خالية من التصوير
 فيتبتونها في داخل منازلهم وتقدم لها العائلات الذور في الاعياد
 والمواسم وكثير من الحيوانات عندهم يعتبر اعتبار المقدس كالضبع
 عند اهالي اكارا والصقر في جميع البلاد لانها لا يبقيان الرم التي
 تنشأ عنها العفونة وحدث الامراض حتى ان من يقتل ضبعاً يغرم
 غرامة عظيمة فان كان قاتله من الاوروبيين كلف بدفع صندوق
 وثوب من القماش يلف فيه راس الضبع ويوضع في الصندوق
 ويدفن والتمساح ايضاً في جهات متعددة يعتبر اعتبار المقدسين
 حتى ان من الدراويش من يربيه في بعض البرك ومتى اظهر راسه
 من الماء اعطوه من الذور ما ياكله ولذا تراه اذا نادوه ظهر لهم
 ونظر اليهم وليس لاعياد المقدسين عند الاشاتي يوم معين وانما
 يتركون اشغالهم اياماً من بعض الاسابيع يلبسون فيها الابيض من
 الثياب ويجنبون شرب نبيذ التخل وبعضهم يمتنع في هذه الايام من
 اكل لحم الثور وذلك دأبهم في يوم مولدهم وهو اليوم الثاني من
 الاسبوع الذي يتركون فيه العمل وان كانت الاعياد مختلفة عندهم
 فعيد المقدس لعائلة الملك يوم الخميس وعيد مقدس الوزير يوم
 الجمعة ويوم السبت هو يوم مولد الملك يجلس فيه وفي يوم مقدسه
 على دكة صغيرة امام تخته وفي هذه الايام يمتنع الناس عن اكل
 لحم الثور لانه مقدس عائلة الملك وكذا الحمام

وبعض الايام عندهم سعيد يتيمنون به وبعضها نحس يشامون منه وذلك بحسب ما وقع فيها لاسلافهم من الخير والشر وقد يكون في بعض الاشهر السعد اكثر من النحس وبعضها على العكس وعربان الغرب يعملون لهم تائم يبيعونها عليهم باسعار غالية ويعتقدون انها تقيم من سلاح العدو فتعقده عنهم وتمنع رصاصه ونبله منهم وتسدد نبالهم لنحره واسلحتهم لصدرة وتقيم من الامراض والعاهات والاسواء والافات فتراهم لهذا الاعتقاد يتحمون الحروب من غير خوف ولا فزع بخلاف اعدائهم لما يعلمه عدوهم من وجود هذه التائم عندهم ولهم اعياد غير ما ذكر اشهرها عيد يقال له بلغتهم (انيام) وهو في الاصل اسم لبنات معروف عندهم يغرس في شهر ديسمبر الافرنجي ويطيب حصاده في شهر سبتمبر فيعملون لهم عند حصده عيداً يمتد الى اخر شهر حصاده ويحضر جميع الامراء وقواد الجيوش وروساء العسكرومن العادة عندهم ان لا يعاقب احد من الامراء على جناية قبل هذا العيد فلذلك يحضره جميع الامراء امنين مطمئنين ولا يواخذ في ايام هذا العيد احد من الناس على ذنب فعله من سرقة او زنا او غير ذلك فترى فيه كل احد يعمل ما بدا له من كل ما تدعوه نفسه اليه من الشهوات والاغراض واللذات فاذا كان اليوم الخامس من شهر سبتمبر حضر جميع القبائل مع كبارهم واهل البلاد مع امرائهم في هيات متنوعة وهم يضربون الطبول والمزامير فيكون لهم موكب عظيم يمتد الى اخر النهار وفي

اليوم الذي يليه يحضر الملك بعض الزوال في ميدان المدينة فيتلقى
الامراء وروساء العسكر فيأتيه كل منهم بزيه وزينته وموكبه الذي
جاء به فيجدون السيفين واصحاب المشاعل واقفين في جانب
الميدان فرقاً كل فرقة نحو مائة رجل ومعهم جماجم من قتل من
امراء الاعداء وروسائهم ورؤوس من قتل من المذنبين من قديم
الزمان الى الان وقد حشوها من السعتر او نحوه لئلا يتأذى الملك
ومن معه بريحها وبايديهم سكاكين يضربون عليها ويتكلمون بكلمات
فضيحة ويفعلون افعالاً مزعجة شنيعة وتدور الفرق الموجودة في
ذلك الميدان فرقة فرقة وامام كل منها ما يختص بها من الات اللهي
كالطبل والزمير فتطوف كل منها بجميع الخيام الموجودة وكلما
اتمت طائفة منها دورة اتت طائفة غيرها ففعلت فعلها ودارت مثلها
وهكذا الى اخر النهار وتكون الامراء مدة مرور هذه الفرق مكبة على
فعل المنكر وسيء الاعمال وضرب البارود فاذا جاء الليل اوقدوا
المشاعل واكثروا من ضرب البارود ودق الطبول حتى يكون لهم في
البلد ضجة وترتفع لهم في ارجائها اصوات مختلفة مزعجة فلا تخلو حارة من
حاراتها ولا طريق من طرقاتها عن مثل ذلك الى ان يتتصف الليل
فينصرف الملك الى سرايته فاذا طلع النهار امر بالخمر فتملاً بها
حياض متفرقة في البلد ويباح الشرب منها لكل احد فلا يبقى في
البلد احد من كبير او صغير ذكر او انثى حر او عبد غني او فقير
الا شرب منها حتى سكر وقد تحصل عليها مزاحات عظيمة

ومشاجرات كثيرة ترتفع فيها الاصوات فتختلط بدوي الطبول والبنادق فيكون مجموع ذلك امراً هائلاً وخطباً مزعجاً لا تكاد تبلغه العبارة ولا ترى في ازقة البلدة وشوارعها في هذا اليوم غير سكران على الارض مطروح ومزمل تقاذورات يترغ فيها كالحيوان المذبوح ومن عف عليه الذباب ومن تشمه او تلحسه الكلاب ومن يمشي فيقع على الارض او على غيره من امثاله وهو معجب بامره راض بحاله ويستمررون على ذلك الى اخر النهار ثم ينقطع الشرب وتجمع روساء العساكر وكبراء القبائل الذين كانوا اتوا من خارج البلد فينضم رئيس كل فرقة الى فرقته وكبير كل قبيلة الى قبيلته ويصطفون صفوفاً على حسب رتبهم ويضربون طبولهم ويمرون امام سراية الملك ويطوفون في البلد ويدخلون حاراتها حارة حارة للتعبيد على اهلها ثم يجتمعون ثانياً ويقفون كما كانوا اولاً فياتي الملك ووزراؤه محمولين على اعناق العبيد في محامل مثل التختروان فيمرون من وسط البلد بين هولاء الجموع وعند ذلك يكون قد تم عيدهم وفي اليوم التالي لذلك يتفرغ الملك وارباب دولته الى اشغال الحكومة ويرجع القبائل الى اوطانهم ومن العادة عندهم ان يعين مقدار من العبيد المذنبين الذين حصلت منهم الجنايات والجرائم بمئة الحول الى هذا اليوم فيذبجونهم في جهات متعددة من البلدة او غيرها وبعض من يقتل من العبيد كما ذكر يؤخذ ما يسيل من دمهم ويضاف الى بعض اشياء من الحشيش

والخضرة وغيرها موجودة في قدر من نحاس موجود بمعبدهم
ويتحفظون عليه لزعهم ان ذلك يكون حرزاً لهم وسبباً في زيادة
سطوتهم ونصرهم على اعدائهم وفي هذا اليوم يذبح كل من الامراء
والاعيان بعض عبيده على اول خط من خطوط حرث زراعة
النبات الموسم باسمه هذا الموسم وهو الذي يقال له بلغتهم (اينام)
كما تقدم ومن كان فقيراً يأخذ رأساً من رؤس المذبوحين ويضعها
في اول خط من حرث ارضه وفي مثل هذا اليوم من كل سنة
تسبك حلي الذهب الخاصة بالملك في صور غير صورها التي
كانت عليها وتاكل عائلة الملك اول اكلة من محصول زراعة
العام الماضي بعد مضي عشرة ايام من يوم عيدهم ولا ياكلونها الا في
ميدانهم ثم يركب الملك في ثاني يوم قبل طلوع الشمس ومعه اتباعه
وروساء جيوشه فيذهب الى بلدة هناك يقال لها (سرازو) ليغتسل
في نهر بها يسمى (داه) ومن عاداتهم في ذلك اليوم ان الملك اذا
خرج الى ذلك النهر تبعه جميع اهل المدينة حتى تصير خالية من
سكانها وفي ثاني يوم يمضي الملك الى بركة في الجنوب الشرقي من
البلد ليغتسل فيها فيحيط به العسكر من كل جهة وينزل الملك
فيغتسل وياخذ من الماء ويرش على جميع حليه وسلاحه وامتعته
فاذا اغتسل نزل من معه من الامراء وفعلوا مثله فعله ولا يذبحون
هناك في هذا اليوم الا عنزة ونعجة ويغمسون في ذلك النهر نحو
عشرين رأساً من الضأن ياخذونها معهم الى السرايه عند عودهم

فيذبحونها فيها ويلوثون بدمها تحت الملك وابواب محاله الخاصة به واما باقي الابواب والشبابيك ونحو ذلك حتى كراسي اعضاء المملكة فيلوثونها بمخلوط مركب من البيض ونبذ النخل فاذا تم مولد الاستحمام عاد الملك الى مدينته ويسبقه الروساء والامراء ولا يدخلها في هذا اليوم غير اعيانهم واكابرهم ويدخل الملك في موكب يتقدمه قسيس وخلفه اطفال بايديهم آنية بها ماء مقدس عندهم يرشون به على الامراء ثم من خلفهم ثلاثة خرفان بيض لتذبح عند باب حجرة الملك التي ينام فيها ثم خلفها الملك ويكون ملبسه في هذا اليوم ثياباً بيضاء وخلف الملك جميع نسائه وحاشيته وحولهن العساكر من كل جهة ولم يجر ما ذكر عيد يسمى (اداي) يتكرر في السنة الواحدة عدة مرات بعضها عيد كبير وبعضها عيد صغير ومحسبون بها سنتهم واولها تقع في اول شهر اكتوبر ولا يعرف لذلك سبب ويقول اهل تلك البلاد ان اول سنتهم يكون اذا تساقط ثمر شجر معروف عندهم تسقط ثمرته بعد تفتح ازهاره بعشرين يوماً ودائماً يكون العيد الكبير عندهم يوم الاحد والعيد الصغير يوم الاربعاء وبين كل عيدين كبيرين ستة اسابيع وكذلك بين كل عيدين صغيرين فيكون بين كل عيد والذي يليه ثلاثة اسابيع اعني واحداً وعشرين يوماً

وعاداتهم في كل عيد من تلك الاعياد الاربعة ان يعلموا به قبله بيوم فيأخذون المزامير ويعلقون جحاح القتلى وعظامها على

طبل عندهم كبير ثم ياتون بذلك الى باب سراية الملك ويضربون
 بها اعلاماً بذلك اليوم فكل من سمعه سواء كان من عائلة الملك
 او غيرها صاح باعلى صوته فتقوم البلدة على ساقها وتهرع السوقة
 من اسواقها فيضربون الدفوف والبارود ولا يزالون كذلك الى
 صبح يوم العيد فيركب الملك ويذهب الى المعبد ومعه خرفان
 القربان فيذبحونها وياخذون دمها فيلوثون به تخت السلطنة زعماً
 منهم ان ذلك يكون سبباً في حفظ الملكة مدة السنة وفي هذا
 اليوم تاتي جميع الطوائف التي تقدم ذكرها فتصطف في ميدان
 السراية ثم تمر جميع الامراء وروساء الطوائف امام الملك ويقبلون
 الارض بين يديه تحية له يقابلها بهز راسه كانه جواب تحيتهم وخلف
 كل واحد منهم جماعة من العبيد بايديهم السلاح يلعبون به
 العاباً مختلفة وبعد ذلك يقوم الملك عن تحته ويدخل سرايته فتاتي
 خدمه وينكسون التخت ثم يخرج بعد برهة متبهاً بهيئة الابهة
 والامارة فيعيدون له التخت كما كان فيجلس عليه وعند ذلك
 يجدون في ضرب الآلات ودق الطبول ورفع الاصوات وتاتي
 التراجمه وبايديهم عصي من ذهب فيامرهم بتفريق الهدايا على رؤساء
 العساكر ومن حضر من الامراء والاكابر كل هدية عبارة عن راس
 من الضان وزجاجة من النبيذ يشرب في الحان وعشر اكيات من
 ذهب (كل اكية عبارة عن ستة فرنكات) فاذا فرغوا من تفريق
 الهدايا قام جماعة من الرجال نحو الخمسة او الستة يتنغنون بكلام

يشتمل على ذكر فضائل الملك وعطاياه ومناقبه ومناقب ابائه واجداده فاذا انتهوا من ذلك مرت كل طائفة امام الملك مرة ثانية متشكرة له على احسانه وانعامه داعية له بالبقاء الى امثال عامه ثم بعد ذلك ينشر ما استحدث من القوانين التي يراد اتباعها والعمل بموجبها وينصرف الناس الى جهاتهم

وقد قدر بعض السياحين ما يعطيه الملك من العطايا في كل من هذه الاعياد والمواسم فبلغ (بيريجوين) اعني تسعة الاف فرنك وستمائة فرنك ولسكان (اهتا) ثلاثة اسابيع الاول يسمى اداي يكثر فيه بيعهم وشراؤهم واخذهم وعطاؤهم حتى انهم يسمونه اسبوع الخير والثاني لا يبيعون فيه ولا يشترون ولا يشتغلون بشيء ويسمونه اسبوع الشر لا اعتقادهم ان اعمالهم لا تنجح فيه والثالث يسمونه اديم او الاسبوع الطيب الصغير ويكون فيه بعض التجارة والعمل لكنه دون الاول

وقد وصف هوتشيزون الساح في رحلته كيفية تقريب القرابين من الادميين في موسم (اداي) المذكور عند اهل الجهة المذكورة فقال كنت بتلك الجهة فحضرت عيداً هناك يسمى (اداي) وكان في شهر يناير الافرنجي وكان لي فيهم رجل اعرفه فدخل عليّ فرايت منه ان هراده ان يخبرني بشيء في سره فاخرجت من كان عندي من الخدم فال اليّ وقال لي ايها الرجل احترس على نفسك وعيالك فان ملك الموت قد سل سيفه لقتل كثير

من الأشاتيين لان لم عيداً قد قرب ولم يبقَ عليه سوى يومين
 فاذا سمعت صوت طبل فاعلم انه علامة على الموت فاحذر من
 الملك ولا تقربه فهذا شي في إمكانك فان فعلت ذلك فلا تخشَ
 من شي فقبلت نصيخته وشكرته ثم انصرف فلما مضى يومان سمعت
 صوت طبل فصرت اتفكر في هذه الاحوال وادبر حيلة للخلاص
 من تلك الاحوال فلم اشعر الا ورسول الملك قد حضر يدعوني
 اليه فحصل لي من ذلك رعب شديد لاني كنت اسمع ان من
 عادته انه اذا اراد البطش باحد من الروساء والامراء ارسل اليه
 من يدعوه باي حيلة فاذا حضر ودخل من باب السراية وثب
 عليه جماعة من العبيد مرتصدة لدخوله فاوثقته والقتته الى الارض
 واخلفوا له تهمة يتهمون بها وأروه انهم ما فعلوا به ما فعلوه الا
 بسببها ثم ضربوه بسكين في مقتلته فيموت وينتهي امره

فتوجهت الى الملك فرايت بعض الضباط الملازمين له
 يدخلون عليه ويخرجون من عنده وبايديهم سكاكين واسلحة
 فارسل احدهم الى احد الامراء ليخبره ان يحضر عند قبر امه ثم ركب
 الملك وتوجه الى القبر بعد ان امرني بالخروج من باب غير الذي
 دخلت منه ولم اعلم سر ذلك فلما وصل الى القبر امر باخراج عظم
 امه واخوته من قبورهم فاخرجوها وغسلوها بالماء ثم نشفوها بمناشف
 من حرير وغمسوها في الروم وهو نوع من المسكر ثم نشفوها ثانياً كل
 ذلك بغاية الاحترام والتوقير ثم قلبوها فوق تراب من ذهب

وأحاطوا بها سبائك منه وقلائد من الحجارة والمعادن الثمينة
 ووضعوها على حافة القبر وبعد ذلك اتوا بجميع المذنبين والمتهمين
 بعدم الرضى عن الملك فكان كل من اتى منهم ذبحوه على تلك
 العظام حتى سالت الدماء الى القبر وفي هذه الليلة دارت سيافة
 الملك حول المدينة فكل من وقع بصرم عليه احضروه الى الملك
 فيذبح وكان السبب في هذا القتل والتربان على زعمهم هو ان الملك
 وقتئذ كان مستعداً لقتال بعض القبائل المحاربة له وكان الملك
 على حسب عادتهم في ذلك رى من الواجب قبل الخروج الى
 القتال ان يخرج عظام امه وبعض اقاربه من قبورهم ويفعل بها
 ما ذكر لاعتقاده انه اذا فعل ذلك بهم كانوا راضين عنه وكانت
 ارواح مقدسيهم مساعدة له على اعدائه لكن لشهرة هذا اليوم وهذا
 الامر قد يتخلص منه ناس كثير ممن يرغب الملك في قتله وكان
 من عادتهم في ذلك العيد كباقي الاعياد ان يحضروا الى تلك
 المدينة خلق كثير ولكنهم لعلمهم بهذه الحادثة لم يحضر احد فكانت
 المدينة يومئذ خالية ليس بها الا الملك وعائلته واصحاب سره ولما
 دخلت عليه اظهر لي الانبساط من حصول الامن عندي وامرني
 بالجلوس فجلست فرأى مني اني قد استقلت ما حوله من الرؤساء
 فلم يكلمني في ذلك وكان يظهر عليه اثر القلق وعدم الاستقرار ثم قام
 ودخل بيته فلما قرب المساء ابتدء بالذبح كما حصل بالامس
 فلما مضى جزء من الليل امر الملك بوضع عظام والدته واهله

في مقابرهم ورجع في موكبه ومعه روساؤه وامراؤه واتباعهم وعلمهم
 ملابس الحرب والآله وإمام كل واحد منهم شعلة من نار فكانت
 البنادق وجميع آلات الزينة والرسوم الموكبية منشورة الاعلام وقد
 تقدمهم جماعة قد غلت ايديهم وعليهم المحرس وحوهم رجال تغني
 بانغام حماسية وفي عصر ثاني يوم اعدوا ذلك الموكب بعينه فوقف
 الملك في الميدان الكبير وحوه الطبول وارباب الموسيقى فامر
 بقتل اولئك المغلولين فصاروا يقتلونهم واحداً بعد واحد والالات
 تضرب بانغام عجيبة كأنها تقول التتل القتل وكان امامه اناء من
 خشب ملاّن نبذاً وكلها قطع راس رقص له ثم في اخر هذا
 اليوم دخل الملك سرايته

فعند ذلك آمن كل من كان خائفاً منه على نفسه من الامراء
 وغيرهم فخرجوا من مكانهم وصاروا يطوفون في ازقة المدينة فرحين
 بالخلاص مما حصل في اليوم الماضي وان كانوا غير آمنين مما يحصل
 في الاتي قال السائح المذكور وقد اعقب ذلك ان اعترتني حمى
 كان سببها اني اطلت الجلوس مع الملك بالامس وكان الوقت
 شديد الحر فلما رجعت الى بيتي لم اجد فيه ماءً ولم يمكنني ان ارسل
 احداً من خدمي لشراء ما يلزمي من السوق خوفاً من ان يوخذ
 فيقتل كغيره ولم يكن في السوق احد من الناس خوفاً من القتل
 واستمر الذبح كل يوم على نحو ما تقدم الى ان انتهت ايام ذلك
 الموسم المشؤم

ومن عادة الاشائين انهم اذا مات احدهم يضربون له بارودا على قدر مقامه اعلاما بموته فاذا سمعت عبيده ذلك فروا الى الغابات والمغارات فاخفوا فيها الى ان تخرج جنازته ويدفن ومن بقي منهم ممن لم يشعر بموته توخذ منهم القرابين التي تذبح على تربته يوم موته وتكون على قدر ايسار الميت واعساره ومن عاداتهم ايضا في موتاهم ان الميت اذا مات اجلسوه على كرسي واسندوه حتى يكون كما يجلس الحي وابقوه كذلك الى ان تظهر له رائحة وعند ذلك يدفنونه في منزله ويضعون عنده شيئا من الذهب والالوانى والملابس الثمينة

ثم قال الانكليزي للشيخ ان اردت زيادة الايضاح ذكرت لك يوم موت الملكة ام (كاتشي كوفي) على حسب ما وصفه ذلك السائح وذلك انها حين خرجت روحها بادر الملك الى بنت من حاشيتها فقتلها بيده وحكمة ذلك على زعمهم ان تجد المتوفاة من يخدمها حين يضعونها في قبرها الى ان ياتوا لها بالقربان الكبير ثم جاءت من طرف احبة العائلة واتباعها والمتمين اليها هدايا كثيرة من الاشربة والذهب وثياب الحرير وارسل الملك بهدية اعظم من الجميع لكونه هو الوارث للمملكة المذكورة فبعث بشي من الذهب والاقمشة الفاخرة الا ان هذا السائح لم يعرف مقدارها وانما قدر البارود الذي ورد وتلف في ذلك اليوم باربعة واربعين كاكا فقال ان ما ورد من طرف ولدها (كاتشي كوفي)

عشرون كاكًا ومن طرف الملك اربعة ومن طرف اخي الملك
اثنان ومن طرف الامراء ثمانية عشر فكان المجموع ما ذكر وهو
يقرب من اثني عشر برميلاً

وهذا القدر من البارود قليل بالنسبة لها على مقتضى عادتهم
وانما اقتصروا عليه لان الملك لما هو بصدده من الحرب كان قد
امر بعدم الاسراف في البارود . ولما جاء وقت الزوال توجه السائح
المذكور الى جهة يقال لها (عسافوا) فوجد الطيور تحوم في الجو على
جثث القتلى الذين ذبحوا فتنزل وتنش لحومهم ووجد هناك حلقات
من البنات منهن من يرقصن ومنهن من يندبن ويعددن فضائل
المتوفاة ويولولن على فقدها . قال فكانت اصواتهن حينئذٍ تسمع
على بعد عظيم ووجد قومًا اخرين حاملين للاقمشة التي اهديت
اليها في اشكال مختلفة منها ما هو على شكل الصليب ومنها ما
شكله مخروطي ومنها ما هو كروي وغير ذلك وكانت النساء
الحاملات للاقمشة ترى من بعد في هيئة الشياطين لان صدورهن
واذرعتهم وشعورهن كانت ملوثة بدم القرابين ومن فاتها ذلك
لوثت نفسها بطين احمر تشبهًا بمن لوثت نفسها بدم القرابين فكان
لاجتماع كل من الطبل والمزامير والبكاء والعيول صورة هائلة
ورأى السيفان يرون وقتًا فوقتًا ومعهم من حكم عليه بالقتل فكان
يرى على هولاء الناس هيئة فظيعة وعلى من اخذ للقتل زهول
وحالة شنيعة وكانت روساء العساكر تأتي من كل جهة وعليها

ملابس الحرب فتضرب لكل منهم نوبة بار وتدق له آلات الموسيقى الخاصة بهم وكل من حضر انضم الى من سبق حتى اذا حضر الملك بموكبه احاطت العامة به فحالت العساكر بينه وبينهم لاجل مرور الموكب فاول من مر (كاشتي كوفي) وعائلته فكانوا جميعاً يعلنون بفضائله ومدائحهم وهو يتمايل من جهة الى اخرى كالسكران وكان يظهر على وجهه الفرح والظاهر ان ذلك لوجود القرايين المعدة لآله فكانت غرابة حالته مناسبة لغرابة الحادثة واما المأخوذون للقربان فهم وان كانوا في حالة ذل وهوان تراهم ينظرون للملك غير مباينين به ولا مخنفين بابهته مع انه كان في فم كل واحد منهم سكين داخلية من جهة نافذة من الجهة الاخرى وكان الناس يكثرون من سبهم ولعنهم كأن ما هم فيه لا يكفهم ثم جاء من بعد (كاشتي كوفي) جميع الروساء وكانت هياتهم في هذا الموكب غيرها في الموكب الاول لانهم كانوا في الاول بهيئة من يخرج للمقاتلة والكفاح واما في هذا الموكب فكان عليهم ملابس الزينة والافراح على عكس ما تقتضيه الحالة الراهنة وكان عليهم تمام منها ما هو مصفح بالفضة ومنها ما هو مصفح بالذهب وكان مع الملك من الروسا من ليس لهم باين الملكة المتوفاة الفة وارتباط وكانت خيامهم في الميدان المذكور على شكل نصف دائرة سعتها نحو ميل على وجه التقريب والعساكر في النصف الاخر وكانت القرايين من الادميين في ذلك اليوم ثلاثة عشر ومعهم الجلادون عليهم لبد

سود ذو شعر فكانت هيأتهم كصورة الدب واشنع وكان محلهم جهة شمال الملك وحولهم الناس وكانت النساء اللاتي تقدم ذكرهن يدرن في الميدان ويغنن كما سبق وكان يفرق على الحاضرين شي كثير من النيبذ والروم وقد ارتفع من اصوات الطبل والزمر وصياح العبيد وغيرهم ما يزعج النفوس ويصدع الرؤس وبينما هم كذلك واذا بالبارود قد اطلق من جهة الملك ثم من سائر الجهات واستمروا على ذلك نحو ساعة وكان العسكر واقفين بمحلاتهم لا يفارقونها والرؤساء يتواثبون خلف بعضهم في وسط ذلك الميدان ولهم اشارات مزعجة وافعال فظيعة وعبيدهم تعدو خلفهم حاملة للبارق يذكرون اسماء ساداتهم ويعلنون بمناقبهم وشهرتهم وبعض العبيد كان ياتي الى سيده بعد ان يضرب ببندقته فيأخذها من يده وبينما هم كذلك واذا بعجوز ناشرة الشعر كانتا خرجت من قبر يقولون انها كبيرة المقدسين فدخلت وسط الرجال وصارت تجري من هنا الى هنا وهم يضربون حولها البندق من كل جهة ومن عادتهم في تعميزات البنادق ان تكون على قدر درجة الضارب وكان غالب البنادق مربوطاً بحبال وكانت الامراء لا تضرب الا وعبيدها خلفها كما تقدم اذ كان يحصل اغناء من شدة ضرب البارود فيدركه عبده عند ذلك ومن طيشهم وخفة عقولهم كان بعضهم يأتي الى ذلك السائح فيضرب ببندقته خلف اذنه ويضحك منه حين كان يراه ينزعج لما كان يراه من ان كثيراً من البنادق

ينفلق في ايدي الضاربين اما لعدم متانتها او لزيادة العيار ولما
فرغوا من ذلك تفرغوا جميعاً لشرب النبيذ فكان كل من اخذ منهم
كأساً اراق على الارض منه جزء وذلك عادتهم في تلك الجهات
كانهم سمعوا قول الشاعر

شربنا واهرقنا على الارض فضلة

وللارض من كأس الكرام نصيبُ

وبعد ذلك كله حضر كل من له قرابة الى المتوفاة من النساء
وصرن يرقصن وسط الجمع فكانت هياتهن في الجملة اجمل من
غيرها لان ملابسهن كانت من الحرير الاصفر ومع كل واحدة
منهن سكين من فضة قد علقتها في عنقها بسلسلة من فضة كذلك
إلا ان اثنتين منهن كان معهما شي من فضة كالزمار وبأيدي
جواربهن شمسيات تظلمن بها من الشمس مدة الرقص قال ولم
يكن رقصهن كرقص غيرهن بل كانت الواحدة منهن تعصب
وسطها بشيء من حرير فتاتي الى الرجل فيأخذ ذراعيها على كتفيه
وترقص وهي كذلك

وقبل ذبح القربان بعث كل من (كاتشي كوفي) والملك
الى بعض هذه النسوة بشيء من الخمر والخرفان ثم ضربت الطبول
اعلاماً بحلول الوقت لذبح القربان فقام الرؤساء وصاروا يقلبون
اولئك المساكين المحنوم عليهم بالذبح ولم يعلم السائح ما المراد من
ذلك لان المسافة بينه وبينهم كانت بعيدة قال وانما نظرت فرأيت

الجلادين يتنازعون في تعيين من يقدم منهم على غيره وكان المنتخب لان يكون اول مذبح ينظر اليهم نظر عدم الاكتراث والمبالاة مع ما كان يعاينه من المدة النافذة من شذقيه ثم اخذ احد الجلادين سيفه بيده وقطع به يد واحد من المعدين للقتل وهم ثلاثة عشر رجلاً كما تقدم ثم انهم طرحوه على الارض وذبحوه ثم اخذوا في ذبح الباقي الا ان هذا السائح لفضاعة الحال لم يمكنه الصبر حتى يشاهد ما يحصل بعد ذلك فقام وانصرف الى بيته فبلغه انهم بعد ذبح من تقدم قربوا قرباناً اخر من النساء في الصحراء التي دفنت فيها المتوفاة ومن عقائدهم الفاسدة انه يجب عند دفن مثل هذه المتوفاة ان يبل ثرى القبر بدم رجل حر فلذلك تراه اذا ارادوا الدفن ابتداءً اولاً بتصفيف رؤس المذبحين في داخل القبر امام عبيد العائلة فيتحايل العبد على اصطيداد رجل من الاحرار يبلون تراب القبر بدمه وذلك انهم يدعون الحاضرين لمساعدتهم في وضع النعش وفي خلال ذلك يتوارى احدهم في داخل القبر فيثب على واحد من الذين نزلوا للمساعدة ويضربه بسكين اعدها لذلك فيقع على الارض فيتركونه ويهبلون عليه التراب فلما رجعوا من دفنها اقاموا في عمل المآثم بارتكاب المآثم وشرب الخمر وضرب الطبل والزمر والرقص وضرب البنادق وفي كل ليلة تحضر الروساء والامراء ومن تأخر منهم أرسل نائباً عنه مصحوباً بهدية من النبيذ والروم واستمروا على هذه الحال اياماً

عدة ولولا ما هم بصده من الحرب لعمل لها ثمان مآتم في الاخير
 منها يضرب الملك السلاح بيده ومن عادتهم انهم بعد انقضاء مدة
 الحزنة تقوم اقرب النساء من الميت وتطوف حول البلد ثلاثة ايام
 لا تذوق فيها طعاماً ولا شرباً غير النبيذ فتشرب منه ما شاءت
 فتندب فضائل الميت ومناقبه وتمدح من اهدوا الهدايا واعطوا
 العطايا ومن عادة تلك الجهة انهم اذا مات ملكهم اعدوا مآتم كل
 من مات من اعيانهم وامرائهم مدة ملكه من ابتداء سلطته ايام مدته
 وجددوا ما تقدم من القرابين وغيرها فيحصل حينئذ من الاحوال
 الشنيعة والاهوال الفظيعة ما يضيق عنه البيان ويعجز عن وصفه
 اللسان وعند خروج روح الملك يقوم في الحال ابنه او اخوه او
 ابن اخيه او جميعهم معاً فيخرجون كلهم او بعضهم يطوفون في البلد
 فكل من عثروا به قتلوه لا يفرقون بين عبد وحر ومأمور وأمير
 وكبير وصغير ولا لوم عليهم في ذلك ولا عتاب ولا دية ولا حساب
 فتخفي الامراء في منازلها وربما ترسل عبيدها في الطرق والحارات
 لعلمهم يقتلون فيكونون فداء لهم ويستمر الحال على ذلك مدة
 يومين

ومن يقتل في هذا اليوم بعض خواص الملك وهم مائة رجل
 من الارقا وغيرهم يعاهدونه على الثبات في خدمته والموت يوم
 موته فيميزهم عن غيرهم باطواق من ذهب يضعونها في اعناقهم وقد
 يكون فيهم بعض اقارب الملك فيتكفل لهم بمؤنتهم ويرفع عنهم

التكليف والعقاب وجميعهم يقتلون يوم موته إلا اثنين أو ثلاثة هم
 امناء اسراره مدة حياته فهو لا يستبقونهم ويزججون سائرهم
 قال وسمعت ان ماتم الملك المتوفي قبل ملك ذاك الوقت يتكرر
 كل اسبوع الى ثلاثة اشهر يذبح في كل اسبوع نحو مائتي أسير
 ويحرق فيه من البارود نحو عشرين برميلاً واشهر هذه الماتم
 واعظمها ماتم والددة الملك عند موتها وقد كانت وليت نيابة تحت
 السلطنة في مدة حرب جرت بين الاشائين وجيرانهم الفتين
 وقد احصي من قتل فيها من قبل الملك خاصة فكان ثلاثة
 الاف نفس منهم الفان من الاسراء الذين استولوا عليهم من جيش
 العدو وما أحرق من البارود من قبله خمسة وعشرين برميلاً
 ومن قبل كل واحد من المحكام والامراء عشرة انفس وعشرين
 برميلاً واتي من كل بلدة من البلاد عشرة أعبد وبرميلان من
 البارود

واما مقابر ملوكهم فهي في محل مخصوص يعرف عندهم باسم
 (بن تما) حتى لو مات احد ملوكهم او اعيانهم بعيداً عن ذلك
 المحل ولو في الحرب تحفظوا عليه الى ان يدفنوه فيه بعد عمل الماتم
 المعتادة عندهم بما فيها من المخازي والفضائح وانواع القبايح وفيه
 يدفن الذهب المعد لهم وفي تجاه المحل المدفون فيه عظيم قدر كبير
 قد اعدوه لاجتماع دماء القتلى والقرابين فيه ولا يقطع ذلك بل
 تراهم يواظبون عليه لاجل بل تربة الملوك بدماء القتلى دائماً

ومن عادة ملوكهم ان يكون عدد نساء الواحد منهم لا يتقص ولا يزيد عن ثلاثة الاف وثلاثمائة وثلاثة وثلاثين لا اعتقادهم ان لهذا العدد سرًا مخصوصًا به وهذه النساء يقيم معه في بيته ست منهن وباقيهن يقن في الخارج فبعضهن يقن في محلتين خاصتين بهن تنقل عليهن ويرسل لهن ما يلزم من الزاد والنققة والبعض منهن يكون في مبان مخصوصة في ضواحي المدينة فاذا جاء موسم من المواسم اجتمعن حوله كلهن او بعضهن على حسب رغبته ولا يكلمن الامرا ولا يكلمونهن الا بواسطة تراجمة وهم رجال كهول من المشوهين

فاذا مررن بطريق بقصد نزهة او غيرها يتقدمن عدة اطفال بايدهم سياط يضربون بها كل من رآه في طريقهم لا يفرقون بين كبير وصغير وجليل وحقير فلذلك ترى الناس متى شعروا بهم انزعجوا وتخووا عن طريقهم وزاحوا بعضهم وربما وقع بعضهم على بعض من الزحام فيحصل من ذلك للناس اذى كثير وتعب كبير ومن العادة عندهم ان لا ينظر اليهن في مدة مرورهن احد من الناس بل يغطي كل احد وجهه بيده

ولا احترام للملك واكرامه لهن كان ما يصرف عليهن مصاريف جسيمة لان ما كلهن ومشاربهن وسائر لوازمهن مثل ما يكون للملك واذا اريد اخبار الملك بامر من الامور المهمة وهو عندهن فلا يصل

اليه به الآ الخادم الاكبر وهو كبير الخدم المعروفين في مصر
بالاغوات

ومن العادة عندهم ان اخت الملك لها ان تحب من الرجال
من اعجبها صورته سواء كان اميرا او حقيراً فاذا علم به الملك
هياً لها باحسن هيئة ووجه به اليها فاقام معها فان ماتت قبله الحق
نفسه بها ما لم يكن من ذوي النسب

فقال الشيخ ان ادنى ما ذكرت يدل على توحش هؤلاء القوم
وجهلهم وخشونة طبعهم وقلة عقولهم وكيف يكونون كذلك الى
الآن مع وجود الانكليز والفرنسيين وباقي الاوروبيين بسواحل
تلك الجهة افيعتهدون في ابطال بيع الرقيق واسره ولا يلتفتون
الى ابطال هذه العادات الفظيعة والرسوم الشنيعة مع ان اعناءهم
بها اهم والزم من اشتغالهم بابطال بيع الرقيق اذ لو فرض منع بيعه
بالكلية على زعم الرأفة به مع بقاء العداوة بين هؤلاء الطوائف
المتوحشة لم يكن لمن يقع في أسرهم من بعضهم غير القتل ولا شك
ان الاسترقاق والبيع اخف منه

فقال الانكليزي ان طائفتنا وطائفة الفرنسيين وسائر الافرنج
المقيمين بين اهل تلك الجهات لا يتعرضون لاعتقاداتهم ولا يمانعونهم
في اجراء رسومهم وعاداتهم فان ذلك يجبر عليهم من عدوة الاهلين
وغيظهم ما لا يكون لهم معه راحة فلذلك ترى المقيمين في تلك
الجهات من الامم الاوروبية لا يعينهم تغيير شي من ذلك اذ

المقصود لهم من الإقامة في تلك الجهات إنما هو التكسب بالتجارة في ما يستخرج من أرضها من المعادن وسائر مواد التجارة وإرسال ذلك إلى الممالك الأوروبية واستبداله بما يرد منها إلى البلاد فلا يشتغلون إلا بتوسيع دائرة هذه التجارة لا بتغيير العادات والمعتقدات إذ هذا مما لا يتيسر لهم هناك فإن هذه البلاد بسبب اتساعها وبعدها وصعوبة المرور والعبور بها لما فيها من الموانع كالغابات والخلجان ثم كثرة حرها وتغير هوائها وكثرة ما يعرض للأغراب من الأفرنج فيها بسبب ذلك من العلل الخطرة والأمراض المهلكة لا يتأني للدول الأوروبية أن تبعث لهذه البلاد بكثير من الناس والاجناد لمنع ذلك بالقوة القهرية والسطوة العسكرية فلذلك ترى المقيمين منهم هناك يخشرون السكوت على هذه الأحوال والاقتصار على التكسب والتجارة والبيع والشراء والاختذ والاعطاء

وقد أسست دولة الانكليز عدة مواضع للتجارة في مواقع مختلفة من هذه السواحل في امتداد قدره ألف وستمئة ميل انكليزي بين (سانت ماريا) (على مدينة نهر جنبي) وإكارا (مدينة جهة رأس عشم الخير) ونقلت إلى هذه المواضع مقداراً كافياً من العسكر وغيرهم أقامتهم بها وقبل أن تضع الحكومة يدها على هذه المواضع كانت إدارة أمورها موكولة لشركة تعرف بالشركة الأفريقية وقد بذل كل من تلك الشركة ودولة الانكليز جهده في استدامة السكنى بهذه الجهات ولكن لم يطب لاهل أوروبا العيش بها لما

اعتراهم فيها من الامراض الكثيرة فكان في كل سنة يموت قدر النصف ممن يرسل اليها من العسكر وغيرهم واتخذ الانكليز بها طرقاً كثيرة وتدابير متنوعة لانتشار الزراعة بها وتحسين احوالها فلم ينجح الا القليل منها في بعض الجهات دون بعض وكذلك جددوا بها مدارس ومكاتب للذكور والاناث جمعوا فيها كثيراً من اهل البلاد فلم يترتب على ذلك للبلاد كبير فائدة لان من تربى منهم ولم يمت في عهد قريب اثر الإقامة بين من تربى عندهم على الإقامة بين اهله في بلده لكرهتهم له وتبرئهم منه ويعلمه انه اذا اتى اليهم مقتوه واحتقروه وان تكلم بما يخالف عقيدتهم قتلوه

وكما فعلت دولة الانكليز معهم كذلك فعل الفرنسيين والفلنك وغيرهم وقد غيرت كل من هذه الامم مواضعها وانتقلوا من موضع رأوا فيه كثرة الامراض الى موضع ظنوا فيه جودة الهواء فخاب امل الجميع وتحققوا عدم النجاح ولذلك قل توارد الاوربيين اليها وصار المتوطنون بها من الاغراب هم المتناسلون بينهم وبين الافريقيين او الذين هاجروا اليهم من الامريكيين او اهل جزائر المحيط

وبالجملة فجميع التجار المقيمين هناك اخلاط متجمعون ومن شدة اخلاطهم باهل البلاد وطول زمن اجتماعهم ببعضهم كادت تقتارب طباعهم وتشابه اخلاقهم وانما بقي في الاغراب بعض عاداتهم واخلاقهم الاصلية مع عدم التعرض لدم عادات اهل البلاد

والتصدي للنهي عنها لعلمهم بان ذلك يغري الاهلين بهم ويوقع
العداوة والبغضاء فيما بينهم فلماذا اخاروا السكوت عن ذلك
وما ذكرناه من احوال هذه البلاد واهلها ليس الا القليل
النادر بالنسبة لما لم نذكره فان عجائب افريقية وغرائبها اكثر من ان
تختصر وفيها للسائحون كلام كثير يطول تتبعه وفيها من انواع
الحيون والنبات والاحجار ما لا يوجد في غيرها من الجهات فهي
مخزن العجائب ومعدن الغرائب وكل بقعة منها تحتاج الى مجلدات
متعددة فضلاً عما لم يصل اليه احد من الامم المتقدمة ففيها جزء
عظيم متسع لم ينكشف لنا الى الان امره ولم تعلم حقيقته وما ذكره
عنه السائحون في كتبهم انما هو بالنقل والرواية لا بالمعاينة
والدراسة وفي افريقيا انهار عظيمة كالنيل معظمها لا يدرى الى الان
منبعه وغالب ما قالوه فيها انما هو بالظن والتخمين لا بالقطع
واليقين

فلندع الكلام الان في هذا المعنى ونسمع من يعقوب بقية
حديثه وما جرى له الى ان صار معنا وهل رجع الى بلده ورأى
اخنه ام كيف كان حاله بعد خلاصه من يد هولاء السودان

فهرس

الجزء الثاني

من كتاب

علم الدين

صفحة	المسامرة	في
٢٩٧	السابعة والعشرون	التيارات
٤٤١	الثامنة والعشرون	الظارات
٤٤٥	التاسعة والعشرون	الأدات
٤٥١	الثلاثون	القهوة
٤٥٦	الحادية والثلاثون	الحشيش
٤٦٤	الثانية والثلاثون	يوم العطلة
٤٦٨	الثالثة والثلاثون	مرسليا
٤٧٣	الرابعة والثلاثون	شدرات
٤٩٨	الخامسة والثلاثون	كتاب علم الدين

صفحة	المسامرة	في
٥٠٦	السادسة والثلاثون	الارق والصلوة
٥٠٩	السابعة والثلاثون	السكر
٥١٣	الثامنة والثلاثون	الميسر والانصاب والازلام
٥١٧	التاسعة والثلاثون	حكاية المصري الغريب
٥٢٩	الاربعون	المحار
٥٣٨	الحادية والاربعون	الودع
٥٤٠	الثانية والاربعون	اللؤلؤ
٥٥٣	الثالثة والاربعون	الديار
٥٧٠	الرابعة والاربعون	دود الخشب وغيره
٥٧٦	الخامسة والاربعون	دود الفز
٥٨١	السادسة والاربعون	ابو دقيق
٥٨٦	السابعة والاربعون	المنحل
٦٠١	الثامنة والاربعون	الحشرات
٦١٩	التاسعة والاربعون	النمل
٦٣٠	الخمسون	الانسان والحيوان
٦٣٤	الحادية والخمسون	دعوة انس
٦٤٤	الثانية والخمسون	ذم الدنيا ومدحها
٦٥١	الثالثة والخمسون	حكاية يعقوب
٦٥٨	الرابعة والخمسون	كلب البحر والدميرة
٦٦٤	الخامسة والخمسون	النوء والفرق
٦٧١	السادسة والخمسون	الوحدة
٦٧٦	السابعة والخمسون	السود
٦٨١	الثامنة والخمسون	الفيل
٦٩٠	التاسعة والخمسون	المخلاص

صفحة	المسامرة	في
٦٩٢	الستون	الذهب واستخراجه
٦٩٦	الحادية والستون	بلاد سنغامبيا
٧٠٥	الثانية والستون	الزباء وجذبة الابرش وقصير وييس
٧١٢	الثالثة والستون	الرقبق
٧٢٢	الرابعة والستون	السودان بافريقيا
٧٢٤	الخامسة والستون	العرب الجاهلية
٧٤٥	السادسة والستون	الوضوء والتميم
٧٤٨	السابعة والستون	مملكة اشانتي



